د. ليلى عنان

الحملة الفرنسية
فى محكمة التاريخ

• الجزء الثانى •





سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٤ - جماد ثانى - أكتوبر ١٩٩٨

NO - 574 - OC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

الحملة الفرنسية

فى محكمة التاريخ

(الجزء الثانى)

بقلم

أ . د . ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية
جامعة القاهرة

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مدخل الجزء الثانى

سبق أن تعرف القارىء فى الجزء الأول من هذه الدراسة «الحملة الفرنسية ، تنوير أم تزوير : عصر الأساطير» ، على الجذور التى نبتت منها فكرة الحملة على مصر ، والجو الذى نشأت فيه، وتتبع تطورها حتى أصبحت أسطورة يفخر بها كل فرنسى ، حتى يومنا هذا .

إذ كانت فرنسا ثورة ١٧٨٩ هى الحرب ، الحرب فى الداخل والخارج . ومنذ الأشهر الأولى لقيامها ، اعتبر الجميع أن فرنسا أصبحت على دراية تامة بكل شئون البشر فالثوار - حسب تعريف أحد الصحفيين المعاصرين لهم - قد تحولوا إلى آلهة، وغدت هناك تجربة رائعة للثورة لابد أن تطبق نتائجها على شعوب العالم التى تنتظر الخلاص على يديها ، ففرنسا الثورة هى روما العصر الحديث ، ولابد لها ، بالتالى أن تستولى على العالم لتفرض قوانينها الحكيمة على الجميع .. مثلما فعلت روما القديمة فى الماضى. كان هذا جزءا من ميراث فلسفة التنوير ، وانبهاره بالإله الجديد ، «العقل البشرى» ... الفرنسي. أصبحت تلك الفكرة خير تبرير للتوسع الاستعمارى «للأمة العظمى» ، التى هى فرنسا الثورة، فكان القتل مصير كل من يناهضها؛ وكان الفرنسيون الرافضون للحكم الجديد على رأس قائمة القتلى .

وباسم الحرية ، وقوانين أكثر الأمم حكمة فى الوجود ، قامت حكومات الثورة باحتلال البلدان المتاخمة لحدودها ، وقد عوملت تلك البلدان ، سواء كانت بلچيكا أو إيطاليا ، كمستعمرات يستنزف الجيش الفرنسي المحتل كل مواردها من أجل الجمهورية الجديدة ، مما أثار ردود الفعل الوطنية والثورات التحريرية . وقد كشفت الدراسات ، التى نشرت بمناسبة مرور قرنين من الزمن على قيام تلك «الثورة الكبرى» ، زيف أسطورة الجند الفرنسيين الذين نشروا مبادىء الحرية والمساواة والإخاء في البلاد التى «حررتها» اسماً واستعمرتها بالفعل، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وكان كل ذلك لإيجاد حل للأزمة الطاحنة التى تعصف بالاقتصاد الفرنسي ، وكان أكثر المؤرخين فضحا لذلك الواقع المؤسف، هو «فرانسوا فوريه» في كتبه عن «الثورة الفرنسية» .

كان جو الأساطير مسيطرا على كل أدبيات آنذاك ، فكان انتصار الجنرال بونابرت فى إيطاليا سبباً فى بزوغ نجم أسطورة جديدة ، عرف هو كيف يستغلها .

وكما نقرأ فى كتب «جان تولار» الحديثة ، فقد كانت سيطرة بونابرت التامة على العقول من خلال الدعاية المكثفة لشخصه ، من أحسن مؤهلات هذا الجنرال العبقرى الشاب ، وذلك بمساعدة فريق ناصره ، وجعل منه منقذ فرنسا المنتظر . وقد زاد الانبهار ببونابرت آنذاك ، عندما احتل مصر ذلك البلد البعيد الغامض ، الذى يعد هو أيضا من أساطير الفكر الفرنسي ، بسبب أهرامات أسطورية كان يعيش فيها كهنة الفراعنة الحكماء . وبما أن بونابرت وحزبه لم يتحدثوا إلا عن

انتصاراته التى ضخمت للغاية ، كما فعلوا أثناء حملته السابقة على إيطاليا ، فقد عاد بونابرت ، بعد فشل الحملة على مصر ، حاملاً لقب «المنتصر الذى لا يهزم أبداً»، واستولى بونابرت على الحكم بعد شهر واحد من عودته إلى فرنسا ، بعد انقلاب عسكرى سافر على الشرعية النيابية. وبدأ تاريخ بونابرت الطاغية الذى سيصبح الإمبراطور نابليون ، الأسطورة الجديدة وتحول كل ما يمس شخصه إلى معجزة لا يقدر عليها إلا إله! وقد شبه بالرب فعلا كما قرأنا فى الجزء الأول من دراستنا هذه، وفى كتب «چان تولار» أيضا.ولقد كانت العبقرية الإعلامية لنابليون - امبراطور الثورة - أقوى من أية حقيقة فقام بتجريد فرنسا من مكاسب الثورة الديمقراطية كلها ، بعد أن ألغى كل الحريات ، بما فيها الحريات الشخصية. ولكن نجمه بدأ فى الأفول عندما بدأت هزائمه تتوالى إلى أن جاءت النهاية : احتلت جيوش أوربا كلها فرنسا ، وعادت الملكية ، ونفى الإمبراطور المخلوع إلى جزيرة «سانت - هيلانة» الاستوائية . وبدأت فى الوقت ذاته أخطاء ملوك فرنسا ، فأخذت الأساطير تحكى عن نابليون «المهزوم العظيم» الذى مكن فرنسا ذات يوم من كل بلدان أوربا .

زادت الأسطورة انتشارا عندما ظهرت فى المكتبات مذكرات «لاس كاز» التى كونت كتاب « الميموريال» الشهير ، حيث قال نابليون فيه ما كان يريد أن يقال عنه وعن حكمه ، وحبه للحرية ودفاعه عن القوميات ! وصدق الجيل الجديد من الفرنسيين التهويمات التى أطلقها الأسير العبقرى من جزيرته النائية ، وتغنى الشعراء والكتاب بأمجاد الرجل

العظيم ، وأخذوا يرددون كل ما قاله هو عن نفسه . وقد كانت رحلته الباهرة إلى بلاد الأساطير ، مصر الغامضة ، أهم درة فى تاريخ نابليون المجيد ؛ فأصبحت الحملة عليها جزءا من أسطورة كاذبة ، هى أسطورة نابليون نفسه .

جاءت أخيرا مبادىء ثورة ١٧٨٩ إلى الحكم مع الجمهورية الثالثة، عام ١٨٨٠ ، لتمحو ذكرى هزيمة فرنسا النكراء فى عام ١٨٧٠ ، عندما احتلها البروسيون لإنشاء «إمبراطورية ألمانيا» فأكدت الجمهورية الثالثة على كل أمجاد فرنسا السابقة خاصة الأمجاد الحربية ، وكان لنابليون - بالطبع - نصيب الأسد فى تلك الأمجاد .

وبدأت تلك الجمهورية ، فى الوقت ذاته ، تتوسع فى الحروب الاستعمارية وقد جعلت الحملة على مصر ، خير مثل يحتذى به ، لبلد ناءٍ متخلف ، حملت له الجيوش الفرنسية الحضارة والحرية. فقد كان إرساء الحضارة فى البلاد المتخلفة ذات الأجناس الدنيا - كهدف نبيل - أفضل حجة لتبرير تصرفات الرجل الأبيض فى القرن التاسع عشر ، وهو - بالتالى - خير وسيلة لطمس فكرة استنزافه موارد الدول الضعيفة فى افريقيا وآسيا . فتغنى المؤرخون بالحملة على مصر ، للتأكيد على الدور التحضيرى الأبدى للجند الفرنسيين، مغفلين كل ما يمكن أن يمس ، بسوء ، سمعة الجيش الفرنسى، حامل لواء الحرية والحضارة للعالم . وعلى الرغم من اعترافهم بفشل الحملة ، إلا أنهم قد

نشروا تلك الأفكار مؤكدين أن الحملة على مصر كانت لها «نتائج باهرة». ولم تزد تلك النتائج - باعترافهم - على ثلاث : اكتشاف حجر رشيد، كتاب «وصف مصر» وإنجازات المعهد الفرنسى، دون توضيح ماهية تلك الإنجازات بالضبط ، أو مدى استفادة المصريين منها .

ناهيك عما قيل فى حب المصريين لبونابرت والجيش المستعمر ، وفرحتهم بهما ؛ علاوة على إطلاق مسلمات لا حصر لها ، كلها مبهمة لا تستند إلى واقع محدد ، أو مرجع موثوق به. والغريب أن كثيرا من الفرنسيين كان قد فند صحة تلك المسلمات الخادعة ، وهم ممن لا نستطيع رد كلامهم ، لأنهم شهود الحملة العيان .

وإذا كنا قد تعرفنا - فى الجزء الأول من دراستنا هذه «عصر الأساطير» - على المناخ الذى ترعرعت فيه الأسطورة ، وتابعنا تطورها؛ فإننا نكمل هنا ما قد بدأناه ؛ فنعرض لكتابات بعض هؤلاء الفرنسيين التى تتسم بنزعتها المستمرة لتمحيص المفاهيم والتصورات الراسخة عن الحملة وتأثيرها على مصر والمصريين ، ومن ثم فإنها تعتبر كتابات تحطيم الأسطورة القديمة وتفنيدها بالانفلات من أسر المسلمات العتيقة، وذلك فى إطار محاولتنا حصر دلائل التأثير الواقعى للحملة على مصر والمصريين المعاصرين لها ، وما بعدها أيضا : الأمر الذى يهيىء لنا معرفة الوجه الآخر للحملة .

ونبدأ «بشاتوبريان» الذى كان أول من وضع أسس أسطورة الحملة على مصر فى كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» كما سبق أن قرأنا .

الفصل الأول

شاهد من أهلها المعاصرين

«كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التي أخمدنا بها مثيري الشعب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن حكمنا كان خاطئا لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة» .

كابتن «مواريي»

إذا درسنا ما كان يقوله عن نابليون ألد أعدائه من الأدباء، فإن الصورة تكون أكثر وضوحا ، ومن ثم ، نستطيع أن نتفهم التأثير الذى أحدثته أسطورة نابليون على عقول بعض الفرنسيين ، حتى يومنا هذا .

لقد كان مؤلف «المسار من باريس إلى أورشليم» الكاتب الكبير «الفيكونت رينيه دى شاتوبريان» وهو عملاق من عمالقة أدب ذلك العصر والعدو اللدود لنابليون ، يلتقى مع العملاق «فيكتور هوجو» فى نقطة واحدة، وهى أن فرنسا عرفت – أيام نابليون – مجدا لا حد له ؛ ولكنه يختلف معه بعد ذلك ، اختلافا جذريا(*).

فعلى الرغم من أن «شاتوبريان» كان ألد أعداء نابليون ، إلا أن انتصارات الإمبراطور كانت تدغدغ شوفينيته المتوهجة. لقد قال فى الرجل ما قاله مالك فى الخمر ، وجاءت الدراسات الحديثة لتؤكد صحة كل ما قاله «شاتوبريان» عنه ، خاصة دراسات «چان تولار» – كما أسلفنا فى الجزء الأول – عن نابليون وأساطيره المصطنعة . ومن هنا ، كانت أهمية قراءة الوجه الآخر لأسطورة نابليون بونابرت فى مصر ، كما قالها «شاتوبريان» فى القرن التاسع عشر ، قبل أن نقرأ شهادة من شارك فى الحملة لقد قال مؤلفنا الشهير الحقائق التى لم يهتم أحد بالرجوع إليها ، إلا أخيرا جدا . وعلينا أن ننوه هنا إلى ظاهرة لم نؤكد عليها فى حينها – أى فى الجزء الأول – وهى أن «شاتوبريان» ، فى كتابه الشهير «المسار من باريس إلى أورشليم» ، مجد جند فرنسا فى مصر، ولم يقل كلمة عن قائدهم كما أنه «رأى» آثار الحضارة الفرنسية، فكان من أوائل من أرسوا أسطورة الحملة التحضيرية على مصر. كانت

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

الحقائق قد عرفت من خلال نشر مذكرات شهود عيان للحملة ، وإن كانت تلك المذكرات لم تحدث تأثيرا يذكر لدى القراء ، حتى يومنا هذا . ولكن «شاتوبريان» ، كان قد تعرف على بعضها ، بعد نشره لكتاب «المسار من باريس إلى أورشليم» .

نشـــر هذا الكتاب - كما سبق أن أشرنا فى الجزء الأول - سنة ١٨١١ ، ونشر الميموريال سنة ١٨٢٢(*). وهلع «شاتوبريان» من الأسطورة التى بنيت لتؤله نابليون ، وحاول جاهدا أن يحطهما فى «مذكرات ما وراء القبر» ولكن هذا المجلد لم ينشر إلا بعد وفاة كاتبه ، أى بعد ١٨٤٨ فجاء مهملا من القراء ، مثله مثل كل ما يمكن أن يمس أسطورة الحملة عندما يتعرض الكاتب إلى ما حدث للمصريين على يد جيش المجد ، أى «جيش إيطاليا» .

ولكن الأمر هنا له دلالة كبيرة بالنسبة لنا ، إذ رأينا «شاتوبريان» ، سنة ١٨١١ يرسخ أول فكرة موضوعية عن أمجاد الجيش الفرنسى فى مصر ثم نراه يتراجع عن نظرته المنبهرة تلك ، بل يغير رأيه تماما بعد ذلك ، كما سنرى ؛ لم يؤثر ذلك على القراء الفرنسيين مطلقا، كما سنراهم دائما ، لا يهتمون إلا بالتمجيد ويهملون ، إهمالا تاما ، كل ما يمكن أن يفضح حقيقة بذيئة ، لا يحتمل الضمير الفرنسى أن يعترف بها. إلى أن جاء جيل ما بعد انهيار الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، أى جيل ما بعد ستينات القرن العشرين .

* ارجع إلى الجزء الأول .

لقد بهر «شاتوبريان» ، في وقت سابق ، بـ «خمسة جنود فارين من الخدمة» ، عندما رآهم على وشك السيطرة على مصر سنة ١٨٠٦ ، وهم يفتحون له الطريق في أزقة القاهرة . ورأيناه يتغنى بأمجاد الحضارة التي أهدتها فرنسا بجندها إلى مصر ، وبما رآه من آثارها التي لم نتعرف منها إلا على حديقة صغيرة. فكيف غير «شاتوبريان» رأيه بعد ذلك ؟ وماذا قال بعد أن قرأ - حسب اعترافه ، وبعد أكثر من ربع القرن- مذكرات شهود الحملة العيان ، والتي سنعرض لها فيما بعد ؟

نتذكر طبعا أن غضبه من نابليون ينصب على كون الجنرال سياسيا ملحدا ، يلعب بانتماءاته الدينية المتغيرة حسب الظروف ؛ في حين أن واجبه كان يحتم عليه ، من وجهة نظر شاتوبريان ، أن يقوم بدحض الإسلام ، وتمجيد المسيحية ، ثم تنصير مصر. فقد كان واجبه الأول أن يكمل ما فشل فيه الملك لويس التاسع ، وباقي الصليبيين ولكننا نرى «شاتوبريان» ، بعد ذلك ، وقد توصل إلى معرفة بعض ما تم من فظائع على يد الجيش الفرنسي ، حتى أنه يعترف - ويا للعجب - بحق المصريين في الدفاع عن أنفسهم .

وفي «الميموريال» ، وقبله ، نرى أن نابليون كان قد نفى كلية أمر تسميم جنده ؛ وكانت هذه التهمة قد لاحقت نابليون منذ عودته من مصر، حتى أنه قد أمر برسم لوحة تؤكد زيارته لمرضى الطاعون، ، والعناية بهم، بل ولمسهم أيضا، كما سبق أن رأينا ولكن «شاتوبريان» يدين نابليون ، ويؤكد جرمه - مدللا على ذلك بشهادة الأطباء الذين حضروا تلك المأساة - وينفي في الوقت نفسه ، أي ادعاء يعمل على تبرئة نابليون من تلك الجريمة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفرنسيين أخذوا ينظرون إلى نابليون وكأنه السيد المسيح بعد أن وصلت الأسطورة إلى ذروتها سنة ١٨٤٠ عندما عاد رفاته إلى باريس ، فأصبحت تلك الاسطورة ، بالتالى ، أقوى من أى دليل أو شهادة يمكن أن تمس شعرة من سمعة الرجل .

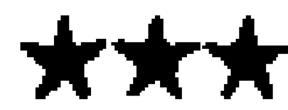
وعلينا أن نقرأ - حرفيا - ما كتبه «شاتوبريان» فى مؤلفه الذى نجح نجاحا باهرا وإن كان قراؤه قد أصروا على عدم رؤية هذه السطور التى تجرح إعجابهم برجل عظيم آخر ، هو نابليون .

«شاتوبريان» : «مذكرات ما وراء القبر»

ولد «شاتوبريان» فى ١٧٦٨ ، أى أنه كان يكبر بونابرت بسنة واحدة ؛ ولذا فقد جاءت شهادته مختلفة اختلافا جذريا عما رآه باقى الأدباء الذين كتبوا عن الإمبراطور : فهم لم يتأثروا إلا بما قيل عنه ، فى حين أن «شاتوبريان» نفسه كان معاصرا لحياة نابليون من بدايتها إلى نهايتها .

فقد مات الإمبراطور فى ١٨٢١ ، ولم يمت «شاتوبريان» إلا فى ١٨٤٨ . أى أنه قد تعرف أيضا على مدى الإطراء والتضخيم اللذين أضفاهما باقى الأدباء على أسطورة نابليون المنفى المتوفى . وكان «شاتوبريان» من النبلاء الذين هاجروا بعد الثورة ، ولكنه عاد سنة ١٨٠٠ ، عندما أصدر بونابرت عفوا شاملا عن كل من يعود إلى فرنسا من المهاجرين شريطة أن يقبل حكمه ، وينسى مطالبة «آل بوربون» بعرش الملكية. وبالفعل ، عاد كثير منهم ، وأصبحوا من أخلص معاونى الحكم الجديد . وعين «شاتوبريان» دبلوماسيا سنة ١٨٠٢ ، بعد أن

أصبح ، بين عشية وضحاها ، أشهر كاتب فى فرنسا ، عندما نشر روايته «آتالا» ، ثم كتاب «عبقرية المسيحية» . وقد واكب نشرهما – بما لهما من طابع دينى مؤمن إيمانا مطلقا – المصالحة التى تمت بين بونابرت والبابا ، وعودة الكنائس إلى وظيفتها الأساسية ، بل وعودة الفرنسيين إلى دين أجدادهم . ولكن نابليون أمر باختطاف «دوق دانجيان» من الأراضى الألمانية ، وأصبح هذا الأمير الشاب رمزا لتعسف نابليون ، عندما حوكم محاكمة صورية ، وأعدم فى الليلة نفسها دون سبب يذكر ، اللهم إلا ضرورة إرهاب التيار اليمينى فى البلاد . قدم آنذاك «شاتوبريان» استقالته ، وأصبح من ألد أعداء نابليون ، وانضم إلى معارضة الأدباء التى تزعمها بعض أصدقائه من مشاهير ذلك العصر . ثم سافر بعد ذلك إلى الشرق وزار من بين الدول التى مر عليها فى سنة ١٨٠٦ ، مصر محمد على ، ثم نشر كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» .



إن ما يهمنا الآن هو ذلك المجلد الضخم لسيرته الذاتية الذى أسماه «مذكرات ما وراء القبر». ومثلما رسم نابليون لنفسه صورة مجملة فى «الميموريال» ، جاءت هذه المذكرات ، التى دونها «شاتوبريان» طوال حياته ، ليحكى فيها ما يريد هو أن يعرف عنه ، وعن آرائه السياسية وحياته الخاصة ، وكان قد لعب بالفعل دورا فعالا فى سقوط نابليون ، وإحلال عائلة «البوربون» بدلا منه على عرش فرنسا ، عندما نشر فى

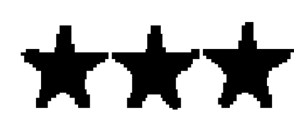
١٨١٤ ، منشورا بعنوان «عن بيونابرته والبوربون»، ومجرد استعماله للاسم الإيطالى لنابليون ، يفصح عن رأيه الذى تضمنه ذلك المنشور .

ولعب «شاتوبريان» خلال الحقبــة الملكيـة بعد ذلك دورا سـياسيا محدودا ، ولكنه صدم فى الحكم الملكى ، لرفضه ليبرالية سياسية كان «شاتوبريان» ينشدها دائما ، وكان غيابها سببا فى كراهيته لنابليون .

وتعتبر «مذكرات ما وراء القبر» من أجمل ما كتب فى الأدب الفرنسى، وهى فى شموخها كالجبل الذى يبهر بعظمته ، وإن كان المؤلف يرهق القارىء بذاتيته المفرطة ، وبادعائه المستمر تواضعا لا يخدع أحدا. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يكف عن ذكر نابليون الذى نجده تقريبا فى كل فصل من فصول هذه المذكرات الضخمة ، بل نجد فصولا بأكملها تفرد لسرد تاريخه العاصف. وما هذا ، بالطبع، إلا دليل قاطع على سيطرة فكرة هذا الرجل الفذ على كل من عرفه أو عاش فى عصره ، حتى وإن ناهضه بقوة ، كما فعل «شاتوبريان» .

والمنشور المسمى «بيونابرته والبوربون» يعرف الفرنسيين بكل ما كان يقال عن نابليون من شائعات واتهامات ، أصبحت بفضل أسلوب «شاتوبريان» الساحر ، ذات مصداقية أقنعت من كان رافضا لها ؛ بما فى ذلك فكرة أن نابليون، فى حقيقته، لم يكن إلا «بيونابرته»، أى ذلك الإيطالى الذى يدعى أنه فرنسى ؛ فبأى حق يتولى حكم فرنسا وهو غير فرنسى ؟ وكان نابليون ، بالفعل ، يكتب اسمه بهذه الطريقة عندما كان يشترك فى حركة تحرير جزيرته كورسيكا ، قبل أن ينضم إلى مؤيدى

الثورة الفرنسية، فى أول حياته. وكان لمنشور «شاتوبريان» صدى جعل الملك ، العائد إلى فرنسا ، يعتبره من أهم دعائم ملكه الجديد. كل هذا يؤكد لنا درجة كراهية «شاتوبريان» للإمبراطور المهزوم ، ويجعلنا نهتم جدا بما كتبه عنه حتى بعد أن خيب آل «بوربون» آماله. توالت بعد ذلك الثورات وأصبحت لنابليون سيرة عطرة يتغنى بها الجميع، فكانت محاوله تفنيد ما قيل فى «الميموريال» من أهم أهداف «شاتوبريان»، وبالتالى دحض الأسطورة المنيرة التى اكتسحت أعمال الأدباء. وأغرت السياسيين، حتى نسوا حقيقة حكم نابليون القاتل للحريات. كان «شاتوبريان» قد ترك السياسة، وكرس وقته كله لتدوين باقى مذكراته، لنجد فيها ما يهمنا من رؤية معاصر فذ، لشخصية نابليون الفذة، فتكون الوجه الآخر للأسطورة التى ترعرعت فى حياته: إنها الأسطورة السوداء «للغول»، «السفاح»، «الطاغية» .. إلخ..



أول ما يلفت النظر فى هذه المذكرات بعد اصطدامنا بالذات المتضخمة لكاتبها، إيمانه المطلق المتعنت بالمسيحية، بمذهبها الكاثوليكى طبعا، وحبه الشوفينى لبنى وطنه. كما يلفت النظر، أيضا إيمانه وتمسكه بالأفكار الليبرالية، التى أثبت إيمانه بها برفضه حكم نابليون عندما لم يجدها فيه، كما كان غيابها عن الحكم الملكى لعائلة «بوربون» نفسها، سببا فى معارضته لها، فكان رفضه لكليهما، على الرغم من إيمانه بشرعية عائلة «بوربون» وولائه لها.

والمؤلَّف الذى سنقرأ أجزاء منه، يقع فى أكثر من ألف صفحة، ولا يسعنا بطبيعة الحال إلا تقديم ترجمة لبعض الفقرات التى نرى أنها أكثر دلالة، حتى تتضح لنا الصورة، عندما يحكم «شاتوبريان»، عبقرى الأدب، على نابليون، عبقرى الحرب والسياسة.

★ ★ ★

نقرأ فى الصفحات الأولى من المجلد، وفى الصفحة السادسة تحديدا: «فى الرابع من أكتوبر عام ١٨١١ ،...، هذا الرجل الذى لا يهدى سلطة العالم إلى فرنسا إلا ليسحقها هى نفسها تحت أقدامه، هذا الرجل الذى أعجب بعبقريته وإن كنت أمقت طغيانه، هذا الرجل يحيطنى بتعسفه وكأنه صحراء تحيط وحدتى، هذا الرجل يطحن الحاضر، ولكن الماضى يتحداه». نلاحظ أن هذه الكلمات، الواضح معناها، والتى قد كتبت منذ ١٨١١، تلخص بدقة متناهية كل ما سيقوله «شاتوبريان» عن نابليون بعد ذلك، على مدى حياته الطويلة؛ إنها ببساطة، رأيه فى هذا الرجل « العبقرى ... الطاغية» خاصة أن ما سيؤكده «شاتوبريان» بعد ذلك من محاربته للطغيان، حقيقة تاريخية، تثبتها كل أفعاله حتى وفاته سنة ١٨٤٨. ويقول صادقا: «دافعت عن حريات فرنسا لأنها وحدها الكفيلة باستمرار شرعية العرش». ولذا، سنجد أن كره الطاغية، فى كتابه، يتزامل دائما مع انبهاره بعبقرية نابليون. فهو كثيرا ما يلقبه «بالجائر على حرياتنا»، كما يعترف، فى الوقت نفسه، أن «هذا الرجل العملاق الذى شاهدته يهوى، هو بحق سيد أوربا». وعندما تم إعدام «دوق دانجيان» وترك «شاتوبريان» خدمة

نابليون، وتحول إلى معارض له، نرى الكاتب يعجب لمثل تلك السقطة من رجل مثل نابليون: «إن العقلية الفذة لا تلد الشر دون ألم، لأن الشر ليس نبتها الطبيعي، وما كان عليها أن تحمله» . ورأيه فى نتائج الإمبراطورية لا شك فيه: «لقد مررنا، دون أية فائدة بالعديد من الجرائم وبالكثير من المجد، إن الثورة والإمبراطورية لم يكن لهما أية فائدة». وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى أن «جيلا جديدا وقويا نبت من كل هذه الدماء، وكبر وأصبح لا يهدر إلا دماء الغرباء، تحول الجمهوريون على مر الأيام إلى إمبراطوريين، ومن طغيان الجميع إلى طغيان شخص واحد»، الذى هو بالطبع طغيان «بونابرت». إن «شاتوبريان» يعذر الفرنسيين إلى حد ما «لأن الجمهور سئم الفوضى، فعاد طواعية إلى عبودية القانون»، ولكنه كان قانون «الطاغية بونابرت» فقد «أغرق (هذا الرجل) أرض فرنسا بأمجاد تتساوى فى عددها بعدد الكوارث». وعلى الرغم من ذلك، فهو يكتب قائلا: «إعجابى ببونابرت كان دائما كبيرا وصادقا، حتى عندما كنت أهاجمه بضراوة».

ولذا، فهو يعيب عليه جريمتين، قتل الدوق الشاب البرئ، وغزو أسبانيا، لأنه «عندما كان يخرق القوانين الأخلاقية، كان، فى الوقت ذاته، يهمل ، بل يحتقر قوته الحقيقية، وأعنى بذلك ميزاته الرائعة من نظام وعدل». وكأن «شاتوبريان» لا يحتمل أن تكون لشخصية نابليون وجه قبيح، وهو المعجب المنبهر به. إن كاتبنا يتمزق بين حبه لوطنه، الذى حرم من كل الحريات أثناء حكم نابليون، ويفخر فى الوقت نفسه، أى فخر، بالمجد الذى وصلت إليه الجيوش الفرنسية فى عصر الإمبراطور.

ولكن ما الثمن الذى دفعه الفرنسيون فى سبيل ذلك المجد؟، وأين الحرية التى لا يرى «شاتوبريان» قيمة تعلو قيمتها؟

إن «شاتوبريان» يذكر القارئ أن أول عمل لفت الأنظار إلى بونابرت كان أثناء حصار مدينة «تولون»، «حيث أراق لأول مرة الدماء، وكانت دماء فرنسية». لقد أعاد «بونابرت، القنصل الأول، النظام إلى فرنسا، ولكنه فعل ذلك كطاغية».. «إن بونابرت كان يعتبر أى استقلال ثورة على سلطته»... «كان يغار من أية شهرة، ويعتبرها اغتصابا لحق خاص باسمه وحده: كان لابد أن يكون اسم نابليون هو الاسم الوحيد فى العالم». وإذا ما قارنه بالإسكندر الأكبر، الذى حاول نابليون محاكاته، قال: «كان المقدونى ينشئ الإمبراطوريات وهو يركض، بينما كان بونابرت يحطمها وهو يركض؛ وكان هدفه الوحيد أن يصبح وحده سيد الكرة الأرضية، دون أن يزعج نفسه بوسائل الاحتفاظ بها»... «لقد ورث كل ما بنته الملكية الفرنسية على مر القرون وما اكتسبته الثورة من أراض لفرنسا: جلس على هذه المنصة الرائعة ومد ذراعيه، واستولى على الشعوب وجمعها من حوله، ولكنه فقد أوربا بالسرعة التى استولى بها عليها، وأجبر الحلفاء على احتلال باريس مرتين، على الرغم من عبقريته العسكرية. كان العالم تحت قدميه، ولم يفز فى نهاية الأمر إلا بالسجن لنفسه، وبالمنفى لعائلته، وبضياع كل التوسعات التى حصلت عليها فرنسا، بل وجزء من أرضها العتيقة». ثم يتحول «شاتوبريان» إلى أسلوب السخرية المريرة «مجد مولانا لم يكلفنا إلا نحو مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل فى السنة، ولم ندفع إلا ثلاثة ملايين من جندنا ثمنا

له، ومواطنونا لم يدفعوا له إلا خمسة عشر عاما من العذاب وفقدان حرياتهم: هذه الترهات، ألها أية قيمة؟... إن مصائب الثورة خدمت الجميع، ولكن مصائبنا أثناء الإمبراطورية كانت لها نتيجة أكبر: لقد ألهت بونابرت! وهذا يكفينا طبعا».

إنه يذكر القارئ بما حدث عندما فشلت محاولة اغتيال بونابرت سنه ١٨٠١: «لقد صدر أمر بنفى مائة وثلاثين من الجمهوريين دون أية محاكمة، إلى جزر سيشيل، وجزر القمر، ،...، وهناك، مات أغلبهم».. «ولذا لا يمكن أن يحارب بونابرت إلا بما هو أكبر منه، وهو الحرية: لقد كان مذنبا فى حقها، وبالتالى، فهو مذنب أمام الجنس البشرى أجمع» لذا، عندما أعيد رفاته إلى باريس فى عام ١٨٤٠، وفتحوا نعشه، قال «شاتوبريان» : «وجدوا أن أظافره قد طالت، وأنا أظن أن هذا حدث ليسمح له بأن يمزق ما تبقى من حرية فى العالم»!

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن «شاتوبريان» لا يزال يعترف بعظمة الرجل الذى وصفه «بالعملاق»، والكلمة تلخص نابليون كما يراه كاتبنا الثائر عليه، فذلك العملاق ذو الشخصية النابغة، لم يكن على المستوى الذى ينتظره المرء من مثله: كان طاغية، وقتل الحريات، وأخطأ أخطاء ليست جديرة - لفداحتها - بعظمته كعملاق. وعلى الرغم من أن حكمه كان نقمة على فرنسا لما دفعته من ثمن له، إلا أن فرنسا قد ألهته. إن كانت الجيوش الفرنسية قد غزت العالم، وأسعدت فرنسا بمجدها الحربى الرائع، فالفضل فى ذلك يرجع إلى جيل من عباقرة الجند الفرنسيين.

فإن «شاتوبريان» يشكك دائما فى العبقرية العسكرية «لبونابرت» - كما كان يسميه - بينما يرى فى الضباط الآخرين الفضل فى اكتساح جيوش العدو. واللافت للنظر أن الدراسات الأخيرة عضدت الكثير مما عابه «شاتوبريان» على نابليون، القائد الحربى الأسطورى.

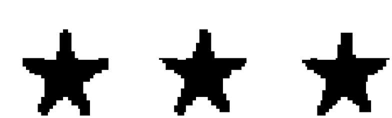
ولا ننسى أن نضع لمسة أخرى على الصورة التى قدمتها لنا تلك المذكرات عن الإمبراطور، ألا وهى إعجاب «شاتوبريان» الذى لا حد له «بجورج واشنطن»، فقد قابله مرة واحدة أثناء الرحلة التى قام بها إلى أمريكا فى شبابه، وهو يقول عنه «الجندى المواطن، محرر عالم بأسره».

فالقيمة الأولى عند «شاتوبريان» هى الحرية السياسية، وقد كتب هذه الجملة بعد أن توفى نابليون، ثم أفرد فصلا كاملا يقارن فيه بين الرجلين وقال ملخصا رأيه: «إن واشنطن لم يهتم إلا بمصير وطنه، بينما بونابرت لم يكن له هدف إلا مجده الشخصى»، فماذا كانت النتيجة؟: «بقيت جمهورية واشنطن وتحطمت إمبراطورية بونابرت. لقد خرج واشنطن وبونابرت من عباءة الديمقراطية، ولد كلاهما من الحرية، فكان الأول وفيا لها، وخانها الآخر. ويعيد «شاتوبريان» الكرة بعد ذلك بسنوات، ليؤكد بإيجاز شديد، أين يرى العظمة الحقيقية: «لقد شاهدت واشنطن فى بيته الصغير «بفيلادلفيا»، وشاهدت بونابرت فى قصوره».



يقال إن منشور «شاتوبريان» سنة ١٨١٤، هو الذى استفز الرأى العام، والأدباء الذين ردوا عليه بخلق أسطورة مضادة لدحض اتهاماته التى حولت الإمبراطور إلى أفاق، قاتل، مستبد ... إلى آخر تصويره له،

كوحش مغتصب لعرش فرنسا. ودارت الأيام، وكان على «شاتوبريان» أن يواجه ما أثاره هجومه من تأليه للإمبراطور المهزوم مع أنه قاتل الحريات وقاتل الأبرياء. فكان هذا الحكم على نابليون فى المذكرات التى لم تنشر إلا بعد وفاة كاتبها، والتى يصل فيها «شاتوبريان»، نسبيا، إلى قدر من الموضوعية، فى محاولته فصل فضائل نابليون عن جرائمه: اعترف بعظمته كعملاق آدمى، له صفات لا توجد عند غيره، وأخطاء قاتلة له ولفرنسا، لا توجد هى أيضا عند غيره .



إذا ما وضعنا فى حسباننا ذلك الكسل الإنسانى الذى غالبا ما يجعل المرء يكتفى بوجه واحد من العملة، دون أدنى محاولة لمعرفة الوجه الآخر، نستطيع، من خلال رأى «شاتوبريان» السابق، أن نستخلص مدى انبهار الأجيال التى توالت بعد حكم نابليون بشخصيته الفذة، حتى وإن كانوا، على شاكلة كاتبنا، ممن لا يؤلهون بونابرت، وبالتالى عدم التشكيك فى مشاعر بدائية قد تكون كلها رافضة، أو كلها منبهرة.

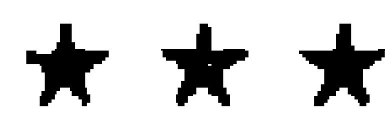
شاتوبريان والحملة على مصر

كان لحملة بونابرت على مصر مكان الصدارة فى أسطورة إنجازاته الرائعة، كما سبق أن رأينا مع الشعراء والفنانين الذين عرضنا بعض كتاباتهم (*) . وكانت الأسطورة المضادة تستغل، أيضا، تلك الحملة، ليس فقط لشهرتها، ولكن لما أذيع عن جرائم بونابرت فيها. وقد لاحقت سيرة

* فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

تلك الجرائم نابليون طوال حياته، حتى أنه حاول تفنيدها في «الميموريال» كما أسلفنا. ولكن «شاتوبريان»، كان قد وجد فيها ما يؤكد طغيان نابليون، ويدل على أنه سفاح قاتل مرتد دينيا؛ فما كان من مؤلفنا إلا أن رد على دفاع نابليون بالدليل القاطع على صدق الاتهامات الموجهة له.

وهكذا أصبحت الحملة على مصر من أهم عناصر أسطورة نابليون السوداء، كما كانت درة الأسطورة المنيرة.



ويمكن أن نؤكد، فى تلك الأسطورة السوداء، أن الحملة تعتبر في بعض أحداثها - من وجهة النظر الغربية -أسود ما فى تاريخ نابليون كله. ولذا فقد أفرد لها «شاتوبريان» عشرين صفحة، ليؤكد صحة الجرائم التى اتهم بونابرت باقترافها أثناء وجوده فى مصر. ولم تكن جرائم ضد المصريين، ولكنها ضد الجند الأسرى العزل، بل وضد جنوده هو نفسه.

ويتهم «شاتوبريان» بونابرت بجريمة أخرى ، وهى جريمة فى حق المسيحية وفى حق فرسان الحروب الصليبية، متناسيا تماما أن بونابرت كان فى شبابه صديقا «لليعاقبة»، بل كان صنيعتهم بالفعل، وبالتالى، كان، وأثبت طوال حياته، أنه من تلاميذ التنوير الملحدين، وأن الدين فى يده، أيا كان، لا يمكن أن يكون إلا سلاحا يستعمل عند اللزوم. ولذا، كان «ستندال» قد فهم، كما سبق أن قرأنا، تصرف بونابرت مع الإسلام فى مصر، لأن «ستندال» كان شديد الإعجاب بنابليون السياسى

الداهية، أولا؛ ولأنه ، ثانيا، كان هو نفسه من تلاميذ التنوير فكان يشارك بونابرت عدم مبالاته، ولنقل احتقاره للإيمان، ولكن إيمان «شاتوبريان» المطلق، يجعله لا يحتمل أن يهزأ بونابرت هكذا بالدين المسيحى، حتى يتعامل معه كما يتعامل مع الإسلام... وما أدراك ما كان يقوله «شاتوبريان» عن الإسلام والمسلمين! ويتضح لنا هنا الوجه الصليبى «لشاتوبريان» بإيمانه المطلق بالمسيحية المنتصرة على الإسلام من خلال الحروب الصليبية، ورفضه بالتالى لحملة لم يكن هدفها الأول والوحيد تنصير مصر فهو يؤكد بمرارة شديدة، وبعد هذا الندم، على ما كان يقوله القائد الفرنسى المنتصر للمسلمين فى القاهرة حتى يستميلهم بعدائه للمسيحية وحبه للإسلام، ثم يضع بجانب ذلك مباشرة ما كان يقوله للبابا فى روما حتى يستميله: إن «شاتوبريان» لا يحتمل أن يكون بونابرت سياسيا ملحدا، لا يدين إلا بدين مصلحته الذاتية. ويقوم «شاتوبريان» بعقد مقارنة بين ما فعله الإسكندر الأكبر، ومحاولة برنابرت التمثل به فى الشرق، وفشله فى هذا الميدان: فقد نجح الإسكندر فى إقناع العالم بأنه ابن الإله آمون، وفشل بونابرت «فى إقناع المسلمين بأنه محمد آخر». كذلك، تحدث عن بؤس الجند فى بلد لم يجدوا فيه ما كانوا يحلمون به، بعد أن غنموا فى إيطاليا وتمتعوا بكل ما كان مباحا أو غير مباح.

ثم، وهو الأهم طبعا، جاءت، فى تلك الصفحات قصة مذبحة أسرى الحرب الأتراك فى يافا وبونابرت فى طريقه إلى عكا، ثم قتل مرضى الطاعون من جنده بتسميمهم» فى يافا أيضا، وهو فى طريق العودة.

وكان «الميموريال» قد حاول تفنيد هذين الاتهامين البشعين كليهما. وقد رفض المعجبون بنابليون دوما الاعتراف بحقيقة تلك الأحداث ، كما سبق أن رفضها من ألهوه في القرن التاسع عشر، إلى أن جاءت آخر الدراسات لتؤكد صدق ما قاله «شاتوبريان» ، في صفحاته العشرين تلك. والمفاجأة، أن كاتبنا يدرك فجأة، أن صفحة الجيش الفرنسي في مصر لم تكن ناصعة البياض كما كان يظن، حتى أنه نقل وصف بعض ما قد اقترف من مذابح.

ومذكرات «شاتوبريان» التي يحكي فيها كل الفظائع التي اقترفها بونابرت في مصر، من أشهر كتب الأدب الفرنسي، ومن أهم أعمدة الثقافة الفرنسية، وكثيرا ما تؤخذ منها كاملة وعلى الرغم من ذلك فتلك الصفحات لا يذكر مصدرها أبدا، وكأنه لا وجود لتلك المذكرات، حتى أننا قرأنا أخيرا كتابا عن الحملة، يأخذ كاتبه، المؤرخ الفرنسي، منها أفكارا ومقاطع، دون أن يذكر مصدرها، وهو على يقين، طبعا، أن أحدا لم يلحظ عملية السطو تلك؛ فمن ذا الذي يقرأ ما يقال عن الحملة عندما يتهم الجيش الفرنسي بالسوء؟!

★ ★ ★

فـ «شاتوبريان» يقول ، مثلا: «يالها من مجزرة؛ لقد كتب الجنرال المساعد «بوابيه» إلى أهله:عندما حوصر الأتراك (في الاسكندرية) من كل جهة، ذهبوا ليحتموا عند إلههم ونبيهم، لقد ملأوا مساجدهم، رجالا، نساء، شيوخا، شبابا، أطفالا، ولقد ذبحوا كلهم».

ونقرأ فى الصفحة التالية، ما يؤكد أن «شاتوبريان» لم ير فى الواقع، أثناء وجوده فى مصر، من آثار للحضارة الفرنسية، إلا تلك الحديقة التى سبق أن تحدثنا عنها، فهو يقول «عندما مررت بالقاهرة، كانت المدينة قد احتفظت بآثار مرور الفرنسيين: حديقة عامة ، كانت من صنع أيدينا (الفرنسيين) مزروعة بالنخيل، كانت تحيطها المطاعم فى الماضى، ومع الأسف فإن جنودنا قد تصرفوا مثل قدماء المصريين، فقد طافوا بتوابيت الموتى حول احتفالاتهم» فكانت ذكرى ضحاياهم تحوم حول تلك الاحتفالات. ويدل مايقوله بعد ذلك على أنه قد اطلع على كثير من المذكرات التى كتبها جنود الحملة وضباطها يشكون فيها بؤسهم فى ذلك البلد البعيد، الذى لايشبه ما صادفوه من قبل فى الحملة على إيطاليا. ولا يمنع هذا شوفينية «شاتوبريان» من الإصرار على أن الحملة كانت «شعاع نور تسلل فى ظلمات الإسلام، وفتحت فجوة فى قسوة البربرية». ومرة أخرى لم يقل كيف أو لماذا ؟!

كلامه متناقض طبعا، وقد تمزق الكاتب بين حبه لوطنه ولبنى جلدته، والاعتراف بما لا يحتمل الشك، وهو أفعالهم الشنيعة: نظرته إلى ما يقترفه نابليون من فظائع تجعله يصرخ أحيانا بكلمات نعجب لها تحت قلمه، فهو يحكى مثلا كيف أعدم بونابرت فى يافا ثلاثة آلاف سجين حرب، استسلموا وهم عزل، وهى الجريمة التى قيل إن السماء قد أرسلت الطاعون عقابا للفرنسيين عليها.

ويعلق «شاتوبريان» قائلا: «هل أنقذت مجازر يافا جيشنا؟... إن كانت القضية مسألة حق، (كما قال نابليون فى «الميموريال» عند مناقشة تلك الصفحة السوداء من تاريخه)، فبأى حق استولى الفرنسيون على

مصر؟».. كلام غريب إن عرفنا أن كاتبه هو «شاتوبريان» الصليبي الاستعماري. ولكنه أخذ يسرد بعد ذلك على صفحتين، ماقرأه في مذكراته «مبيو»، أحد ضباط الحملة:

«إن «مبيو» في أول طبعة من مذكراته (١٨٠٤)، لايقول شيئا عن تلك المجازر، وأنت لن تجدها إلا في طبعة ١٨١٤. وقد كادت هذه الطبعة تختفي نسخها، وقد توصلت إليها بعد مشقة. ولكن، كان لابد لي من شهادة شاهد عيان، ليؤكد لي مثل هذه الحقيقة المؤلمة»: إن الشهود لم يكونوا ينشرون إذن الحقيقة كاملة عندما كان بونابرت في أوج مجده، ولم تظهر تلك الحقيقة إلا بعد هزيمته عام ١٨١٤! وقد سبق أن عرفنا كيف كانت الرقابة شديدة على المطبوعات، بل محكمة على كل ما كان يمكن أن يمس سيرة «القنصل الأول»، ثم الإمبراطور. وهذا مثل لا نستطيع الشك فيه ، لأن «شاتوبريان» نفسه كان يرفض دائما أي خبر يمكن أن ينال من سمعة الجيش الفرنسي وقد نقل «شاتوبريان» الكثير من البشائع التي تمت أثناء العودة من الحملة الفاشلة على الشام تلك الحملة التي قرأنا عنها ما قاله «لاس كاز»، عن لسان نابليون، عن جيش «في حالة رائعة، وفي ثراء مدهش» (*) ولكن شهادة «شاتوبريان» جاءت وقد سبق السيف العذل، جاءت وقد كانت أسطورة نابليون، وأسطورة الحملة، أقوى من أية شهادة يمكن أن تزعزع سلطانها، حتى جاء، بعد نشر «مذكرات ما وراء القبر» مباشرة، انتخاب الأمير «لوي - نابليون»، كرئيس للجمهورية، مكتسحا منافسيه، لا لشئ إلا لأن اسمه «بونابرت» وهو ابن أخ لنابليون.

★ ★ ★

---

* أرجع إلى الجزء الأول.

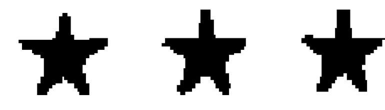
وأعتقد الآن أن الصورة قد بدأت تتضح ؛ فمن البديهى، أننا لو جمعنا كل خيوط تكوين أسطورة نابليون من جهة، وما قاله نابليون نفسه، وهو «أعلى مستوى»، على حد قول «لاس كاز»، من جهة أخرى، لاتضحت صورة الحملة فى أسطورتها، كما عرفتها الأجيال المتتالية بعد ذلك، فما دام المرجع الأساسى هو «الميموريال»، فلا شك أن مشايخ القاهرة انبهروا ببونابرت، ولا شك، أيضا، أن الشعب المصرى قد أحب الفرنسيين، ولم يثر عليهم، لأن نابليون لم يذكر فى حديثه مع «لاس كاز» الثورتين اللتين قامتا فى القاهرة. ومن البديهى أن جمهور القراء قد اكتفى بالمرجع الوحيد الذى وجدوا فيه ما يشبع تهويمات تطمئن النفس الفرنسية التى وجدت فى أسطورة نابليون الكثير من تطلعات العقلية الاستعمارية آنذاك. ونقول ذلك لأن الجيل الذى نشأ بعد انهيار الهيمنة الإمبريالية الفرنسية، والذى قرأ التاريخ دون أن تعميه عقد يبحث لها عن حلول فى واقعه التاريخى (وإن كان من نسج الخيال)، ذلك الجيل، جيل «المؤرخين الجدد»، رأى الأمور بنظرة مختلفة ، فحطم الأوثان، كما قرأنا فى الجزء من هذه الدراسة.

★ ★ ★

«فيفان دينون» : «رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا»

من البديهى أن «شاتوبريان» لم يقرأ إلا جزءا ضئيلا مما نشر من المذكرات العديـدة التى ظهرت بعد عودة الجيش الفرنسى من مصر. ولكن الغريب، أنه لم يقـرأ أشهـر تلك الكتب، وهو كتاب «فيفان دينون»، أو ربما قرأه كما قرأه الآخرون، أى دون أن يعى ما فيه من صفحات

تدين الجيش وتصرفاته فى مصر. وكتاب «دينون» كان قد لقى نجاحا ساحقا عند نشره فى عام ١٨٠٢، حتى أنه قد أعيد نشره ست مرات حتى عام ١٨١٢.



«رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا، أثناء حروب الجنرال بونابرت» كتاب فى جزءين (١) ، ويعد أشهر ما كتبه «شاهد من أهلها» وقد أعيد نشره أخيرا، وذلك لأهميته.

وقد اشتهر هذا الكتاب للأهمية الكبيرة فى تعريف المثقف الفرنسى بنوع جديد من الجمال المعمارى والفنى الذى تعرف عليه «دينون» عندما قابل الآثار المصرية، فقد أعجب «دينون» بذلك الفن الذى لا ترضخ قوانينه لقوانين الفن الإغريقى الصارمة، التى لم تعرف أوربا غيرها على مر القرون، فلم يكن هناك تقريبا، إلا الفن النيو - كلاسيكى، وهو الذى - يحاكى مبانى الإغريق والرومان وفنونهم فى الرسم والنحت. ليس ذلك فحسب، بل إن الجمود الذى سيطر على الفنون المرئية، كان مسيطرا أيضا على الآداب بأنواعها، وحتى على كتابة التاريخ؛ ولم يجرؤ أحد على التحرر من محاكاة فنون الماضى السحيق إلا نادرا. ومن البديهى أن القراء الكثيرين لكتاب «فيفان دينون» الشهير، لم يهتموا إلا بتلك الناحية، خاصة أن التعرف على جمال الفن الفرعونى كان وراء خلق نمط جديد فى الفنون الجمالية: لقد أراد نابليون لعصره نمطا خاصا، فاستوحى الفنانون، فيما سمى «بالنمط الإمبير» (أى «نمط الإمبراطورية»)، كثيرا من الآثار المصرية، نراها، حتى الآن، فيما شيد

فى باريس من مسلات وتماثيل مصغرة لأبى الهول، كما نرى ذلك النمط يزين، بالنحاس المطروق، أثاث عصر الإمبراطور، وهو يحاكى حتى يومنا هذا، ويحمل الاسم نفسه. وكانت الرسوم العديدة التى نشرها «فيفان دينون» فى الجزء الثانى من مؤلفه ، رائعة ، على الرغم من أنه كان قد رسمها فى ظروف صعبة، حيث كانت المعارك تدور من حوله فى مصر العليا (*). وتعتبر تلك الرسوم المحاولة الأولى لما سيصبح، على يد الفنانين الآخرين بعد ذلك رسوما لكتاب «وصف مصر» الشامل لكل مظاهر الحياة آنذاك. ولكن «دينون» لم يكن يدرس البلد من أجل حسن استغلاله، ولكنه كان منبهرا بذلك الجمال الفذ الذى لم ير مثله من قبل، والذى لا يخضع لأى من تلك القوانين الكلاسيكية المقدسة فى أوربا، ولذا فقد كانت أهميته بالنسبة للقراء تعادل أهمية اكتشاف جديد، يغير النظرة الكلاسيكية المتحكمة فى أذواق أوربيى ذلك العصر.

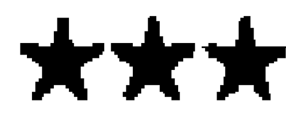
وبناء على ذلك ، فقد أهمل القراء أو تجاهلوا ما قصه «دينون» عما يقترفه الجيش من أعمال غير إنسانية فى فتحه لمصر، ولم نر مؤرخاً واحدا، أو حتى كاتبا يشير إلى صفحات تدمغ الجيش الفرنسى بوصمة البربرية. والصفحات التى سنترجمها للقارئ المعاصر لها أهمية كبرى، ليس فقط لأن كاتبها شاهد عيان، ولكن، وهذا هو الأهم، لأن هذا الشاهد كان من أشد المعجبين بالجنرال بونابرت، وكان أيضا من أشد

---

* بعض منها فى كتابنا هذا.

المتحمسين للمشروع الاستعمارى الاستيطانى الحملة. وسنلاحظ هذا فى حينه .. وإليكم الآن أهم ما قاله فى هذا المضمار (*) .

هذا الكتاب ، الذى ينبئ عنوانه الخادع أنه مذكرات رحالة وليس فنانا ، قد كتب أساسا ، لقارئ فرنسى ، يجهل كل شئ عن مصر. ولاننسى أن «دينون» ، الفنان ، الاستعمارى ، قد استفاد بصورة خاصة من مصاحبته للجيش الذى ذهب ، تحت قيادة «ديسى» ، لمحاولة السيطرة على جنوب الوادى ، الذى كان يتمركز فيه مراد بك ، ومماليكه.



إن «دينون» يبدأ كلامه بتأكيد أهمية رؤيته ، لأنـه - كمـا يقول - تجول «في بلد لا تـعرف عنه أوربـا غيـر الاسـم ، فكـان كل شئ مهما للوصف» ، وكان أول ما عرفه - بالطبع - هو الهجوم على الاسكندرية ، عندما نزلت قوات الحملة فى غربها. وهو يؤكد أن المدافعين كانوا شرسين : «لم يهرب منهم أحد ، فكان لابد من قتل كل من وجـد على الأسـوار، وقد مات منا مائتـا جنـدى»، مـما يدحـض أسطـورة عـدم مقاومـة المـصريين للغـزو الجديد ، ونكتشـف الآتى: أن «أسطورة قديمة كانت قد أكدت أن دخول مركب من الفرنجة إلى الميناء القديم ، يعنى انتهاء سيطرة المسلمين على الاسكندرية ، وقد حققنا بمركبنا هذه النبوءة» . ولن نعجب لمثل تلك النبوءة التى لم يتحدث

* بعض هذه المصطلحات سبق نشره فى «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة نفسها.

عنها غيره ، ولكن علينا أن نعتاد مثل تلك الخزعبلات التى لن يعرفها إلا الفرنسيون ، وغالبا ما تشرح لنا عقليتهم أكثر مما تصور حقيقة الأمر آنذاك . وترشدنا تلك الخزعبلات إلى ما كان يراه الفرنسيون من طباع الهنود الحمر فى المصريين: إذا كان يقال إن نبوءة كانت تؤكد للهنود الحمر أن سيطرتهم على بلادهم ستنتهى عندما تحضر إليهم آلهة من البحار الشرقية ؛ وقيل إن تلك النبوءة جعلت الهنود يتخاذلون فى دفاعهم ليقينهم أن الأسبان القادمين إليهم ، آلهة وليسوا بشرا. وبالنسبة لمصر فإن الموقف يثير العجب بسبب سذاجة «دينون» ، لأن تلك المذكرات لم تنشر فى فرنسا ، إلا بعد عودة البلاد إلى «المسلمين» بالفعل ، مما يؤكد كذب النبوءة ، وليس صحتها كما يقول .

يحكى لنا «دينون» كيف خرج وحده ليلا فى مركب صغير مع رجل مصرى ، فيقول : «بدأت أشعر أننى استهنت بنفسى ، فأنا موجود فى هذه الساعة ، تحت رحمة الرياح ، وسط بحر هائج ، وحيدا مع رجل يستطيع ، مثله مثل باقى مواطنيه ، أن يبغض الفرنسيين ، وذلك دون أى ظلم ، وقد يريد الانتقام منى» . نلاحظ هنا أنه على الرغم من تحمسه الشديد للمشروع الاستعمارى وإعجابه الشديد بمشروعات بونابرت ، إلا أنه يفهم أن من حق المصريين كراهية الفرنسيين ، وهو أمر لا نجده عند باقى زملائه بشكل عام . إنه ، فى هذه الأسطر القليلة، يعترف – وياللعجب – بحق المصريين فى بغض المستعمر ، مما ينبئ (أو المفروض أن ينبئ !) بنظرة موضوعية ، قد تتأكد فى باقى تعليقاته .

يعلق «دينون» على ما شاهده قائلا : «بونابرت ، الذى استولى على الإسكندرية بالسرعة نفسها التى استولى بها القديس لويس على دمياط، لم يقترف فيها الخطأ نفسه» : يعجب القارئ المعاصر ، طبعا ، لربط الحملة الحديثة لبونابرت بالحملة الصليبية للملك لويس التاسع ، وبعد مرور خمسة قرون من الزمن ، والكاتب ليس مسيحيا متزمتا مثل «شاتوبريان» . ولكن ذلك لن يبدو لنا غريبا بعد قراءة باقى مذكرات الشهود المثقفين للحملة . ويقول «دينون» عن معركة إمبابة : «إن أفضل فرسان فى الشرق ، وقد يكونوا أفضل فرسان فى العالم ، انكسروا أمام حفنة من الجند المدججين بالسناكى» : من هنا ، نفهم بدايات أسطورة المعركة التى سميت «معركة الأهرامات» فى فرنسا ، لأن الدراسات الحديثة أثبتت أن عدد الجند الفرنسيين كان ، فى حقيقة الأمر ، أضعاف أضعاف عدد المماليك المحاربين ، حتى قيل إنها كانت «مجزرة أكثر منها معركة» (٢) . ولكن بونابرت نفسه أراد لها أن تكون معركة أسطورية مثل كل انتصاراته ، كما سبق أن رأينا فى معارك إيطاليا . والدليل على ذلك ، أنه أصر على تسميتها «معركة الأهرامات» مع أنها وقعت فى إمبابة ، أى على بعد أكثر من عشرة كيلومترات عن الأهرامات ، لأن الجمهور الفرنسى سيفرح بالاسم الاسطورى ، وهو يجهل كل شئ عن إمبابة . وقد رأينا بالفعل كيف كان لهذا الاسم صدى كبير عند الكتاب ، وفى شعر «فيكتور هوجو» بالذات .

وكان بونابرت قد أكد بعد تلك المعركة ، فى بياناته للشعب المصرى، ما قاله من قبل ، بأنه لم يحضر إلا لتخليصه من جبروت المماليك وطغيانهم . .

وبعد حديث «دينون» عن تلك المعركة ضد المماليك ، يعلق كاشفا عن ضمير حي ، من البديهى أنه أرقه كثيرا ، أثناء الحملة ، فيقول : «لقد استطعنا طرد المماليك ، وهذه حقيقة ، ولكن ، ألم نحل محلهم بعد أن طردناهم ؟ . ونلحظ هنا بداية أسطورة أخرى ، هى أسطورة «طرد المماليك» .

ومرة أخرى ، نقابل كلمات تحاول التصوير الموضوعى لما حدث ، فهو يقول : «إن قسوة حياة البدو لا مغالاة فيها : فالأسرى الذين أخذوا من بيننا ، يصفون ما عانوه من عذاب أثناء أسرهم ، وهم يعتبرون هذا العذاب جزءا من طريقة عيش هؤلاء القوم ، وليس نتيجة لبربريتهم ... ، وهؤلاء الضباط لم يشكوا من أية معاملة سيئة ، ولم يحتفظوا بذكرى أليمة ، فى ظرف بائس ، كان عليهم أن يشاركوا فيه حياة سجانيهم الخشنة» : هذه لفتة إنسانية ، تحاول وضع الأمور فى نصابها ، لتصحيح كل ما قيل عن البدو ، وهم الذين أذاقوا الفرنسيين مر العيش والحرب .

أما عن مقاومة المصريين ، فنقابل مشهدا سيتكرر مرارا فى كتاب رحلة «دينون» : «بعد أن جرحوا كلهم ، قبض عليهم ، وأعدموا كلهم . أيقن الجنرال «مينو» آنذاك أنه لابد من تلقينهم درسا قاسيا . فانطلقنا ومعنا مائتا جندى ... ، وجدنا العدو على الجياد أمام القرية ، مستعدا

المعركة . هجموا علينا فى أول الأمر ، وحاربنا حتى الارتشاق بالسناكى (وتكون الغلبة للفرنسيين ، بالطبع ، لكثرة عددهم) . تركت القرية للسلب والنهب إلى آخر اليوم ، ثم أحرقت عن آخرها فى المساء : كان اللهب ، وصوت المدافع ، يخبران الناس طيلة الليل ، وعلى بعد عشرة فراسخ ، أن انتقامنا كان كاملا ورهيبا» . وعندما نقرأ مثل هذا الوصف من شاهد عيان ، نفهم لماذا قال «دينون» قبل ذلك إن الفرنسيين – على حد قوله – قد حلوا محل المماليك بعد طردهم . أهكذا كان يتخيل الفرنسيون أن المماليك يعاملون الفلاحين ؟

ويستمر الوصف : «عدنا إلى فوة ، حيث استقبلنا كمنتصرين ، يعرفون كيف يحدون من انتقامهم (ثم ...) استمع السكان باحترام وخضوع إلى البيان الذى قرئ عليهم بالنسبة للحملة ، والأسس التى ستنظمها الإدارة الجديدة (للمنطقة)» . من البديهى أن «فيفان دينون» لا يستطيع أن يتفهم نفسية مدنيين مهزومين وعقليتهم . لقد حكى من قبل كيف يُعامل المقاومون من المصريين ، فكيف يعجب من خضوع المدنيين أو يزهو به ؟ ولكن الغريب أنه يرى فى ذلك الخضوع – المفهوم فى ظروف الحرب – احتراما يذكرنا بترجمة «السلطان الكبير» «بأبى النار» ، أى تحويل كل ما يمس المصريين ، حتى أقوالهم ، ولكل ردود أفعالهم، على أنها انبهار يدغدغ مشاعر الشوفينية الفرنسية ، يحدث هذا حتى عند فنان مثل «فيفان دينون» وهو الذى يحـاول أن يكون موضوعيا ، بل ويـؤرقه ضمـيره ، أحيـانا ، لما يحـدث على أيدى جند الحملة .

نرى الآن مثالا آخر للمنطق الفرنسى آنذاك ، ذلك المنطق الأعرج

الذى يسمح بكل شئ ، أو بالأصح ، بالشئ ونقيضه معا : إنه المفارقة التى تسمح بالاستفادة من الوضع الراهن ، وضع الغازى الباطش ، والتمتع براحة الضمير ، لأن نياتهم حسنة . صحيح أن تلك النيات لم توجد إلا فى خيالهم ، ولكنها بقيت فى الأسطورة المتداولة ، وإن لم يكن لها أى أصل فى الحقيقة . فنرى «دينون» يقول : مندوبو هذه المنطقة قدموا ما تبقى لديهم من دجاج وأوز للجند الذين حضروا ليخلصوهم من تأنيب الضمير (تأنيب ضمير أهل البلد) ، هذا التأنيب الذى كان يؤرق الفلاحين منذ ثلاثة أسابيع . كنا نستقبل فى كل قرية على الطريقة الإقطاعية ؛ وكانت أهم شخصية فى البلدة تستقبلنا ، وتجعل الأهالى يدفعون الثمن بعد ذلك . كان لابد لنا أن نتعرف على هذا التعسف قبل معالجته ، ولو أننا كنا مبهورين بالسهولة التى أتاحت لنا دراسة تقاليد بلد ، كنا سنغير من طباعه ، فكنا نترك الأمر على ما هو عليه فى هذه المرة» . هكذا يتحدث «دينون» بروح المفكر الساذج الذى يظن أنه، إذا استفاد مؤقتا من وضع يراه خاطئا ، فما ذلك إلا أمر مرحلى ، لأنه «سيعالجه» . ولم يعالج أى شئ فى إيطاليا من قبل ، فلماذا يعالج فى مصر؟ والجيش فى الحالتين كلتيهما هو المستفيد الأول . ولكن لن تفوتنا هنا النية فى «تغيير طباع البلد» ، دون الإدلاء بأية تفاصيل ؛ أمر لم نقابله عند غزو البلاد الأوربية ، التى تم تغيير نظامها السياسى ، بل والاقتصادى ، ولم تمس «طباعها» . ولن نتعجل فى الحكم قبل قراءة باقى ما كتبه ، وكان أول من فضح ، علانية ، الأفعال الحقيقية للجيش

الفرنسى فى مصر .

مشهد يتكرر كثيرا ، وهو على أية حال ، مشهد معروف فى كل البلاد المهزومة ، وهو مشهد الانتقام من المدنيين العزل ، إذا ما هاجم سكان البلد أحد الضباط الغزاة ، فقتلوه ، وهو ما يسمى بلغة الفرنسيين أنفسهم : «بطولات المقاومة الشعبية» ؛ ولكن الاسم يختلف طبعا ، إن كانت تلك البطولات تنفذ على أيدى أعداء ، هزمتهم القوة الفرنسية المحتلة . ولذا ، نقرأ الكلمات الآتية ، وقد كتبها الفنان الرحالة الموضوعى ، دون أى تأنيب لضمير ، نراه حيا فى فقرات أخرى .. إن «دينون» ، والحق يقال، فى مفارقاته المستمرة ، لا ينكر الدور البذئ الذى قام به الجند . نقرأ إذن : «رسمت قرية «ألقان» ، هذه القرية التى قتل فيها الضابط «جوليان» وخمسة وعشرون من جنده ، وقد طرد سكانها ، وأحرقت كلها» .

الأسطورة تقول إن الجيش الفرنسى جاء ليعلم الشعب المصرى مبادئ الثورة والتنـوير ، وليحرره من سطوة المماليك ، ولكن الحقيقة التى يفضـحها لنا «دينون» ، تثبت عكس ذلك ، أن الجيش الفرنسى كان، فى الواقع – مثلما كان فى إيطاليا – جيش مرتزقة لا يهمه إلا السلب والنهب ، ويحكى شاهدنا العيان : «فى كفر شاباس ، عاد الطبيب مسرعا وهو يقول : إنهم ينتظروننا بالبنادق ... أخذوا يطلقون النار علينا ... ، سقط الضابط فى الماء ، بينما تشتت الجند جريا وراء الأهالى ، الذين كانوا يحملون أمتعتهم ؛ عندئذ ، ركض الجنرالان وراءهم ، فى محاولة لتنظيم هذه الفوضى ، ولجمع شمل الفرقة ؛ وكانت

نتيجة ذلك ، أننا اضطررنا إلى المرور تحت نيران العدو ، وقد مات وجرح الكثير من العسكر (بسبب نهمهم للسلب)» .

سبق أن عرّفنا «دينون» نفسه أن الهدف الرئيسي من الحملة كان تغيير تقاليد المصريين ؛ ولذا ، نراه يؤكد: «إن سعادتي كبيرة لرسم المصريات في اللحظة التي تسبق تأثيرنا على التقاليد الشرقية ، التي قد ترفع الحجاب الذي يغلفهن». ونتساءل ، لماذا يريد الفرنسيون تحويل المصريين إلى فرنسيين ؟ لأن «الفرنسي» ، هو «الحضارة» ، حتى إذا تصرف كما نرى في كتاب «دينون» .

وتستمر المقاومة ضد الجندي الفرنسي الغازي ، ونراها في هذا الكتاب لا تهدأ يوما واحدا ؛ وأمثلة البطولات المصرية لا تتوقف ، ومنها هذه الصفحة : «كان العدو يسير (نحونا) ، وشاهدنا أعلامه ... أرسلنا إليهم القناصة ، وفي اللحظة نفسها ، احتدم العراك ، وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا : كان تفانيهم وشجاعتهم يحلان محل الأسلحة التي افتقروا إليها . ولكن بعد أن دحرنا هذه المقدمة أكثر مما حطمناها، وجدنا المقاومة في القرى بعد ذلك أشد ضراوة» : كلما ازداد قمع المقاومة عنفا ، ازدادت ضراوة واتساعا ؛ ولم يمنع ذلك نابليون من الإصرار على ذكر محبة المصريين لجيشه الرائع في «الميموريال» . وعلينا أن نذكر هنا أن الثورة الفرنسية على الطغيان كانت موضع فخر لا حد له للفرنسيين ؛ أما إذا ثار المصريون أيضا دفاعا عن حريتهم واستقلالهم ، يكون تعليق «دينون» على ثورة القاهرة الأولى ما يلي : «إن الغوغاء ، وبعض الكبار وكل الاتقياء ، أثبتوا منتهى التعصب الديني

الأعمى الشرس أثناء الثورة» . لقد نسى «دينون» ما قاله سابقا عن حق المصريين في بغض الفرنسيين المحتلين البلد .. إن المفارقة هى أساس تفكيره ، بلا أدنى شك .

ثم يرحل «دينون» بعد ذلك مع الجنرال «ديسى» ، فى حملته على مراد بك في صعيد مصر ، ولم يستطع الجنرال التخلص منه أو من مماليكه وفرسانه ، وعاش الفرنسيون أثناء تلك الحملة الثانية حربا يومية طاحنة ؛ ولم يهدأ لهم بال لليلة واحدة . وتتأكد تلك الحقيقة التاريخية عند قراءة مذكرات «دينون» ، الصادقة حتى فى مفارقاتها ، وهو يقول : «لم نستطع إنقاذ إحدى القرى من النهب والسلب لأننا وصلنا متأخرين ؛ لم يمض ربع الساعة ، إلا وخلت البيوت من كل شئ ؛ هرب السكان العرب إلى الحقول ، فقيل لهم أن يرجعوا ، فأجابوا ببرود شديد : وعم نبحث فى بيوتنا ؟ أليست هذه الحقول الجرداء بالنسبة لنا مثل منازلنا ؟ ولم نكن نستطيع الاجابة على هذه الجملة البليغة» . لقد قام الجند بتفريغ المنازل من كل شئ ، وجاء الضباط بعد ذلك يحاولون ترضية الأهالى بطريقة ساذجة بدلا من معاقبة الجند . فكان «الرد البليغ» لفلاحين عزل ، لم يعد لهم إلا قرية خاوية ، أكلتها جرذان الجيش المتعطش للنهب والسلب . وتستمر ملحمة «الأرض المحروقة» كما سبق أن حدث فى «فانديه» فرنسا . ويستطرد المؤلف ليحكى باقى قصة الملحمة : «ذهبنا مع فرقة مكونة من ثلاثمائة رجل لنحصل الميرى، أو ضريبة الأرض ، ومصادرة الخيل والجاموس : كنا فى ذلك نتبع

وسائل المماليك الذين يقومون بالرحلة العسكرية نفسها فى المقاطعات التي ولوا عليها ، وهم يعسكرون أمام المدن والقرى، ويأكلون على نفقة أهلها إلى أن يدفع لهم ما جاءوا فى طلبه» ، «كانوا يقولون عنا إننا ابتلاء من عند الله أرسله الله عليهم ليعاقبهم على خطاياهم ؛ وكان يجدر بهم – فى الحقيقة – أن يطلقوا علينا اسما أكثر عنفا» . والكلام هنا واضح لا يحتاج إلى أى تعليق أو توضيح .

وعندما قاومت جزيرة فيلة مقاومة عنيفة ، وصدت الفرنسيين أكثر من مرة ، قال «دينون» : لم يكن فى إمكاننا (ونحن على ضفاف النيل) تغيير قرارهم . ولكن ، هل نترك حفنة من الفلاحين الوقحين على بعد أربع خطوات من إقامتنا ، ليكونوا قدوة سيئة للآخرين ، ولذا فقد قررنا العودة مرة أخرى فى اليوم الثانى ،.....، وعدنا بالفعل ومعنا مائتا جندى ؛ وعندما رأونا ، بدأوا يستعدون للقتال ،.....، صرخنا فيهم أننا لا نريد لهم مكروها ، ولا نطلب منهم إلا الدخول الودى إلى الجزيرة» ، ويدأ ضربهم بالمدافع ، وتم سحقهم طبعا ، «كان تفريغ ما فى مخازن الجزيرة عملية قام بها الجند حتى آخر النهار» . وهكذا ، وضح معنى «الدخول الودى» . ويصف «دينون» كيف كانت الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا يغتصبن ، ويعجب من وحشيتهن . . ونتذكر هنا – بالمناسبة – ما كان بونابرت قد قاله لجنده فى أول بيان له قبل الوصول إلى مصر : «... الشعوب التى نذهب إليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا ؛ ولكن الذى يغتصب امرأة فى أى بلد فى العالم وحش كاسر ، والسلب لا يثرى إلا قلة من الرجال ، ولكنه أمر مخزٍ لنا ويبدد مواردنا ؛ ويجعلنا أعداء

للشعوب التى نريدها صديقة لنا ، من أجل مصلحتنا» . وقد نسخ أغلب المؤرخين هذه الكلمات ، ولم يتحدثوا ، بعد ذلك ، عن السلب والنهب والاغتصاب ؛ فكانت النتيجة أن القارئ - خاصة من قرأ. فى «الميموريال» عن حب المصريين للجيش الهمام - كان يظن ، دائما ، أن الجند الفرنسيين تصرفوا كملائكة رحمة في مصر ولم يكونوا جيشا غازيا ومستعمرا بكل المعانى المعروفة للكلمة ولقانون الحرب فى ذلك العصر .

كيف نتخيل مشاعر شعب عومل كما يحكى «دينون» الذى يكتب بالحرف الواحد : «كان لابد من تجويع البلد لنبعد العدو (...)، كنا نأخذ معنا الأهالي فيتحول البلد بعد مرورنا إلى أرض جرداء»، «بعد ثلاث عشرة ساعة من السير، وصلنا لنبيت فى «جمارسييم» وكان هذا لسوء حظ هذه القرية لأن صراخ النساء جعلنا نفهم أن جنودنا قد انتهزوا فرصة حلول الليل ليتصرفوا بحرية، فعلى الرغم من تعبهم إلا أنه كان مازال لديهم فائض من الطاقة، وكانوا ينتزعون بالفعل ما هم فى غير حاجة إليه، بحجة البحث عن مؤن: فما كان من السكان، وقد فاض بهم الكيل بعد أن نهبوا واغتصبوا إلا أن هجموا على الدوريات التى أرسلناها للدفاع عنهم ورد جنود الدوريات بقتل الأهالى، لأنهم لا يستطيعون التفاهم مع أهل القرية، ولا يستطيعون شرح الموقف لهم»... والحق أننا لا نتخيل كيف يشرح الموقف.. وأى موقف...؟!

ولا تفوت بشاعة «هذا الموقف» على شاهدنا الموضوعى فيعلق قائلا:

«ما أكثرك يا حرب بريقا فى التاريخ ! ولكن إذا ما شاهدناك عن قرب تحولت إلى وجه شنيع، عندما لا تخفيه بشاعة التفاصيل» وهل نجد فى تلك الحرب تفاصيل أخرى غير التى سردها علينا هذا الشاهد الواقعى الأمين لما كان يحدث بالفعل؟

ولكن ما أعجب منطق «دينون» في الصفحة التالية : «فى الثالث والعشرين، علمنا أن فرساننا قابلوا تجمعا فى المنشية، وقتلوا ألفا من هؤلاء المنحرفين ! درس لا أخوة فيه، ولكن موقفنا يجعله ضروريا: هذه المقاطعة التى كانت دائما ثائرة ، كانت لها سمعة فظيعة ، وكان لابد لها أن تتعلم ألا تقارن بنا (.....) ربما كان لابد لهم أيضا أن يقتنعوا أننا أكثر انتقاما وأقل تسامحا مما يظنون» .

«وأخيرا ، قد يكون السبب أننا لا نجد وقتا لوعظهم ، فلابد – نظرا للظروف البائسة التى تمر بنا – أن نعاقب بشدة من يصرون على عدم تصديقنا عندما نقول لهم إن كل ما نفعله ما هو إلا لصالحهم».

لم ير المصريون – وعلى حد قوله هو نفسه – إلا القتل والسلب والنهب والاغتصاب ، ولكنه يريدهم أن يفهموا أن كل ذلك لم يكن إلا لصالحهم ! منطق غريب ، خاصة إذا لاحظنا أن «دينون» ، يعتبر من يدافع عن نفسه «منحرفا» ، «سيئ السمعة» ، «بائسا» ... ولا يفوتنا صلفه وهو يتحدث عن قوة جيشه .

ويتأكد خطأ منطقه ، أو مفارقات أقواله ، فى السطور التالية ،

عندما نراه يريد تعليم المصريين الشجاعة ، أثناء وصفه هؤلاء الفلاحين، فى حربهم ضد الفرنسيين . ولسنا نعرف فى أى فريق نجد الشجاعة إذا كان الجيش الغازى يحارب بمدافعه وبنادقه ، والمصريون سلاحهم الوحيد هو العصى ، وهم مع ذلك لا يهابون الموت ويحاربون من أجل حريتهم .

يقول «دينون» : «من الممكن أن نقول إن أى مصرى ، على المستوى الشخصى ، حاذق وماهر (....) ، ولا أعرف إلى أى مدى نستطيع أن نجعله يتعلم الشجاعة ؛ ولكن يجب أن نرى بحرص ، بل وبنوع من الفزع ، صفات الجند التى يتحلون بها ؛ فهم غاية فى الزهد، يسيرون كأحسن عدائين ، يركبون الخيل وكأنهم من الأساطير ، يسبحون كالدرافيل ؛ إنهم شعب مكون من ملايين كثيرة ، وله كل هذه الصفات ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن أربعة آلاف فرنسى منعزلين يحكمونهم بعنف على مساحة مائتى فرسخ ! لأن عادة الطاعة طريقة مثل عادة القيادة ، حتى ينام البعض فى تعسف سلطته ، بينما يصحو الآخر على صوت أغلاله» . وفى الصفحة نفسها من الكتاب ، وبعد هذا الكلام مباشرة ، يجئ الدليل القاطع الواقعى على افترائه : «ألفان من العرب على الجياد وخمسة أو ستة آلاف فلاح من المشاة، ظنوا أنهم يستطيعون سحق الخيالة (الفرنسية) ،......، تقدموا أمام طهطا ، عندما اكتشفهم الفرسان ، مستعدين للحرب» .

إن «دينون» ، مثله فى ذلك مثل كل مثقفى الغرب ، لا يستطيع

تغيير آرائه المسبقة ، التى قرأها فى كتب مثل كتاب «كوندرسيه» الذى سبق أن تحدثنا عن افترائه على «المسلمين» – فى الجزء الأول. ولذا ، فهو لا يعزو انتصار الفرنسيين لمدافعهم التى تصوب إلى صدور فلاحين سلاحهم الوحيد هو العصا . يتحدث عن الآلاف التى تتقدم دون خوف نحو مدافعهم ، ثم يرى أن حكم «أربعة آلاف فرنسى» يحكمون «بعنف» – على حد قوله – يرجع إلى «عادة الطاعة» . وما فائدة التعليق إن كان حتى رأى العين لم يقنعه ؟ إن كان هو نفسه لا يعى معنى ما يقوله ، وكأن الفرنسيين يطاعون دون مدافع .

والأمثلة عند «دينون» كثيرة للبطش الفرنسى : «وصلنا أمام قرية ، ما عرفنا لها اسما إلا فى اليوم التالى ، وكان اسمها «البيرا» ، فقد وصلنا إليها مساء ، ولم نجد بها ساكنا واحدا ليخبرنا باسمها . وأنا أحب أن نجد القرى بلا سكان ، حتى لا أسمع صراخ الأهالى ونحن مضطرون لتجريدهم من كل شئ ، لم يتبق فى القرية إلا الحوائط ، فالأبواب والأخشاب كلها كانت قد نزعت وأخذها أهل القرية معهم ، وكانت القرية تبدو – بعد تركها بساعتين – وكأنها أثر له من العمر قرن من الزمن (.....) ، توجهنا ، (بعد ذلك) ، إلى ... «فارشنت» ..... تلك القرية البائسة، كانت قبل بضع ساعات ، قد سلبت على أيدى المماليك ... ، وصلنا ، وسلبنا ما تبقى فى المخازن ؛ حاولنا جمع العسكر لمنع تلك الفوضى ؛ ولكن كيف ومعاقبة الجيش بأسره كانت ضرورية فى حالة كتلك .... وكى نتفادى نظرات اللوم فى عيون

الأهالى ، تركنا القرية في منتصف الليل ...، وصلنا فى الحادية عشرة إلى قرية كبيرة ، لم أعرف لها اسما أبدا ، حيث تجول العسكر لسوء حظها ولخراب أهلها» .. «فى اليوم التالى ، لم يكن متبقياً لنا إلا ثلاثة أرباع الفرسخ ، حتى نصل إلى فرساننا الذين لم يتقدمونا إلا لأكل البلد قبلنا» ، .. «كنا نحارب – منذ ست ساعات دون توقف – عدوا عديم الخبرة ، لكنه شجاع ومتعصب دينيا ، ويقاوم بإصرار : لم يكن ينسحب إلا جماعة ، فكان واجبا علينا قتل كل من تقدم منه» .

ونعجب أن «فيفان دينون» ، على الرغم من كل ما يحكيه هو نفسه من تفاصيل بشعة ، إلا أنه يصر على أن ما يحرك الأهالى هو التعصب الدينى . ولكن ، ألم يكن «دينون» واحدا من جيل تلاميذ فلاسفة التنوير ذلك الجيل الذى لا يرى فى أى إيمان إلا «تعصبا» و «تطرفا» ؟ فما دام المحاربون مسلمين ، فلابد لهم أن يكونوا «متعصبين دينيا» ، حتى وإن كانوا يدافعوا عن قريتهم وحياتهم وأعراضهم . ونعجب هنا أيضا لاعترافه بشجاعة المحاربين ، وقد رأيناه من قبل ، يتساءل عن كيفية تعليمهم الشجاعة .

ثم تكون هذه الصفحة بالغة الأهمية ، لأن «دينون» يقول فيها ما ينبغى أن نقوله نحن : «كنا نتباهى بأننا أكثر عدلا من المماليك ، وكنا، مع ذلك ، نقترف كل يوم ، مضطرين ، عددا كبيرا من المظالم . كانت صعوبة تمييز أعدائنا بناء على الشكل واللون ، تجعلنا نقتل يوميا فلاحين أبرياء ؛ كان الجند الذين نرسلهم للاستكشاف ، يظنون

أن التجار المساكين، من أهل مكة (الذين حضروا لمساعدة المصريين)، وقبل أن نصل إليهم لنعيد العدل - إذا ما كان هناك وقت للعدل - يكون الجند قد قتلوا اثنين أو ثلاثة ، وتكون قافلتهم قد سلبت أو بددت ، وجمالهم قد تم تبديلها بجمالنا الجريحة (...) ، وعندما كان الفلاحون يذعنون لتهديدنا ، ويحضرون لدفع الميرى ، كما يحدث أحيانا ، كنا نظن تجمعهم ، بسبب كثرتهم ، عداء لنا ، ونظن عصيهم أسلحة فكان عليهم أن يتحملوا رصاص القناصة ، أو رصاص الدوريات، قبل أن يشرحوا موقفهم ؛ فكانوا يدفنون موتاهم ، ونظل أصدقاء إلى أن تتاح لهم فرصة انتقام مؤكد ، والحق أنهم عندما يبقون فى منازلهم، ويدفعون الميرى ، ويوفون باحتياجات الجيش كلها ، ويستسلمون لنا، كانوا يوفرون على أنفسهم مشقة السفر والبقاء فى الصحراء. وفى تلك الحالة، كانوا يرون مواردهم تؤكل بانتظام ، فيأكلون نصيبهم ، ويحتفظون ببعض أبوابهم ، ويبيعون البيض للجند ، ولا يغتصب إلا القليل من نسائهم وبناتهم» ، نرى ماذا كان يعنى الاستسلام من نتائج حميدة ومنظمة فى السلب والنهب والاغتصاب . ولكن الأهم والجديد ، ما نقرؤه فى أول النص ، عما تثيره رؤية عصى فى أيدى الفلاحين ؛ إنها كفيلة بإرسال القناصة ضدهم : أين تقع الشجاعة هنا ، إن كانت مجرد عصى تثير مثل ذلك الفزع ؟

ونستمر فى التعرف على الحقائق التى شاهدها «دينون» ؛ وهو

يقول : «أما مصير السكان ، الذين جئنا إلى مصر لإسعادهم ، دون شك ، فلم يكونوا أحسن حالا (مما سلف) ؛ إذا ما اقتربنا منهم خافوا وتركوا منازلهم ، ولا يعودون إليها إلا بعد رحيلنا ، ولا يجدون فيها إلا الطين الذى بنيت به ؛ فالأدوات ، والمحاريث ، والأبواب والأسقف كلها، كانت تستعمل لإبقاء النار (من أجل طهى طعام جنودنا) كانت الأوعية تكسر كلها والغلال تؤكل كلها ، ويشوى الدجاج والحمام كله ؛ ولا تتبقى إلا جثث الكلاب لأنها أرادت حماية ممتلكات أسيادها . ولو أننا مكثنا فى تلك القرية ، يصدر الأمر لهؤلاء البؤساء بالعودة ، وإلا عوملوا على أنهم متمردون متواطئون مع أعدائنا ، وتضاعف بالتالى الغرامة التى يدفعونها» .

ونقرأ هذا الاعتراف الأخير ، وهو يصف الخدم وكثرتهم فى ذلك البلد الفقير : «يجب أن نعترف أننا أصبحنا ، رويدا رويدا ، شركاء فى هذا الفساد ، وأننا كنا نتشبع بعقلية الشرقيين ونحن نتنفس هواءهم نفسه ، وأننا أصبحنا لا نعرف كيف نتخلص من هذه الحاشية كلها (من الخدم) » . ألم يقل «دينون» نفسه فى أول كتابه إن الفرنسيين قد حلوا محل المماليك ؟ وكم مكث «دينون» مع بونابرت فى مصر ، حتى يؤثر «هواء الشرقيين» عليه بهذه السرعة ؟

ملاحظة أخيرة : كتاب «فيفان دينون» هذا يتحدث عن «المصرى» وعن «الفلاحين»، فكلمة «مسلمون» نادرة الاستعمال ، مما يدل على أن المقاومة كانت من جميع المصريين ، مسلمين وأقباطا ، خاصة أن ما رآه المؤلف يقع أغلبه فى صعيد مصر ، حيث أغلب السكان أقباط حتى

يومنا هذا . وتنطبق هذه الملحوظة إذن على كل من تحدث بعد ذلك عن الفلاحين والمصريين ، أقباطا ومسلمين . وهى جديرة بالتنويه لما جلبه «الجنرال يعقوب» رئيس مخابرات الجيش الفرنسى من تهمة على بنى دينه ، وهم أبرياء من أفعاله الخائنة المشينة .

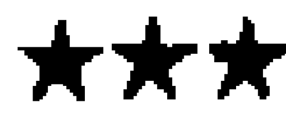
★★★

ختاما ، نذكر أن «دينون»، الذى كان من أكثر المتحمسين للمشروع الاستعمارى ، كان يحلم بجلب الأوربيين والأمريكان للاستيطان فى مصر ، وهو – بالطبع – لا يذكر شيئا عما سيكون لأهل مصر في تلك الجنة المرتقبة ، التى رأينـــاها منفــذة ، بالفعل ، فى الجزائر بعد ذلك بسنوات .

وسافر بونابرت خلسة إلى فرنسا فى الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٩ ؛ وكان من الرفاق المختارين لمصاحبته فى تلك الرحلة ، «فيفان دينون» ومذكراته .

واللافت للنظر أن كتابه ، على نجاحه وانتشاره ، لم يعرف إلا كدليل للفنانين في جولة بين الآثار، يحكى فيها الكاتب انبهاره بالنمط الجمالى الجـديد الذى يختلف كلية عن أنمـاط الجمال الكلاسيكية المعهودة آنذاك . ويعجب الدارس لإهمال كل القراء ، إلى يومنا هذا ، لكل ما قصه «دينون» ، دون مواربة ، عن تصرفات الجيش فى البلد؛ ومن خلال وصفه لتلك التصرفات ، فإننا لا ندرى كيف ومتى استطاع هذا الجيش تلقين المصريين أصـول حضارة غربية ، تتمثل فى مبادىء الثورة الكبرى ؟

و «چان – كلود فاتان» ، الذى أعد المقدمة للطبعة الجديدة ، كان – على حد علمنا ، والله أعلم – أول من أشار إلى حقيقة هذا الجيش الذى لا يمكن أن تفخر به دولة . إنه جيش لا يحارب بقدر ما يغتصب ويسلب وينهب ويحرق فلاحين عزلا ، لا يجدون غير عصيهم ليصدوا بها مدافع الطغيان الجديد الذى حل محل طغيان المماليك ، على حد قول «دينون» نفسه .



هذه الصفحات الدامغة للحكم الفرنسى ، مأخوذة ، كما سبق أن قلنا من «رحلة إلى مصر السفلى والعليا» لـ «فيفان دينون» ، وقد نشرت سنة ١٨٠٢ ، أى أثناء حياة المؤلف . ولم يكتب أى ممن كانوا معه أثناء الحملة ، كلمة واحدة مما قيل فى هذه المذكرات . وقد نجحت نجاحا كبيرا ، قبل أن تترجم إلى الإنجليزية والألمانية وقد درسها كثير من النقاد ، وأعجب الجميع بأسلوب هذا الفنان ، الذى قدم أيضا ، لوحات جميلة ، وخرائط غاية فى الأهمية فى الجزء الثانى من كتابه الشهير . وعلى الرغم من ذلك ، لم يعلق على هذه الصفحات إلا آخر من أعاد نشرها ، وهو «جان – كلود فاتان» ، الذى يعد من الجيل الجديد للمستشرقين الفرنسيين ، الذين لا يتورعون الآن عن ذكر الحقائق كاملة. وكانت كل التعليقات ، قبل ذلك لا تشير إلا لما أثبته «دينون» من رؤية ثاقبة ، عندما رأى الآثار المصرية لأول مرة : بدأ النفور منها لعدم وجود علاقة بينها وسنن الجمال الكلاسيكى ، الذى تؤخذ قوانينه من الفن الاغريقى القديم ، ثم نرى نظرته ، على مر الصحفات ، تتحول

رويداً رويدا ، حتى يفهم أن لهذا الجمال المصرى القديم ، قوانين أخرى ، خاصة به ، فيعجب به ، ويفهم أن فى العالم شيئا آخر غير النمط الأوربى ، الوارث للفن الإغريقى . وعلى الرغم من تكرار وصف العنف – كما سبق أن رأينا – إلا أن أحدا – عدا «جان – كلود فاتان» طبعا – لم يعلق على طريقة معاملة الفرنسيين للفلاحين ، تلك الطريقة التى يفضِحها «دينون» واستمر الجميع بعد نشر وقراءة مذكراته ، فى الإشادة بالتنوير والحرية اللذين جلبهما الجيش الجمهورى إلى مصر .

قد يكون خير مثال على تلك النظرة الجزئية ، بل المتحيزة – إن كنت تدرى فتلك مصيبة – ما قاله الأستاذ «جان – مارى كاريه» فى رسالته الشهيرة : «الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر» ، وهى من الكلاسيكيات فى هذا الموضوع ، وقد أعيد نشرها لنجاحها ، بعد ظهورها لأول مرة سنة ١٩٥٦ ، فهو لم ير ، ولم يقرأ، من كتاب «دينون» ، إلا ما يخص الفن ، وشخصية «دينون» المحببة إلى النفس. وكيف لا ، وقد أهدى الأستاذ «كاريه» هذا جزءى رسالته الضخمة «إلى ذكرى كل الفرنسيين الذين ساهموا فى اكتشاف مصر القديمة ، وساهموا فى نهضة مصر الحديثة».

إلى هنا، والأمر يمكن أن يكون مقبولا فتلك هى سنة المستشرقين حتى عهد قريب ، ومع ذلك ، فالقارىء لا يسعه إلا العجب ، عندما يقرأ فى الجزء الثانى من الكتاب أن «المعهد الفرنسى» ، ذلك المجلس العلمى الشهير ، قد «دخل مصر مرتين بصورة رسمية ، المرة الأولى مع بونابرت (..) والمرة الثانية مع ليسبس (..) . وبين هاتين البعثتين

السلميتين ، بعثة ١٧٩٩ وبعثة ١٨٦٩ ..» وعلى الرغم من أن «كاريه» قد قرأ وقدم بإسهاب كبير ، مذكرات «دينون» ، بل وتحدث عنها فى ٢٦ صفحة في الجزء الأول من بحثه ، إلا أنه ، وبعد كل ما عرفه ، مازال يسمى الحملة «بعثة سلمية» ، كأن بونابرت كان على رأس رحلة استكشافية ، أعضاؤها من علماء «المعهد الفرنسى» ، ولا يصحبه فى رحلته تلك ستة وثلاثون ألف جندى من الغزاة . وتزداد الدهشة ، عندما نقرأ بعد ذلك تقديمه لخطابات مؤرخ يدعى «جوزيف ميشو» ، زار مصر أثناء حكم محمد على ؛ ويعلق عليها «كاريه» قائلا : «هل يعنى ذلك أن «ميشو» يوافق على أساليب محمد على ؟ لا ؛ إنه يعترف بذكاء الباشا ونشاطه ، ولكن ، كيف يوافق على استغلاله للفلاحين دون رحمة ؛ كيف يوافق على نظام الضرائب الظالم والرعب البوليسى الذى كان يسود البلاد أثناء حكمه ؟ صحيح أن مصر كانت تطيع ، وتسير ، وتحفر القنوات (.. إلخ) ولكنها كانت تفعل ذلك تحت ضغط الغرامات وضرب العصى» (...) ، «كان نتيجة ذلك النظام ، عذاب الشعب وبؤسه» (٣) ، .. نعم ، يدهش القارىء ، لأن الأستاذ «كاريه» لم يتوقف ولم يقل الكلام نفسه ، عندما تحدث بإسهاب عن مذكرات «دينون» ، مع أن بها تفاصيل أكثر عما عاناه الفلاحون ، كما سبق أن قرأناها مترجمة ، ولم يتوقف عندها الدارس الأستاذ «كاريه» ، ألأن الضرب والبؤس كانا ينبعان من الحكم الفرنسى .. فلا يبدو الأمر غريبا عليه ؟! أم أن «ضرب الحبيب ..»؟ ولكن عندما لاحظ كاتب آخر البؤس نفسه ، والضرب نفسه أثناء حكم محمد على ، يصبح الكلام جديرا

بالتعليق ، بل ويشار إليه بالبنان على صفحتين من القطع الكبيرة فقد شعر الأستاذ «كاريه» هذه المرة بالظلم الذى يقع على شعب مصر المسكين المقهور. وكان الأجدى أن يذكره هذا القهر ، بقهر آخر ، سبق أن نزل على الشعب نفسه ، ولكن على أيدى الفرنسيين الغازين ، لكنه لم يفعل ، لأنه لا يريد أن يرى .

وهكذا نتلقن درسا قاسيا في موضوعية العلماء الغربيين . والعلم ، فقد درّس الأستاذ «جان - مارى كاريه» لمدة ثلاث سنوات في جامعة القاهرة ، ومن يدرى كم من الحقائق المزيفة قال لطلبته المصريين . وسبق أن رأينا .. ما كانت المدارس الفرنسية تقوله لتلاميذها المصريين في العصر نفسه ، أى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢(*) .

وبعد أن عرفنا ما كتبه الفنان «فيفان دينون» فلنقرأ الآن ما كان يكتبه مدنى آخر ، من خطابات لأهله ، في العصر نفسه .

«فرانسوا برنوابيه» : «مع بونابرت، فى مصر وسوريا(**)»

كان الفنان «دينون» من المقربين جدا للجنرال بونابرت، وعندما سافر القائد العام من مصر إلى فرنسا سرا كان من بين من انتقاهم لصاحبته أيضا، جنرال آخر، لم يكن من العسكريين، إذ كان «مديرا لمشغل جيش الشرق». ويقول «كريستيان تورتيل» إنه وجد، بين أوراق عائلته القديمة، خطابات هذا المسئول إلى زوجته وابن عمه، وقد نشرها «تورتيل» هذا فى عام ١٩٨١ (٤).

---

* انظر الملحق.

** بعض من هذه الصفحات سبق نشره فى «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة.

يحكي الجنرال «برنوابيه»، فى أحد خطاباته الأولى زيارته سرا للسفينة التى يسافر عليها القائد العام لجيش الشرق، وهى سفينة لوريان : «لم أر فى حياتى مافاجأني وأعجبني مثل قاعة الاستقبال بها : كانت مصممة لملك ولد فى الرخاء أكثر منها لجنرال جمهورى، ولد من أجل مجد وطنه .. وقيل لى إن أصول المراسم مراعاة بدقة فى هذا المكان : إنهم يحاولون نسخ العادات القديمة للبلاط الملكي، وبدا لنا الأمر مضحكا للغاية وكأننا نشاهد نبيلا كبيرا مرفها وسط معسكر من الجند الاسبرطيين»:

تدل هذه السطور على عقلية «فرانسوا برنوابيه» نفسه فهو يتكلم كالثوار الذين أرادوا التخلص من بذخ النبلاء السابق كله؛ وفى الوقت نفسه تشير هذه السطور الى نمط الحياة التى سيحياها بونابرت فى مصر، والتى تذكرنا بحياته فى ايطاليا .

وفى الطريق إلى الاسكندرية قابل الأسطول الفرنسى سفينة حربية تركية : «أبلغ بونابرت قبطان هذه السفينة نية الفرنسيين الدخول فى أراضى سيده، بصفتهم أصدقاء، ما جاءوا إلا لمعاقبة بكوات المماليك، لما يوجهونه من إهانات للمسيحين يوميا. ولذا فبونابرت ينصحه أن يستقبلنا كأصدقاء، وإلا أغضب السلطان» : كان هذا بالفعل ما قاله أيضا بونابرت لجيشه ، وكان الجميع يعتقد – كما سنرى لا حقا – أن فرنسا وإسطنبول متفقتان معا على تلك الحملة .

وينزل الجيش على شاطىء الإسكندرية : «عندما رأى حاكم الاسكندرية أننا نستعد للنزول الى الشاطىء ، أخذ يصلح بسرعة فائقة

تحصيناته السيئة، وأثار الغوغاء ضدنا» هكذا يوصف كل من حاول التصدى للحملة الغازية. ثم يصف «برنوابيه» نزول الجيش الى الشاطىء: «كان المنظر مهيبا ، وكنا نعجب له ، وكان لابد أن يستغربه المصريون ، فمما لا شك فيه ، أنهم لم يروا مثله من قبل ولكننى عجبت أنا نفسى لعدم المبالاه التي قبولت بها تحركاتنا كلها، ومن المؤكد أنهم كانوا يحتقرون المنظر أكثر مما يعجبون به، فمن كان يراهم يظن أنهم هم المنتصرون علينا (...) وعلى الرغم من تحركات أكثر من ألف رجل ومعداتهم إلا أننى رأيت أهل البلد يتوجهون إلى شاطىء البحر ويغسلون وجوههم وأجسادهم ، ثم يفرشون جلابيبهم الكبيرة على الرمال، وينظرون نحو الشرق ، ويقومون بالصلاة فى منتهى الهدوء ، ثم ينسحبون دون أن يلتفتوا إلى ما يحدث حولهم ، ما أعجب هذا البلد !»: بل ما أعجب رؤية الفرنسيين لأهل البلد ، فهم يعتقدون أن المصريين كالهنود الحمر، سينظرون إليهم وكأنهم آلهة هبطت من السماء أو جاءت من وراء البحار الشاسعة كما كان يقال عنهم .

وتبدأ الحياة في الاسكندرية المفتوحة ، ويبدأ استياء الجيش كله من البلد الجديد الغريب. وعلى الرغم من أن «برنوابيه» كان متحمسا جدا لتلك الحملة، إلا أنه يكتب قائلا : «مهما يكن الأمر، فأنا ألعن مائة مرة من كان سببا فى حضورنا إلى هنا ، فى مثل هذا البلد.. كلما فكرت فى حالنا ، وجدتنا تعساء، فإذا ما صادفنا فى الشوارع نساء، أو أطفالا ، نراهم يهربون أمامنا، وكأننا حيوانات كاسرة ، حتى الحيوانات التى تجدها أكثر ألفة من حيوانات أى بلد آخر، مرعوبة منا، خاصة الكلاب ؛

وهى فعلا تتبعنا بعناد شديد لدرجة أننا لا نستطيع التخلص منها إلا بالسلاح». قصة الحملة مع الكلاب طريفة ، وقد أمر بونابرت بإعدامها فى القاهرة لإزعاجها إياه أثناء الليل. ويقول الجبرتى إن الكلاب تتبع وراء الفرنسيين لأن لباسهم كان غاية فى الغرابة !

خرج الجيش من الاسكندرية فى طريقه إلى القاهرة عبر الصحراء. وكانت المأساة - ولا ننسى أن تلك الرحلة تمت فى شهر يوليو : «إننى أرى ولكن بعد فوات الأوان ، أننا ضحية ، وظيفتها تحقيق مشروعات نبتت فى الخيال الهائج المجنون لبعض الرجال، ليحققوا طموحاتهم المفرطة ، غير مبالين بضحاياهم . وأكثر شيء أدهشنى أن الجنرال بونابـرت لم يفكــر فــى توفير مياه الشرب لجيشه»، ومن ثم بدأ التعرف على السراب فى الصحراء ، ونتائج هذا الاكتشاف ، وتأثيره على الجند : «اجتاح اليأس كل النفوس ، وكانت النتيجة أن السير أصبح أكثر بطئا .. وكثيرا ما كنت أصم أذنى وأنا أسمع آهات وصرخات زملائى فى البؤس وهم يتوسلون لنساعدهم فى لحظة الموت، كنت أراهم يسقطون عند قدمى ، دون أن يتحرك لى ساكن ، لأن العذاب الشخصى يغلق القلب دون أى شعور غيره. كان كل منا يتبع طريقه فى صمت كئيب . كنا لا نلقى إلا بالكاد ، نظرة اشفاق على الجثث المشوهة التى نجدها بكثرة فى طريقنا». وأخيرا يصل الجيش إلى مدينة دمنهور : عندما اقتربنا هرب الفلاحون ومعهم حيواناتهم ومؤنهم كلها : لقد خلعوا حتى أبواب منازلهم . ولا بأس فقد تركوا المياه ، وكانت هى كل ما نبتغيه من متعة فى هذه اللحظة » .

ويتكرر وصف «برنوابيه» لهجوم البدو المستمر عليهم، وكيف أنهم كانوا لا يتركون للجيش لحظة أمان واحدة ، إلى أن يصل الجند إلى الرحمانية : «عندما رآنا أهل هذا الكفر من بعيد ، لاذوا بالفرار. وكانت النساء تطلق العويل.. وعلى الرغم من جمال هذا المكان ، إلا أن الحزن خيم عليه، لهروب أهله منه . وعندما شاهد الجيش هذا المنظر ولم يجد أمامه أى مورد ، رأى أن الانتقام هو الأصوب ، فأحرق كل شيء. ياله من منظر بشع، وقد قضى الحريق على نصف البلدة» ، الانتقام بالحريق: ممن ؟ ولماذا ؟ .

يركب الجند بعد ذلك مركبا ، وإذا بفرقة من المماليك تظهر على الشاطىء أمامهم : «نظر إليهم الجنرال «ياوونسكى» باستخفاف ، ولم يشعر بأى خوف ، وكان يعتقد أن المصريين لا يعرفون المدفعية، كان يقول : «أريدهم أن يقتربوا لأرى المفاجأة عندما يسمعون هذا الدوى»، وجاءت المفاجأة بالفعل، ولكن على غير ماكنا نتوقع ! إذ اكتشفنا فجأة ثلاثة مدافع مخبأة على شاطىء النيل. كنا بجانبها ولا يمكن أن نحتمى من طلقاتها»، تدور المعركة وتكاد المراكب الفرنسية تهلك بمن عليها ، لولا ظهور باقى الجيش الفرنسى : «لم يهرب المماليك أمام هذا الجيش المرعب، بل رأيناهم يتراجعون بخيولهم بأقصى سرعة ، والسيوف فى أيديهم .. كانت المعركة غير متكافئة ، فالعدو لم يكن لديه إلا ألف أو ألف ومائتى رجل ليصد هجومنا !». وتنتهى المعركة لصالح الفرنسيين كالعادة للسبب نفسه الذى يعترف به «برنوابيه» وهو كثرة عدد الفرنسيين، وقلة عدد المحاربين المماليك بالنسبة لهم .

ثم يجىء مشهد يدل على أن الجند الفرنسيين كانوا أقرب إلى المرتزقة منهم إلى محاربين من أجل مبدأ فلم نرهم - ولن نراهم - يهتمون بغير الغنائم: «وجدت بعض الجنود على شاطىء النيل يتعاركون من أجل بقايا ملابس أحد فرساننا الموتى ، فاشتريت منهم الحذاء والقبعة والقميص» ..

ويحرق البدو ، فى إحدى القرى، موظفا فرنسيا وخادمه : «عندما رأى بونابرت تلك الوحشية، استولى عليه السخط فأمر بإحراق القرية، وذبح سكانها كلهم ، أو إطلاق النار عليهم. ولم يمنع هذا الدرس القاسى أن نقابل جثثا كثيرة فى طريقنا وقد شوهها هذا الشعب المفترس»: سنقابل بتكرار ملح، هـــذا التصعيـــد فى العنف ، فكلما حاول الفرنسيون قمع المقاومة ، وكلما كان العقاب قاسيا ، زاد عنف المقاومة ، واتسعت دائرة الثورة، مثلما يحدث فى كل البلاد المفتوحة .

وتستمر المسيرة نحو القاهرة : «فى اليوم التاسع عشر، لم يعد اثنان من الجند يتحملان هذا الطريق الشاق، فأمسكا بأيديهما، وألقيا بنفسيهما فى النيل أمام زملائهما وقد فضل كثيرون إنهاء حياتهم بالرصاص ، ليهربوا من هذا العذاب الأليم ».

أما عن معركة إمبابة فهو يكتب قائلا : « لم تكن معركة .. كانت مذبحة .. حاول بعض المماليك استجداء الفرنسيين قبل سقوطهم فى النهر ، ولكن جندنا لم يستجيبوا ، وأصموا آذانهم لأى شعور بالرأفة : لم يعد يهم إلا المجزرة .. » : أكدت آخر الدراسات تلك الحقيقة، حتى أن أحد المؤرخين المحدثين يقول عنها إنها لم تكن أكثر من «مناوشة لم

تذكر فى التاريخ إلا لأنها فتحت أبواب القاهرة لبونابرت» (٥). وقد أسلفنا كيف حولها الشعراء والمؤرخون إلى معركة اسطورية كجزء من مجد نابليون الاسطورى. وكان معاصرو بونابرت قد هولوا فى عدد المماليك المحاربين، وفى عدد ضحاياهم حتى يتلاءم ذلك مع سمعة الجنرال الذى لا يهزم أبدا .

وعلى الرغم من أن «برنوابيه» لم يكن عسكريا إلا أن شهادته مهمة جدا ، فقد كان كلامه موجها إلى زوجته ولا علاقة له بأى نية دعائية أو حتى تسجيلية . إنه شاهد موضوعى ، ولا ينتمى مثل غيره ، إلى الجوقة التى كانت تنشد المواويل كلما فعل بونابرت شيئا .

ويحاول مراسلنا بعد ذلك، تحليل طباع المصريين كما رآهم فى القاهرة؛ وهو يقول إنهم يخضعون لأية سلطة طاغية تستبعدهم . وكأن المقاومة التى شاهدها فى الدلتا كانت لشعب آخر، فلا مناص من ترديد الافكار المسبقة، فهو يقول مثلا : «لقد سخر المصريون لدرجة أنك تجد الخدم كثيرين وبأسعار رمزية، إنهم يفعلون كل شئ نطلبه. وهم عادة ماهرون جدا فى عملهم، وفى منتهى الأمانة »: من يقرأ هذا الكلام يظن أنه لا يوجد خدم فى فرنسا؛ والقارئ لأية قصة أو مسرحية من الأدب المعاصر لتلك الفترة، يجدها تزخر بهم، وأشهرهم شخصية الخادم «فيجارو» بطل المسرحيات المعروفة فى ذلك العصر.

نجد في تلك الخطابات بعد ذلك، مثلا لما يمكن أن يسمي بالأسطورة والحقيقة: فـ «برنوابيه» يحلم بالأسطورة، وفى الوقت نفسه، يقص على زوجته الحقيقة التى عاشها هو نفسه : «فى اليوم التاسع من أكتوبر

مثلا . وصلنا فى الصباح الباكر إلى كفر يبدو بائسا: فأغلب المنازل كانت مبنية بالطين، وكان منظر الأطفال العرايا يثير الشفقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لابد من أخذ مال هؤلاء التعساء، الذين أرعبهم مجرد اقترابنا منهم. وبينما كنا ننصب الخيام، رأينا بعضهم يهرب، وأولادهم على ظهورهم، ويسحبون وراءهم كل ما يملكون كان أول هم لنا استدعاء كبير هذا الكفر، وإبلاغه أننا حضرنا لنأخذ الضرائب. جاء الشيخ وهو يبكى، ليقول إن البدو مروا عليهم منذ أسبوع وأخذوا كل شئ. ولكن المحصل «دوفال» مع أنه رجل طيب القلب، لم يكتف بهذا الشرح – سواء كان الشرح صادقا أم كاذبا – قال إنه لابد أن يحصل المبلغ وإلا نفذ الأوامر، وضربهم بالعصى عند أى رفض. عندئذ، أخبر الشيخ أهل الكفر بالتوجه إلى معسكرنا لدفع المال».

«كانت الساعة الثانية ظهرا، ولم يظهر أحد. فأراد قائد فرقتنا أن يستعمل أعنف الوسائل ليحصل الضرائب، فذهب إلى الكفر ومعه مائة رجل (...) أما المحصل «دوفال» فقد بقى فى المعسكر حتى لايرى هذه المشاهد المزعجة. كنا نقول إنه من القسوة أن ينفذ الجمهوريون مثل هذه الأوامر، لأن مثلهم الأعلى هو أن يجعلوا الشعوب سعيدة، وأن يعاملوها كأخوة . كانوا، بهذه الطريقة، مجبرين على التمثل بأكثر الطغاة قسوة لابتزاز هذا الشعب، والعصى فى ايديهم. ألقينا اللوم على بونابرت الذى كان يستطيع أن يحسن من حال هؤلاء البؤساء ويفرض عليهم قوانين أكثر انسانية. وبهذه الطريقة ، كانوا سينعمون بحكم يدعى أنه كريم وعادل ومستقل. ولكن مع الأسف ، فالحقائق تثبت أنهم مازالوا يقاسون

من استعباد مخجل الى أقصى درجة، وظالم إلى أقصى درجة.. وبشع إلى أقصى درجة».

«كان المماليك يحكمون بسيطرة كاملة على الأقاليم : كانوا يجبون الضرائب ويختلقون أنواع الإهانات ضد الفلاحين .. وما كان يخزينا ، هو أن بونابرت مع الأسف الشديد، كان يستعمل وسائل المماليك نفسها».

«وفي تمام الساعة السادسة مساء، عادت فرقتنا إلى المعسكر ومعها عشرة فلاحين، مقيدين وكأنهم ممن حكم عليهم بالأشغال الشاقة، لأنهم لم يدفعوا الضريبة. وقد أحضرت الفرقة معها أيضا شيخ الكفر. وشرح له «دوفال» أن لابد له أن يجبر هؤلاء الفلاحين على دفع الضريبة فى ظرف ساعة، لأنـــه هـو وحده المسئول ، علاوة على ما سيصيبه من ضرب بالعصى، إلى أن يدفع المبلغ.. وهكذا انتهى هذا اليوم البغيض المضنى » .

«قد تظنين يا زوجتى الحبيبة ، بعد تلك الصورة التى وصفتها لك، أن مصير هؤلاء المساكين وبؤسهم ، يجب أن يجعلنا تنظر اليهم على أنهم أكثر الناس بؤسا على الأرض !... من المؤكد لو أنه كان شعبا مثقفا ومستنيرا لما تحمل مثل هذا الطغيان، وأنه سيثور ضد مضطهديه، ولا يتحمل بطشهم!.. ولكــن هــذا الشعب الجاهل لا يشعر بذلك ويتحمل كل شيء بصبر واستسلام ، دون أن يكون أكثر تعاسة. أنا أوافق «جان – جاك روسو» الذى يثبت بكفاءة أن العلوم والفنون مضرة

لسعادة البشر ، لأنهم لا يعرفون السعادة إلا فى حالهم الطبيعية وهى حال المتوحش» .

لا شك أن هذا اعتراف صريح ببطش الفرنسيين، وإذن واضح بالثورة لو أن الشعب المصرى كان «مثقفا ومستنيرا»، وتثور القاهرة بالفعل بعد هذا الخطاب، والمفروض أن تكون المفاجأة إذ أثبت الشعب المصرى لمراسلنا أنه ليس شعبا جاهلا أو متوحشا.

فما رد فعل «برنوابيه» إزاء هذا الدليل القاطع على أن المصريين ليسوا كما ظن فى أول الأمر، شعب عبيد مستعبدين؟ وبم سيصف الثوار الذين رفضوا البطش الفرنسي ؟

«.. الحشد الهائج المتعصب تعصبا دينيا أعمى ،....، وفى هذا الوقت، وفى المساجد، كان كهنة الدين يخطبون فى الناس ضدنا بمواعظ خبيثة ومتمردة ، حيث كانوا يدخلون سلطة الله ونبيه ليزيدوا من ثورة هذا الحشد من المتطرفين : إنها خير وسيلة يلجأ إليها دائما القساوسة ليؤثروا ويهيجوا المؤمنين كما يريدون» .

نرى المفارقة العجيبة ؛ فتصبح ثورة القاهرة عند من ينشدها تطرفا دينيا وتعصبا أعمى، ولا يحاول «برنوابيه» أن يربط بين الأحداث ، وما سبق أن قاله فى خطابه السابق، عن جهل شعب يقبل البطش الفرنسى دون أن يثور .

وفى خطاباته لابن عمه ، يقول مراسلنا : «يا ابن عمى العزيز، بالنسبة للنساء فإليك قصة طريفة .. عندما حضر جنرالاتنا الى القاهرة، استولوا بالقوة على النساء اللاتى تركهن المماليك فى قصورهم . ظنوا

أنهن غنيمة طيبة، بسبب ثراء ملابسهن وجمال زينتهن. وهجموا عليهن دون تمييز فريسة عن الأخرى . ولكن عندما هدأت رغبتهم بدأوا يتعرفون على فرائس شهوتهم. كانت خيبة الأمل كبيرة ، عندما اكتشفوا أنهم لم يرثوا إلا بقايا مهملة ! ولذا، حاولوا التخلص منهن . ومنذ تلك اللحظة، مرت هؤلاء النسوة على كل الأيادى، حتى أصبحن ملكاً للجنود».. وكان «برنواييه» يحكى لابن عمه عن مغامرات، يخفيها طبعا عن زوجته، نفهم منها ان همه الوحيد فى القاهرة - عندما كان ينتهى من تلبية أوامر بونابرت الخاصة بملابس الجند - هو البحث عن فتيات يشبعن رغبته الجنسية . وقد اشترى - بمعنى الكلمة - فتيات مسلمات ومسيحيات، وصفهن بالتفصيل الفاضح، وما شعر به من لذة معهن. وقد زوج احداهن إلى خادم عنده ثم دخل بها والعريس مسجون فى حجرة أخرى : كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الفتاة التى رآها فرغب فيها .

والأحلام التنويرية لهذا الثورى المدنى لا تنفصل عن الواقع الغريب الذى يعيشه، فى ازدواجية لم نعد نستغربها من رجال جيل الثورة، فمراسلنا يكتب فى أحد خطاباته ما يلى : «أما نحن - الفرنسيين - فواجبنا يحتم علينا تخفيف معاناة هذا الشعب البائس وآلامه، بأن ندخل عليه تقاليدنا وقيمنا . لقد بدأنا فى كسر سياستهم الطاغية وسلطتهم المطلقة، ولكنى لا أعرف إن كنا نستطيع إلغاء الفقر»..من البديهى، ومن واقع خطابات «برنواييه» نفسه، ان المصريين لم يروا من التقاليد

الفرنسية، إلا حرق القرى، والضرب بالعصى، والبحث عن العذراى الجميلات. ولا يزال مراسلنا لا يفهم ثورة المصريين على الوجود المستعمر : « يريد الإنجليز طردنا من مصر : ومن أجل هذا الهدف، دبروا للمرة الثانية خطة لا مثيل لها فى جبنها . استعملوا السلطان لإثارة سكان الأقاليم علينا . والبلاط العثمانى يعرف جيداً التعصب الدينى الأعمى للمصريين، وهو أعنف تطرف فى الشرق كل . فاستغلوا سذاجة المؤمنين الغبية، لخدمة الهدف الإنجليزى . كل الوسائل كانت متاحة، حتى أكثرها بغضاً» .

«إن البلاط العثمانى لا يخجل من سحق أى إحساس بالعدالة أو الإنسانية، من أجل تحقيق طموحاته الآثمة وجشعه النهم، فألقى بملايين الأفراد فى هــوه من البؤس والعذاب، وخطة هجومه دليل كاف على نفاقه» . من البديهى أن «برنوابيه» قد نسى تماماً ما قاله هو نفسه فى خطاباته الأولى عند وصوله الى مصر، ورأيه فيمن خطط لهذه الحملة...

وتحرك جزء من الجيش تحت قياده بونابرت صوب الشام : «أخذ بونابرت معه عشرة من أغنى وأشهر سكان هذا البلد كرهينة ، حتى يأمن سلامة المدينة الكبيرة أثناء غيابه»، مما يؤكد لنا خشية الفرنسيين الدائمة من ثورة المصريين . وفى الطريق الى عكا «كنا ننوى التوقف فى قرية ... وعندما اقتربنا منها، شاهدنا ناراً عالية . ظننا فى أول الأمر ان السكان قد أوقدوا هذه النار ليعبروا عن فرحتهم بمرور بونابرت عليهم . ولكن عندما اقتربنا فهمنا أن حريقا هائلا قضى على القرية كلها . ولدى وصولنا، انتابنا الفزع امام هذا المنظر البشع الذى يصعب وصفه . فلم

نجد إلا رماداً وجثثاً من كل جنس وسن، كانت ترقد في كل اتجاه وقد اخترقتها الطعنات . ولابد انهم اصيبوا هكذا وهم يحاولون الفرار من النار . لم يكن يرفرف فوقهم إلا الصمت الرهيب (السبب) كان الجنرال بونابرت مع اثنين من قواده ... وتجمع حولهم بعض الفلاحين، وظن الفرنسيون أنه حب الاستطلاع (ثم اتضح ان معهم عصا انهالوا بها على بونابرت ورفاقه ضرباً) فما كان من الفرسان إلا ان انهالوا عليهم بسيوفهم، ثم حكم على سكان القرية كلهم بالقتل، وأحرقت عن أخرها» :
هذه القصة، على قسوتها، لا تخلو من عنصر فكاهي، فعلى الرغم من المقاومة المستمرة في مصر كلها، وعلى الرغم من ثورة القاهرة، إلا ان بونابرت مازال يعتقد ان الالتفاف حوله أمر عادي ولايزال «برنوابيه» يظن ان النار تعبر عن فرحة اللقاء بهم !

ماسنقرؤه بعد ذلك يؤكد مدى تهويمات الجيش الغازى، فعندما تقدم بعض الأتراك نحوهم فى غزة «قال لهم بونابرت إنه يجئ اليهم كصديق، وان هدفه الوحيد هو معاقبة الطغاه الذين يعذبون الشعب، ليعطى هذا الشعب الاستقلال المطلق. كانت هذه الكلمات جديرة بكهربة أى شعب غير الشعب السورى، لأن الشعب السورى تعود العبودية منذ قرون طويلة . وكلمات حرية واستقلال غريبة كل الغرابة عليه، ولا معنى لها بالنسبه له»، ولم يشرح لنا «برنوابيه» ما كان يعنيه بونابرت بكلمة «الاستقلال المطلق»، الذى جاء بونابرت خصيصاً ليهديه إلى الشعب السورى، بعد الحروب والمجازر التى شاهدها . خاصة اننا نرى معه بعد هذا التطبيق العملى لهذا «الاستقلال المطلق» : « لو ان خبر انتصاراتنا

فى سوريا وصل إلى فرنسا، فلا شك أنهم سيبتهلون هناك الى الله شاكرين له . ولكن، إذا ما شاهدوا مثلى الآثار الحزينة لمدينة يافا المسكينة، والجرائم البشعة التى راح ضحيتها السكان، فإن الفرنسيين سيتساءلون بسخط عن الآلهه التى تحمى مثل هذه الأفعال . وإن كان قانون الحرب يسمح بذلك، إلا أن ما شاهدته يجعل البدن يقشعر ...».

«وصلنا يوم ٢٢ تحت أسوار يافا. وكانت الفرق التى تدافع عن هذه القلعة مكونة من محاربين من دول مختلفة، الذين سرعان ما تجمعوا . ومع ذلك فإن هذا التجمع من الأجانب كان يدافع بإصرار، عن قلعة لا يحميها إلا سور دون خندق . فقد كان التعصب الدينى الاعمى يقوى من عزيمة هؤلاء الجند الذين لم يخافوا محاربة الفرنسيين وهم وراء تلك الأسوار الضعيفة» . أرسل بونابرت ضابطا يطلب من الحامية أن تستسلم، فما كان من قائد الحامية إلا ان أمر بقتله، لما اعتبره فى ذلك من وقاحة فادحة، فكان الهجوم : «لم أكن أتخيل مجزرة أبشع مما رأيت : كانت فرقنا تنتقم لوفاة رسولنا! وعلاوه على ذلك، فالإصرار المتعجرف الذى جعل المحاصرين لا يستسلمون، كان يشعل ثورة جندنا (...)، قتل كل شئ وحرق؛ لم تتوقف فرقنا عن القتل إلا عندما أعياها الجهد لكثرة الذبح : لم يمنعهم الجنس أو السن» .

ثم يعد بونابرت ألفا وخمسمائة جندى أن يعيدهم سالمين إلى حدود الشام إذا ما استسلموا وعندما وافقوا، أمر بقتلهم كلهم رمياً بالرصاص : «وبعد ذلك، شاهدنا مناظر مؤسفة تتلاحق أمامنا : رأينا الجند يعودون الواحد تلو الآخر إلى المعسكر، محملين بكل أنواع

البضائع . ولكن حدث ما لم أره من قبل، شاهدت تجارة الفتيات، وهم يبدلونهن بألف شيء» . وقالت فريسة أحد الضباط إنها ابنه الحاكم ولا يحق له أن يأخذها، فذبحها بسيفــه أمام الجميع . وعندما عرف بونابرت بما تسببه تلك البائسات من فوضى فى المعسكر، أمر بإعدامهن كلهن» ..

ثم أرسل بونابرت بياناً الى سكان نابلس، يطلب فيه من السكان تسليمه المماليك، وإلا حاربهم، وكان في الوقت نفسه يؤكد نياته السلمية لمن يثبت انه صديق: «أرسل بونابرت بيانه هذا الى القدس أيضا ...، وإلى بيت عانيا وبيت لحم وأريحا، ليبشر الشعوب بمجيئه وبنيته السلمية» ويبدو ان الشعوب كانت قد فهمت معنى كلمة «النيات السلمية» بالفرنسية، ولذا، كتب «برنوابيه» معلقاً : «ولكن هذا البيان لم يهدئ من روع الشعب الذى عرف ما بدر من بونابرت فى يافا» .

وبعد فشل حصار عكا، عاد بونابرت أدراجه والطاعون والجوع والعطش يحصدون من رجاله المئات . ولكن البطش لم يتوقف : «حتى يعاقب بونابرت سكان هذه المنطقة على الاستقبال السيئ الذى قابلونا به فى طريقنا الى عكا، أرسل بعض الجند : فانتشروا فى كل القرى، وجعلوا كل السكان يهربون، وأخذوا منهم كل حيواناتهم، وأحرقوا كل مساكنهم . وبعد فترة وجيزة، أصبحت هذه المنطقة الجميلة صورة للخراب . استطاع بونابرت، بانتقامه هذا من السكان، أن يحرم عدونا من كل موارده، في حاله ما إذا فكر فى متابعتنا ... وفى يافا، بقى الجيش ثلاثة أيام لينتهى من تدمير المدينة ، وتحطيم كل التحصينات».

قابل بعض زملاء مراسلنا من الضباط ديرا فى طريقهم فتوقفوا وهددوا الكهنة، فأعطاهم هؤلاء المحاصرون الطعام الخاص بهم . ودعا الضباط كبير الكهنة الى الأكل معهم : «وبسرعة أثر نبيد قبرص الذى كنا نشرب منه الكثير على عقولنا ، وذكرنا بحماسنا الجميل للحرية. ذلك الشعور النبيل بالاستقلال. أخذ كل منا يتخيل الحكومة المثلى لإسعاد الشعوب. ولكن كبير الكهنة أيضا كان قد تأثر بالنبيذ وأراد أن يعبر عن رأيه هو أيضا فأخذ يدافع عن الدين. أثارنا كلامه فاندفعنا نحوه وكأننا الموج الهائج ، ونحن ننعته بأقذر الحماقات»... وهكذا انتهى درس التنوير الوحيد الذى قابلناه ، ولم يكن أكثر من حماقات سكارى .

كان كل من «فيفان دينون» و«فرانسوا برنوابيه» من المقربين جدا إلى بونابرت.. ولذا فقد اصطحباه عندما سافر خلسة من مصر ولكن كان هناك العديد من الضباط الذين بقوا مع الجيش ممن نشروا مذكراتهم ، نقرأ منها ما نشر أخيرا .

★★★

«مارى - جوزيف مـواريـى» :
«مذكرات عن الحملة على مصر»

«مارى جوزيف مواريى» نقيب فى الجيش الفرنسى، شارك فى غزو مصر واحتلالها وكتب مذكراته عن تلك الأعوام الثلاثة ، وكانت تلك المذكرات معدة للنشر فور عودته ، ولكن المشروع فشل، إلى أن حصلت إحدى الدور أخيرا على حق نشرها(٦).

و«مواريى» من الجند المحترفين ، ويفهم من كلامه أنه شارك فى عديد من حروب الثورة الفرنسية فى أوربا : إنه ، بالنسبة لنا، نموذج ممتاز لضابط جيش الثورة ، ولم تكن الحملة على مصر، بالنسبة له ، إلا حربا وسط حروبه الأخرى، لا تختلف إلا من حيث تغيير القارة. وقد نجد فى مذكراته ، إذن ، ما لم نجده فى كتاب الرحالة الفنان «فيفان دينون»، الذى لم يحضر إلى مصر إلا لأسباب فنية : إن «مواريى» ابن الثورة الذى يحارب فى جيش ينشر مبادئها ويموت ليدافع عنها . هكذا تقول الأسطورة على الأقل ، ولابد أن يشعر القارىء بنوع من التشويق فى قراءة مذكرات مثل هذا البطل ... ترى ماذا نجده يقول؟



يحكى «مواريى» أولا خيبة أمل أفراد الجيش فى جزيرة مالطة ، لما وجدوه ، أو بالأصح ، لما لم يجدوه هناك ؛ فيقول : «.. فحولنا آمالنا نحو مصر : أخذ خيالنا، الذى تغذيه ذكريات التاريخ ، يرى فى كل مصرية، مفاتن كليوباترا وإغرائها كليهما . ولكن وصولنا إلى مصر، وحياتنا فيها، قد بددا ذلك الوهم الجميل ، فأخذنا نتحسر على شواطىء (أنهار إيطاليا وألمانيا) فى أوربا» . نلاحظ أولا أن الأحلام لم تكن غير أحلام متعة ليس إلا ، وأنها لا تترك شيئا للثورة ومبادئها ، أو للحضارة الغربية وسموها. ونلاحظ ، ثانيا، أن هذا الضابط يتمتع بثقافة تتيح له الحلم بكليوباترا كما يراها التراث الكلاسيكى ، غانية تتلاعب بحواس الرجال ، وليست ملكة كادت تهزم روما . وتتوالى الأحلام : «ياللفرحة! سنرى الأرض العتيقة ، مهد العلوم والفنون ! سنجد تلك الوديان حيث

كان بنو إسرائيل يذهبون بغنمهم ؛ سنرى تلك المبانى السرمدية ، رمز قوة الفراعنة ، تلك الأهرامات، والمسلات ، وحطام المعابد القديمة ، تلك المدن والأماكن الشهيرة التى رأت انتصارات المقدونيين والرومان ، والمسلمين وأقدس ملوكنا ! (....) ، إننا نتشوق للتفوق (فى مصر) على الأبطال الوثنيين، والانتقام لدم المسيحيين أجدادنا». نلاحظ، طبعا ، مقدار ثقافة هذا الضابط التاريخية ، وارتباط مصر، فى ذهنه ، بتاريخ العهد القديم أولا ، وبالحروب الصليبية ثانيا : ذكرى هزيمة الملك «القديس» لويس التاسع فى المنصورة . ونلاحظ ، أيضا ،كيف أنه لا يرى فى الحملة إلا فرصة للانتقام من المصريين والمسلمين : ألا يذكرنا ذلك «بشاتوبريان» ؟. كل الأحلام هنا أحلام مجد حربى فقط ، وما يصاحبه من سبايا حسان .

ويسترسل «موارييى» فى آماله : « كان أملنا أن نعيد إليها الحضارة، وحكم العلوم والآداب ، أن نعيد إليها الرخاء والخصوبة والسعادة ... ستعوضنا هذه المستعمرة الجديدة عما فقدناه بسبب الدهاء الإنجليزى، الذى سلبنا ممتلكاتنا فى العالم الجديد (أمريكا). من يستطيع التعبير عن أوهامنا اللطيفة التى كانت تشغل همومنا فى هذه اللحظة ، والتى كنا كثيرا ما نتحدث عنها فى لقاءاتنا؟».

إن الأحلام فى مفارقة غريبة ، بين الحقيقة، وهى استعادة بعض النفوذ الفرنسى على مستعمرات جديدة ، وبين خيالات فلسفة التنوير فى تصدير الحضارة الغربية إلى البلاد التى يرونها متخلفة، لإيجاد

سبب أخلاقىٌ للغزو الاستعمارى. ولكن ، أنلاحظ مرة أخرى أن الثورة ومبادئها لم تذكر فى تلك المشروعات البناءة بتاتا؟.

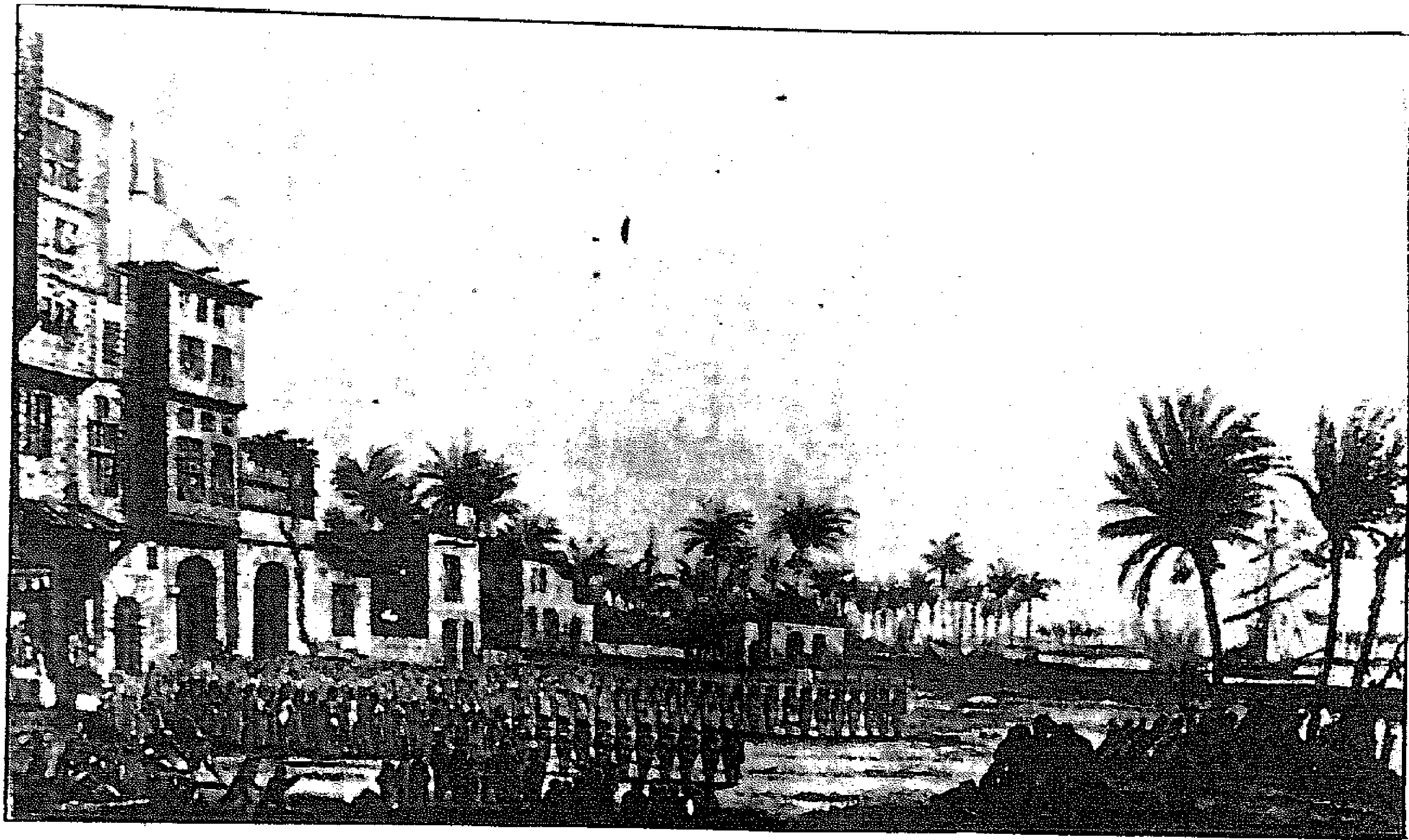
ثم ، كان الهجوم على الإسكندرية: «كان السكندريون الذين قاومونا ينتظرون انتقاما رهيبا ، انتقاما كانوا يستحقونه. لقد كانوا يعتقدون أن مدينتهم التى استولينا عليها ستتحول إلى بركة من الدماء وحريق كبير، كما هى الحال فى قوانين الحرب. فكم دهشوا، بل أعجبوا بنا، عندما رأونا وكلنا مودة، نتمتع بتلك الإنسانية الهادئة التى قالت عنها بعض الدول الأخرى إنها تعوزنا . لقد احترمنا دينهم ، على الرغم مما قيل لهم بأنه لا دين لنا؛ وحمينا الأشخاص والممتلكات؛ كل شىء جعل هذا الشعب المرعوب والمخدوع يطمئن ، خاصة عندما استمع إلى بيان الجنرال بونابرت».. وما العجب فى ذلك ، وما الذى كان ينتظر من شعب هزم بعد أن قاوم بقدر استطاعته كى يبقى حرا؟ إن أوهام الفرنسيين لاحد لها، و«مواريى» يجهل مثلا رد الفعل ، عندما ذبح الجند الفرنسيون كل النساء والشيوخ والأطفال الذين احتموا بالمسجد ، أثناء الدفاع عن المدينة، وقد ذكر الحادثة ضابط آخر قرأ «شاتوبريان» مذكراته كما أسلفنا. وسنقابل أوهاما كثيرة من تلك، عن حب المصريين واحترامهم للفرنسيين إلى أن جاءت مقاومة السيد كريم، وثورتا القاهرة مفاجأة تامة لهم. أما عن تأثير بيان بونابرت ، فما هو ، أيضا، إلا جزء من تهويمات النرجسية الخاصة بالشوفينية الفرنسية آنذاك.

ويصف «مواريى» ما رآه بعد المعركة: «لم تعد مدينة الاسكندرية إلا حطاما لمدينة كانت مشهورة ومزدهرة، ولم نر فيها إلا رذائل شعب أبله

مستعبد، سرعان ما أدركنا استحالة تحضره ، وعودته إلى شهرته السابقة. هذا الفتح الأخير (الغزو الفرنسى) لم يساو فى نظرنا قلائل الرجال الذين كلفنا إياهم». قد نتسائل عن معنى «رذائل شعب أبله ومستعبد»؛ ولكن الجملة بليغة من حيث شرح عقلية الضابط فى ذلك الغزو، وسيطرة الأفكار المسبقة على تفكيرهم. ونلاحظ انتهاء مشروع «تحضير» المصريين بسرعة فائقة ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون أن تعود مصر إلى أمجادها الفرعونية ، تحت إمرتهم، وبصرف النظر عما حدث لها منـــذ قرون عديدة . ثم نلاحـظ الضيق الذى لازم مشاعر رجال الجيش، وكان من أهم أسباب فشل الحملة، ما كان يعانى منه الرجال فى بلد غريب عليهم كلية؛ إنهم لا يجدون فيه ما تعودوا أن يجدوه فى البلاد الأوربية التى سبق أن فتحوها - مثل ألمانيا وإيطاليا - من متع.

ثم ذهب «مواريى» مع فرقته إلى رشيد : «مات جند كثيرون من العطش ، ومات آخرون لأنهم شربوا - دون تمهل - المياه المالحة التى قابلناها (ونحن فى الطريق إلى رشيد عبر الصحراء) ،...، مدينة رشيد تبدو فى غاية الجمال وممتعة للغاية لمن عاش بضعة أشهر فى مصر، ولكنها أكدت لنا الشعور السيىء الذى حالفنا منذ وصولنا إلى هذا البلد». نراه يتجه، بعد ذلك ، إلى القاهرة مع فرقته فيقول:

«وفى الرحمانية ، وعدنا القائد العام بعودة سريعة إلى الوطن ،...، وقد جعلنا هذا الوعد ننسى ما قاسيناه فى مصر، وأخذنا نتحمل بصبر



،مشهد رشيد، (نلاحظ عدد الفرنسيين المستعمرين)

مايستجد من إرهاق» . ثم استمرت المسيرة نحو القاهرة عبر الدلتا، والرجال سعداء بالوعد الكاذب الذى وعدهم إياه القائد العام : «حينئذ، رأينا كيف يتعذب الضباط أكثر من الجند ، لأن الجند كانوا يحصلون على الأكل بالنهب والعنف، مما يحرم الضباط من فرصة شراء أى شيء.. فبينما كان الجند يأكلون حماما ودجاجا وأشياء أخرى مسروقة، يكتفي الضباط، مجبرين، بوجبة مقززة وغير كافية من الفول لعدة أيام.. لم يمر علينا من قبل مثل هذا القحط ولا مثل هذا التعب : فالسير الإجبارى على رمال حارقة ، دون نبيذ أو خبز أو أى أكل مغذ ، والسهر ليلا وسط أعداء همهم الوحيد هو مفاجأتنا، كل ذلك دون ساعة واحدة من النوم أو الراحة ... ألم تكن كل تلك المصائب كفيلة بهدم عزيمتنا وصدنا؟ ولذا فقد شاهدنا العديد من العسكريين يسقطون أمواتا من الجوع والإجهاد ، وآخرين كثيرين ينتحرون من شدة اليأس . وقد رأينا أخوين ارتبطا ببعضهما وألقيا بنفسيهما فى النيل».

ثم يحكي «مواريي» حياته في القاهرة : «كان ركوب الحمير هو الشئ الوحيد الذى يعطينا بعضا من الترفيه، وكنا نستعملها للجرى فى شوارع المدينة أو لزيارة الضواحى. تستطيع تأجير الحمير من أى مكان وبسعر ضئيل جدا، إنهم يخبون فى منتهى السرعة، وكذلك سائقوهم...».

«أما بالنسبة للنساء ، فلم نجد فى القاهرة الموارد التى قدمتها لنا مدن (إيطاليا والنمسا). ليس من الممكن ، ولا حتى من الحكمة، أن ترى

نساء الأثرياء، لأنهن دائما سجينات وتحت السيطرة الرهيبة لطغاة غيورين . هناك بعض بيوت الدعارة؛ ولكن القبح والقذارة واللغة غير المفهومة للعاهرات ، كانت تثير فينا الغثيان وتجعل أكثر الرجال فجرا يهربون مذعورين»: هكذا كان الضباط المثقفون يقضون أوقاتهم إذن، بين جرى الحمير، والبحث عن النساء.. بلا مخالطة تذكر مع أهل البلد، مما كان يمكن أن يتيح فرصة حوار يتعلم منه الشعب المصرى مبادىء الثورة الشهيرة ؛ هذا - بالطبع - إن كان فى نية الضباط تعليم أى شخص أى شىء . ولكننا سنرى ضابطنا هذا يتعرف فيما بعد على جارية شركسية ، ويحاول تهريبها معه إلى فرنسا عند رحيله.

لكن الضيق كان يطحن نفسية الجميع؛ ويقول «مواريى» : « لم نكن نخشى التعبير عن ضيقنا، وكنت تسمعنا نقول إن الجنون هو الذى خطط لمشروع هذه الحملة ، والتهور هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذها . وكان البعض الآخر يقول ، بل إن طموح القائد هو الذى أحضرنا إلى هنا ، لقد جاء ليبنى لنفسه عرشا من عرقنا ودمائنا». أما بالنسبة للبدو، فقد كان تعليق «مواريى» طريفا : «لم يكونوا يهاجموننا كالشجعان، ولكن كانوا يفاجئوننا كالخونة ، ويذبحون الفرق التى نشرناها فى القرى. وحتى على النيل ، وتحولوا إلى قراصنة ليحاربونا . وقد كانت تلك الحرب المتقطعة أكثر ضررا علينا من حرب جسورة ونظامية ، فقد كلفتنا الكثير من الجند الشجعان؛ وإذا بخبر موت خمسة عشر من رجالنا فى إحدى القرى، يصل إلينا فى السادس والعشرين من

أغسطس. فصدر الأمر بحرق تلك القرية وبالانتقام الشرس منها. ولكننا وجدنا القرية خاوية: فسكانها كلهم كانوا يعلمون بقدومنا، فهربوا؛ فاضطررنا إلى الاكتفاء بتخريبها بالنار. ولكن ثورة الجند وجدت منفذا لها مع عجوز وزوجته الكهل، وجدت ملابس فرنسية ملطخة بالدماء عندهما . كذلك وجد الجند حماماً ، ومنه الكثير فى مصر، وكانت هذه هى الغنيمة الوحيدة التى حصلنا عليها من تلك القرية البائسة». الجيش يتحرك إذن ، من أجل الانتقام أولا، ومن أجل الغنيمة ثانيا . ولو أننا تذكرنا ما قاله «مواريى» نفسه عن الانتقام لأجداده الصليبيين لفهمنا روح هذا الجيش الذى لا يبغى إلا عنفا. ثم نذكر أيضا ما قاله عن إعجاب السكندريين بسماحة الفرنسيين، التى لا نرى لها أى أثر هنا، وهم يهاجمون قوما وينتقمون منهم لدفاعهم عن حريتهم، بعد أن استعمرهم جيش مغتصب؛ ثم سلوك هذا الجيش الذى لا يعرف إلا الحرب النظامية، حيث تتحرك الفرق حسب قواعد صارمة، وكأنها تلعب الشطرنج ، بينما الحرب الشعبية للتحرير تختلف فى قوانينها وفنونها عن حرب بين حكومتين . وسيقابل الإمبراطور نابليون فيما بعد هذا النوع من الحروب عندما ستثور عليه شعوب البلاد المستعمرة فى أوربا، وأشهرها حروب أسبانيا وروسيا، وكانت الثورات الشعبية مندلعة أيضا فى النمسا وألمانيا. وسيقابلها نابليون، العبقرية العسكرية الفذة بالاندهاش نفسه ، للجوئها إلى حرب العصابات الفتاكة ، مثل ما فعله البدو فى مصر . ويفهم مراد بك هذا القانون ؛ ولذا كانت له النصرة فى

صعيد مصر ، حيث لم يستطع الجنرال «ديسى» هزيمته لأنه لم يفلح يوما فى مواجهته فى معركة نظامية تكون الغلبة فيها له ولمدافعه.

ويستمر «مواريي» في حديثه : «كانت الشكوك دائمة، لسبب واحد، وهو إيمانا بأن شقاءنا وتضحياتنا لا عائد من ورائها ، ولا فائدة لها لمجد وطننا الحبيب وسعادته». كانت لتلك الروح الانهزامية أسباب كثيرة، أهمها المقاومة المستمرة فى الأقاليم ، وقد وصلت أنباؤها إلى «مواريي» وفرقته «هذه الأنباء جعلتنا نتوقف للتفكير بجدية، فقد ظن كثير منا أن مصر كلها ستقوم ضدنا ، وتهجم علينا في سبيل سحقنا تحت وطأة حجمها الهائل . كانت تلك الفكـرة جديرة بإرعاب أى جيش غير جيشنا ،....، فالحقيقة أن حياتنا البائسة التى عشناها فى هذه الأجواء، جعلتنا لا نبالى بالحياة أو الموت » ... «كان البدو فى منطقة دمياط يجعلوننا ، دائما، نعيش وكأننا على شوك ،....، وكان القديس لويس قد نزل فيها في الرابع من يونيو سنــة ١٢٤٩ ، عندما قام بأول حملة على الأرض المقدسة . ووقع أسيرا فى المنصورة فى العام التالى»: ذكرى لا تفارق الضابط «مواريي» ، وكأنها تذكرة دائما بضرورة الانتقام لتلك الهزيمة القديمة قدم القرون السالفة كم من الضابط لم يحلم إلا بهذا الانتقام فى جيش الثورة الإنسانية الأخوية؟. وتصلهم أخبار ثورة القاهرة الأولى وهم فى دمياط، فيصفها «مواريي» بالوحشية وتعليقه وحده يثبت إلى أى مدى كان الفرنسيون غافلين عن حقيقة مشاعر المصريين : «كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التى أخمدنا بها مثيرى الشغب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن حكمنا كان

خاطئا، لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة ،...، ولم تنته تلك الزوبعة، إلا وقامت زوبعة أخرى فى مصر السفلى . فقد قام (الإنجليز والأتراك) بنشر الكثير من فرمانات الباب العالى المزيفة ، كان يقال فيها إننا حضرنا إلى مصر على غير إرادة السلطان» . وهنا، علينا أن نشرح ما قد يبدو سذاجة من قبل «مواريى»؛ فالحقيقة أن الجيش الفرنسى كان يجهل أن السلطان لم يوافق يوما على قيام الحملة ضد مماليك مصر ، كما كان يزعم بونابرت . ومن عجائب سياسة بونابرت أنه كان يكرر تلك الأكذوبة ، إلى أن أرسل السلطان جيشا ليحاربه، فانفضح الأمر.

ولن نعود إلى مشاكل «مواريى» التى لا حصر لها ؛ فقد ظهر الطاعون بعد أن أصيب الجيش بالدوسنتاريا ، والتراكوما التى تسببت فى كف بصر كثير من الجند . يقول ضابطنا : «... فبدأنا نفهم مدى المخاطر التى تحاصرنا ، واستحالة العودة إلى الوطن، أو الاستمرار فى امتلاك هذه الأرض ، إلا إذا أرسلت لنا فرنسا مزيدا من المؤن» . ولكن كيف والإنجليز يحاصرون مصر بعد أن دمروا الأسطول الفرنسى فى «أبو قير».

ويسجل «مواريى» بفخر شديد أقوال بونابرت للمصريين بعد ثورة القاهرة – وقد قال القائد العام للمشايخ مايلى : «... بلغوا الشعب وعرفوه أنه منذ بدء الخليقة ، كان مكتوبا ، أن بعد تحطيمى لأعداء الاسلام، وبعد تكسيرى للصلبان سأحضر من أقاصى الغرب لأتمم المهمة التى وكلت إلىّ . أرشدوا الشعب إلى أكثر من عشرين فقرة فى كتاب القرآن المقدس ، تقول إن ما حدث كان مكتوبا؛ وكذلك أن ما

سيحدث كان مشروحا . فليعرف إذن من يلعننا ولا يخشى أسلحتنا، أن عليه تغيير مشاعره، لأنه إذا رفع إلى السماء دعوات ضدنا فهو يتمنى هلاكه . فليبارك المؤمنون الحقيقيون انتصار أسلحتنا».

«وأستطيع أنا أن أحاسب كل واحد منكم على مشاعره الدفينة فى قلبه ، لأننى عليم بكل شىء ، حتى مالم تبوحوا به لأحد. ولكن سيجىء اليوم الذى يرى فيه العالم أن كل المجهودات البشرية لاتستطيع شيئاً ضدى».

كانت تلك هى دروس الديمقراطيـة وتعليـم مبادىء الثورة التى كان يلقنها بونابرت لمصر . وهى طبعا تتلخص فى كلمتين .. تأليهه، والرعب منه . ويعلق «مواريى» على هذا الكلام قائلا : «أما منجمو مصر، فكانوا إما ضحية هذا الاسلوب العجيـب، أو أنهـم أخذوا، سـرا، بعـض الرشاوى فهدأوا من ثـورة الشعـب (...) وتنبـأوا بطريقـة غامضـة، أن السلطان الفرنسـى سيتحـول إلى الدين الإسلامـى ، وسيلـبس العمامـة، ويجعل الجيـش كلـه يتـبع قانون محمـد» . إن رجال الدين فى عرف أتباع فلسفة التنوير، خاصة إذا ما كان أتباع هذا الدين من الهنود الحمر أو المصريين ، يلقبون «بالمنجمين» أى الدجالين . ولا يفطن «مواريى» إلى أن الثورة، بعـد دحـرها ، لـم تكـن تحتاج إلى من يهدىء من عنفها ، بعد القمع الرهيـب الذى ذهـب ضحيتـه آلاف الثائـرين لحريتهـم ، كما أن بونابرت قد أمر المشايخ ، بعد تهديدهـم ، بكبح جماح الثـورة ، ومـا فخـر «مواريـى» بلباقـة

القائد العـــام ، إلا مثل يعرفنا بما كان يراه أو يظنه الضباط المثقفون لجيش الحملة .

وتوجه «مواريى» مع حملة بونابرت على ما كان يسمى آنذاك بسوريا؛ وكان على الجيش أن يسير مرة أخرى فى الصحراء . فيقول كاتبنا : «ولكن المجاعة ازدادت شيئا فشيئا واضطررنا إلى أكل الجمال، والخيل وكل ماكنا نجده ، بينما كان المماليك تحت أعيننا ينعمون بموكب رائع من المؤن». ثم يصف «مواريى» ماحدث لهم بسبب الطاعون الذى أهلك ثلثى الفرقة التى كان ينتمى إليها .

وينقل إلينا «مواريى» التقارير الكاذبة التى سيرسلها بونابرت إلى حكومة «الإدارة» عن انتصاراته، وهو شاهد عيان على الهزيمة ، مما يثير غضبه واستياءه. يقول بونابرت مثلا : «بعد أن نقلنا الحرب إلى قلب سوريا ومعنا حفنة من الجند ، أخذنا أربعين من مدفعية الميدان، وخمسين من العلماء، وأسرنا ستة آلاف أسير، ومحونا تحصينات غزة ويافا وحيفا وعكا، ونحن نعود الآن إلى مصر ..» . يرسل بونابرت هذا الكلام إلى الحكومة فى فرنسا، و«مواريى»، والجيش كله، يعرف أن الحملة على الشام قد فشلت بفشل حصار عكا . وبدأت مرة أخرى العودة إلى مصر عبر الصحراء : «لم يكن بإمكاننا الشك أكثر من ذلك ، فعلينا الآن أن نعود أدراجنا فى هذه الصحراء البشعة ، حيث كان عذابنا كبيرا ،...، لم يعد مرضى الطاعون، والجرحى ، وكثير من الجند يتحملون عذاب العطش ، فكانت نهاية حياتهم فى هذه الصحراء

الفظيعة» كانت عودة قاسية ، حتى شبه اثنان من «المؤرخين الجدد» تلك العودة فى حر الصحراء ، بما لقيه الجيش الفرنسى من عذاب فى ثلوج روسيا سنة ١٨١٢ ، بعد هزيمته فى موسكو وعلى الرغم من عذاب الجيش الفرنسى إلا أن تخريبه لم يتوقف . فيقول «مواريى» : «قام الجيش بنسف كل التحصينات ، وبحرق القرى وكل حقول الغلة التى وجدها فى طريقه ، حتى يؤخر مسيرة أعدائه الذين يطاردونه؛ ولم يكن ذلك إلا النتيجة المؤسفة للحرب». غريب أن يقول جندى مخضرم مثل «مواريى» هذا التعليق : أتراه لم يقابل مثل تلك القسوة من قبل؟ . ويأمر بونابرت مدينة القاهرة بالاحتفال بعودته من الشام. وعلى الرغم من كل ما قاله «مواريى» من قبل، نراه يؤكد: «كان دخول القائد العام عند عودته إلى القاهرة سبب فرحة كبيرة للشعب (...). ولكن علينا أن نعترف أننا لم ندع الشعب المصرى يعرف إلا الأخبار التى كانت فى صالحنا، ومنها مثلا أننا قضينا كلية على عكا، وخربنا كل ضواحيها، وقتلنا كل الجند الذين كانوا يدافعون عنها، وأننا لم نترك سوريا إلا لأن الأقدار تنادينا إلى مصر ، إلى آخره . ولابد لك أن تعاشر هذا الشعب، لتتخيل مقدار جهله وسذاجته . وكانت النتيجة أن الدواوين والمشايخ وجهوا نداء إلى الرعية يطلبون منهم أن يساعدوا مشروعات هذا الرجل العظيم الذى كان، على حد قولهم، يقرأ القرآن كل يوم، لأنه سيتحول إلى الدين الإسلامى».

مرة أخرى، لا يرى «مواريى» – مثله فى ذلك مثل باقى الفرنسيين – الشعب المصرى إلا كما يريد أن يراه هو. وهو يظن أن أوامر بونابرت

التى نفذها المشايخ المهزومون وهى ردود فعل تلقائية لشعب جاهل وساذج. والساذج هنا ، بلاشك، ليس الشعب الذى يصدق إسلام بونابرت، وإنما «مواريى» الذى ظن أن الشعب من السذاجة بحيث يصدق تلك الخدعة. وسنرى فيما بعد إلى أى مدى كانت رؤيته مجرد تهويمات صلف المنتصر وغروره الأعمى.

لا يكف «مواريى» وزملاؤه عن الحلم بترك مصر. ويعترف ضابطنا بحقائق مؤلمة قائلا: « قامت فتنة فى الاسكندرية هدفها تسليم المكان إلى الإنجليز، فكانت، علاوة على شكنا فى الانتصار، وازدرائنا وتعبنا، وأشياء أخرى كثيرة تجعلنا ، نحن الجيش، نريد ترك مصر» ... أليست تلك الشكوى مكررة وسبق أن قالها منذ وصوله إلى مصر؟

وينقل إلينا «مواريى» حديثا دار، على حد قوله ، بين الشيوخ وبونابرت، بعد عودته من معركة «أبو قير» الثانية ، التى انتصر فيها على الأتراك . ولنذكر أن «مواريى» - مثله فى ذلك مثل أفراد الجيش كلهم - لم يكن يتحدث العربية، وإليكم هذا الحوار:

«- سيدى الجنرال، لقد وعدت أن تصبح مسلما .

- أنا لم أعد بشىء . وعليكم أن تعرفوا أننى مسلم وقد أكون أكثر إسلاما منكم؛ وانكم إن لم تتصرفوا بطريقة صحيحة ، وأحسن مما تصرفتم حتى الآن، فسأعود إلى المسيحية، لأعاقبكم» : لم يكن «مواريى» من كبار الضباط حتى يحضر هذا الحديث المزعوم؛ ومع ذلك فهو يؤكد أن المشايخ اقتنعوا بكلام القائد العام.

وسافر بونابرت ؛ وإليكم تعليق «مواريي» على ذلك الحدث المفجع: «يختلف طبع كليبر المعروف، بعض الشيء عن طبع بونابرت، وجعلنا ذلك نأمل فى أنه سيفاوض أعداءنا ، ويعيدنا إلى وطننا . بونابرت كان لا يعمل إلا لحسابه الخاص، ولم يكن يهتم إلا بتقدمه على طريق النجاح؛ ولكن «كليبر» لم يكن يفكر في نفسه ، ولا يهتم إلا براحة جنده وسعادتهم .. لو أن بونابرت استطاع الحصول على الحكم المطلق في وطنه الجديد، لمكث في مصر، ونحن ندفع له الثمن من دمائنا . إنه مثل قيصر، يفضل أن يكون الأول في القاهرة على أن يكون الثاني في باريس ، ... ، أما «كليبر» فلم تكن له أية مصلحــة خاصة لإبقائنا فى بلد ، عرف بفراسته أننا لن نستطيع أبداً البقاء فيه ..».

لن نعجب بعد قراءة هذا الكلام لحالة التذمر التى اجتاحت الجيش الفرنسى آنذاك ؛ تذمر وصل إلى حد جعل «كليبر» يحل فرقة كاملة ، على الرغم من قسوة القرار.فعل ذلك عندما تمرد المدافعون عن حصن العريش، حتى أنهم سلموا الحصن للأتراك.

ومرة أخرى، نعرف رأى «مواريي» في الشعب المصرى ، وهو يقول دون أية مواربة : «لم يكن من الممكن إخفاء أنباء مفاوضاتنا مع الوزير العثمانى عن الشعب المصرى . وحتى نمنع أى رد فعل متطرف ، لأن هذا الشعب مثله مثل شعب إيطاليا ، يتوجه دوما نحو المنتصر...»؛ ويفوت «مواريي» أن هذا شأن أى شعب فى بلد هزم جيشه ، سواء كان ذلك فى إيطاليا، أو مصر، أو حتى فرنسا . إذا هزم بلد وأصبح فريسة

مستعمر لا يستطيع محاربته بأسلحة متكافئة، فهو عادة ما «يتوجه» فعلا ، ولكن لأنه مجبر على الطاعة، والفارق كبير . أيا كان ، فهذا الكلام يدلنا على حقيقة مشاعر الشعب الإيطالى ..

إن كل صفحات هذه المذكرات تحكى على الدوام ، كل ما كان يقوم به الجيش من نهب وسلب، كما سبق أن قرأنا فى كتاب «فيفان دينون»؛ ومع ذلك «فمواريى» يقص علينا كيف وجه «كليبر» خطابا إلى المصريين، بعد أن قرر الرحيل عن مصر ، بعد مفاوضات العريش؛ يقول فيه : «إننا لا نترك أى ذكريات عنف ضدكم..»، وهذا الكلام يثبت لنا إلى أى مدى يمكن للمغالطة أن تصل . وهل نعجب بعد أن عرفنا أن «السلطان الكبير» تحول فى إدراك الفرنسيين إلى «أبى النار» (*) .

من الطريف أن «مواريى» يحكى ظروف العودة المنتصرة للجيش الفرنسى بعد معركة هليوبوليس (أى عين شمس) وكيف استقبلتهم مدينة القاهرة بالمدافع ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون مواكب الفرح! يصف «مواريى» ما حدث بعد ذلك باقتضاب شديد : «كنا أحيانا نضرب المدينة بالمدافع أو نستولي على بعض المنازل فنحرقها فى الحال» .

«واقتحمنا حى بولاق الوقح البائس . وقد دافع عن نفسه بإصرار، وبعد ساعات من القتال ، كسرنا الأبواب ودخلنا بالقوة. كم دفع هذا الحى المسكين ثمنا لفتنته الطائشة! رأيت السكان وقد ذبحوا عن

---

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

آخرهم، بينما المنازل تحرق بعد أن نهبت على أيدينا ولم يعد ممكنا لمن رأى بولاق من قبل أن يتعرف عليها بعد تلك الأفعال المحزنة القاسية، وما ذلك إلا نتائج حق الحرب البشع. كأن جهنم قد انتقلت إلى المدينة».

نذكر القارئ أن صاحب هذه الكلمات جندى محترف، حارب كثيرا من قبل ومن البديهى أن ما رآه هنا يفوق ، بكثير ما تعود عليه في الماضى. ولكن كلمة «بولاق الوقح البائس» تلفت نظرنا ، فالازدراء موجود ، حتى وإن امتزج بالشفقة.

ثم ننتقل إلى الصفحات التى يحكى فيها «مواريى» كيف بدأ «كليبر» يستعد لزيارة الدلتا : «بدأت الشائعات، وقيل إن كليبر سيفعل مثل بونابرت، وأنه سيهرب إلى فرنسا، ويأخذ معه غنائم عديدة ماهى إلا نتاج أعمالنا وتعبنا» .. ولكن «كليبر» يُقتل: «كان بيننا عقول مضللة ، أو سيئة النية ، قالت إن كل تلك الاحتفالات بدفن «كليبر» ماهى إلا أكذوبة، لأن الجنرال قد رحل إلى فرنسا ... وأن نعشه خال ، ولكنه دفن في حفل مهيب لإلغاء خبر سفره» . إنها دلالة على الحالة النفسية لجيش فقد كل مقومات الثقة في قواده ، ثم نقرأ بيان الجنرال «عبد الله مينو» إلى جنده:

«وصلتنى شكاوى بالغة الخطورة ،....، أيها الجند ، كونوا كرماء مع المصريين، ولكن ماذا أقول . إن المصريين اليوم هم الفرنسيون؛ إنهم إخوانكم . فاعرفوا كيف تحترمون الشيخوخة ؛ كيف تحترمون النساء؛ كونوا عادلين ..» . كلمات مقتضبة، لها دلالتها . وتعرفنا كيف يعامل

الجند الشعب نساءً وشيوخا، وتشرح لنا كيف ستكون الحال لو أن الجيش استمر هكذا في تلقين مبادئ الثورة الانسانية للمصريين.

وكلمات «مينو» غاية في البلاغة: إنه مقتنع تماماً أن مصر أصبحت فرنسية، وأن المشروع الاستيطانى فى طريقه إلى التنفيذ، بعد أن سافر بونابرت بسبب فشل المشروع، وتأكد «كليبر» من استحالة تنفيذه، ففاوض الباب العالى على هذا الأساس. وها هو رأى «مواريى» نفسه في الموضوع: «لو أن القدر أراد لنا مستوطنة دائمة فى مصر، لما كان لأحد أن يجعلها تزدهر أكثر منا ولا أن يقويها أكثر منا؛ ولكن يبدو أن هذه المنطقة التعسة، التى كانت غاية فى الثراء والتنوير ، محكوم عليها بالبربرية لأجل طويل ، محكوم عليها بالبؤس والخرافات المؤسفــــة». ونرد على «مواريى» بقول المفكر الفرنسى الكبير «ألكســى دى توكفــيل»، فى تقريرة عن استعمار الجزائر ، فى عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا ... لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤساء وأكثر فوضى، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٧). ولكن ألا نفهم من كلام «مواريى» خيبة الأمل أمام فشل المشروع وازدرائه الكاذب لما لا يستطيع أن يصل إليه؟.

يؤكد هذا الشرح ما سينقله ضابطنا عن «مينو» بعد ذلك، بما فيه من تناقض وأسف : «تذكــروا أننــى دائــما مسئــول عــن الحفاظ على مصالح الجمهورية (الفرنسية) ، ومصالح الجيش ومصالح شعب مصر الذى أتولى حكومته . تذكروا أنه يجب علىّ من أجل الوصول إلى

هذا الهدف، أن أنتزع من مصر كل مواردها المادية التى تستطيع أن تزودنا بها، وأن أعمــل ، فى الوقت نفسه، على إسعاد الشعب الذى يسكنها » . ونعجب للاعتراف بما كانوا يسمونه «سياسة الليمونة المعصورة» ، مع ضرورة إسعاد شعب «تنتزع» موارده كلها من أجل جيش بلد آخر، وكان من حق الرجـل أن يشكـو ، فالمعادلة حقا مستحيلة .

ثم تتوالى الأحداث ، ويحاصر ما تبقى من الجيش الفرنسي في الاسكندرية ، حيث نجد فى خطاب التاسع من يوليو سنة ١٨٠١ ، وصفا لحالة البؤس ، والمجاعة والأمراض التي يعانى منها الجميع . ثم يتم أخيرا ترحيل الجيش ، فيقول «مواريى» : «تركنا ونحن فى أعظم فرحة ، هذه المنطقة ، المضرة للفرنسيين القدامى والفرنسيين المعاصرين، هذه المنطقة الموبوءة بكل آفات البشريــة ، من الطــاعون إلى العمى...» (٨).

ونلاحظ مرة أخرى أن صورة «الفرنسيين القدامى»، أى الصليبيين لا تفارق، حتى آخر لحظة ، مخيلة «مواريى» ، أحد ضباط الحملة المخضرمين، .

***

وتنتهى مذكرات «مواريى» مع رحيله إلى فرنسا؛ وتثبت لنا هذه المذكرات ، أن ضابطا ممن كانوا يتمتعون بثقافة تاريخية وأدبية لا بأس بها فى ذلك العصر، لم يفكر لحظة واحدة فى مخالطة المصريين و«تنويرهم»، على حد قول المستعمرين، ولا يكن لهم إلا الاحتقار

والازدراء، كأى غاز متعجرف ، فى ذلك العصر وفي كل العصور. ولن نراه يتبادل الحديث إلا مع جارية شركسية، اتصلت به وحاولت الفرار معه، فالنقيب «مواريي» جندى محترف لا يفكر إلا فى الانتصارات الحربية ، والانتقام للهزيمة التى لحقت بأجداده . وكانت غالبية الجيش ، إن لم يكن كله ، على شاكلته : كانوا كلهم جندا محترفين مثله ، لم يجدوا فى مصر المتعة التى كانوا ينتظرونها فى بلد ثم فتحه ، لأن واجب البلد المهزوم ترفيه الجيش المحتل، وإشباعه قبل كل شيء ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أن المشروع الحضارى لم يجد فرصة واحدة للتنفيذ .. هذا إن كانت هناك ، أساسا، نية جادة لتنفيذه.

★★★

كليبر فى مصر

قرأنا ما كتبه أربعة من معاصرى الحملة وعرفنا أن ثلاثة منهم قد عاشوا - بالفعل - أحداثها ، ورأينا أن ذكرى هزيمة الملك لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ، والرغبة المحمومة فى محو تلك الذكرى الأليمة بانتصار جديد ينتقم للماضى السحيق ، هى التى جمعت ما بين النبيل الصليبى ، والفنان المفتون ببونابرت ومشروعه الاستعمارى ، والضابط المحترف المثقف ؛ وهى أيضا التى رسمت لهم توجهاتهم وسيطرت على كتاباتهم. ولأسباب لا علاقة لها بحقيقة الأحداث ، لم يجد القارىء فى كتبهم إلا إشارة عابرة لذلك المشروع الذى اتصفت به الحملة فيما بعد ، ولم تؤكد تلك الأسباب إلا بعد ذلك بعدة عقود .

شاهدنا أيضا معهم تلك الأحداث فى عنفها الدموى ، ولم نر ، خلاف ذلك ، إلا «حديقة صغيرة» فتنت «شاتوبريان» الذى نرجع إعجابه بها إلـى أنـه ربما لم ير - سنة ١٨٠٥ - أثرا ملموسا للفرنسيين يفخر به ، غيرها (*) .

قد يقال إن تلك الكتابات سطحية ، ترى التفاصيل دون أن تفصح عن حقيقة المشروع من ورائها ، كما خطط له كبار القادة ، وقد يقال إن تلك الكتب الأربعة ليست بأكثر من انطباعات شخصية .

* كما قرأنا فى الجزء الأول: عصر الأساطير .

ولكن ما القول عندما تعرض علينا أوامر قائد نستشف من خلالها واقع الأمر بموضوعية ؟ ولذا ، فإننا فرحنا لنشر مكاتبات كليبر وهو من أكبر كبار القادة الفرنسيين ، حتى أن بونابرت ترك له القيادة العامة عند رحيله المفاجىء ، وإن كان ضابطا صغيرا مثل «مواريي» لا يهتم إلا بحياته اليومية ، ولم نسمع منه أنه تلقى يوما أمرا غير عسكرى ، إلا أن نيات القواد قد تكذب ذلك الجهل بالنيات الحسنة للحملة ، فمن البديهى أن مكاتبات كليبر لابد أن تزيح الستار عما أراده مخططو الحملة ، فى جانبيها العسكرى والفنى . وقد ظهر فى أربعة أجزاء كتاب «كليبر فى مصر ، ١٧٩٨ - ١٨٠٠» (٩) ، يعرض فيه «هنرى لورانس» ما وجده من أوراق كليبر قبل وبعد توليه قيادة الحملة .

وكما سبق أن قرأنا الكتب الأخرى ، فإننا لن نهتم إلا بما يساعدنا على معرفة حقيقة تلك الحملة ، التى حملت رسالة حضارية ، بل وإنسانية ، لم نقابل حتى الآن ما يمكن أن يعضد وجودها قد تكون مكاتبات كليبر - نظرا لأهمية دور الرجل فى استعمار مصر - هى الفيصل فى تقييم حقيقة تلك الحملة ، التى نراها حربا استعمارية مثلها مثل حروب الثورة الأخرى فى أوربا نفسها ، وإن اختلفت معاملة الجيش لشعب يختلف عنه جنسا ودينا ولغة ، وحسب منهجنا ، ونظرا لتكرار الأوامر نفسها بعد الأحداث نفسها ، لأن السياسة فى معالجة الأمور واحدة ، فإننا لن نعرض إلا ما يبدو لنا مثاليا فى تصوير تلك السياسة ، وما كانت تقابله من صعوبات ، وما كانت تلجأ إليه من حلول لمشاكلها .

أما باقى تلك المكاتبات فمراسلات إدارية ، وأوامر تنظيمية وتحركات الضباط وتنقلات الفيالق ، ولا تعنى شيئا بالنسبة لقضيتنا .

★★★

نقابل كليبر ، أول ما نقابله ، حاكما على الإسكندرية فقد جرح فى رأسه ، إثر الهجوم على المدينة ، واستلزم علاجه بقاءه هناك ، فعينه بونابرت حاكما عليها ، كما عين «مينو» حاكما على رشيد . وكتب كليبر، بصفته حاكما ، عدة خطابات إلى بونابرت ، وإلى الجنرالات الآخرين ، كما كتب العديد من البيانات لجنده وسيساعدنا ذلك الكم الضخم من المكاتبات على تقييم حقيقة الوجود الفرنسى فى مصر ، من حيث الموقع المتميز لكاتب تلك الخطابات والبيانات .

ويكون أول بيان يلفت نظرنا ، تصويرا فجاً لحقيقة الأمور :

«العاشر من يوليو ١٧٩٨ : لقد بلغ الجنرال أن كثيرا من الفرنسيين يتبولون ويتبرزون بجوار المساجد والمقابر : ونظرا لأن هذا الأمر يجرح الاحترام الذى وعدنا به الدين الاسلامى بصفة خاصة ، فعلى القواد (أن يمنعوا حدوث مثل هذا التصرف فيما بعد)». فالأوامر شىء - وهى تصدر عادة عن فكرة سياسية بعينها ، وهى كسب ود المصريين خاصة المسلمين منهم - والحقيقة التى تنفذ شىء آخر : لا علاقة طبعا بين عقلية الجند والهدف السياسى وهو احترام دين الغالبية من سكان البلد المستعمر؛ فالجند أناس بدائيون ، لا يعرفون معنى الحضارة حتى ينشروا تعاليمها، وتلك الحادثة ، فى ذاتها ، دليل واضح على أنهم بعيدون كل البعد عن أية فكرة للتعاطف مع الشعب ، الذى قيل إنهم

حضروا ليجلبوا له الحرية والتنوير ، إن كانت تلك الفكرة قد وصلت إلى أنفار الجيش البسطاء .

فأفكار المثقفين الذين يزينون الحملة بالنيات الحسنة ، غريبة تماما على جمهور هؤلاء الجنود الجهلة ، كما سبق أن تعرفنا على أحدهم في قصة «بلزاك» الشهيرة «طبيب الأرياف» (*) .

ننتقل بعد ذلك إلى ما تبع هذا البيان من خطابات وبيانات أخرى ، نقرؤها حسب تأريخها : «الحادى عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : الجنرال المواطن ، بحارة الأسطول الذين يقودون السفن ، والذين أمر بإرسالهم إلى اليابسة ، يتسببون فى أكبر فوضى . وقد اشتكى لى قائد أبو قير منهم مر الشكوى فهم لا يكتفون بقطف الثمار ، ولكنهم يقتلعون الشجر من الجذور. ولك أن تتخيل كم يتسبب هذا التصرف فى الإضرار بنا أمام سكان من مصلحتنا مراعاتهم» ، لاحظ كلمة «مصلحتنا» ، وهى طبعا محور كل التعاملات. ومرة أخرى ، نرى أيضا التناقض بين فكرة القائد الذى يرغب فى اكتساب مودة الشعب المستعمر لغرض في نفسه، وبين جنود يعيشون الحقيقة ، وهى حقيقة جيش مستعمر ، يتصرف بحرية مطلقة ، بل وبغوغائية تامة ، في بلد مفتوح .

وتبدو هذه الحقيقة جلية ، عندما قام سكندرى بطعن طوبجى بحرى فرنسى ، ثم هرب ، فظهرت أنيات من يخطب ود الشعب : قبض فى الحال ، على ثمانى رهائن ، ثم اتسع الأمر ، وأخذت رهينة من كل حى

---

* كما أسلفنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

.. ويشرح لنا البيان التالى حقيقة أمر الجيش مع أهل البلد من خلال تلك الحادثة :

«أيها الجند ، ستتعرضون لمثل هذه الحوادث ، ما دمتم لا تنصاعون لأوامر القائد العام ولا تحترمون أملاك الأهالى ، وعاداتهم وعقيدتهم ، ونظرا لأننى ملزم بحمايتهم ، كما أننى ملزم بالسهر على أمنكم ، فقد وجدت نفسى مجبرا على إصدار الأوامر التالية ، بعد ما سمعته من تجاوزاتكم وفوضاكم :

المادة الأولى : من دخل حريم مسلم ، سيعتبر محرضا على الفوضى ، متهما بالقتل ويعاقب بالإعدام .

المادة الثانية : من تسلق سوراً لبيت مسلم ، أو لأى بيت آخر ، أيا كانت حجته ، سيعتبر لصا ، ويعاقب بالإعدام .

المادة الثالثة : من اصطاد داخل المدينة ، وأطلق نار بندقيته على الحمام ، وعرض السكان للموت أو الجرح ، كما سبق أن حدث ، سيعتبر قاتلا ، ويعاقب بالإعدام ....» ، (الخ) ..

ولم نسمع أن أحدا عوقب بعد ذلك ، وكأن الجند تحولوا ، فجأة ، بعد هذا التحذير ، إلى ملائكة ، لا يضرون أحدا ولا يستهزئون بمشاعر أحد. ولم نعرف أيا من تلك الجرائم اقترفها ذلك الطوبجى البحرى المطعون، فقتله السكندرى طعنا ، ولكن جملة كليبر «.. كما سبق أن حدث » ، تثبت أن تلك الأفعال كانت شائعة .

«الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى مينو ، قائد رشيد : من

السهل الحصول على وسائل نقل ، لإحضار مؤن إلى هنا ، لولا أننا قد نسينا أن السياسة تمنعنا من المصادرة ، وبالتالى ، فلابد من إيجاد المال الضرورى لنا». وبسبب ذلك الاحتياج ، سنراهم يتوسعون فى السياسة المضادة لرغبتهم الأولى - إن كان لها أية قيمة غير إعلامية فى واقع الأمر - ويصادرون كل ما يحتاجون إليه .

«أخذت كتب قانون ، مكتوبة بلغة البلد ، من بيت المفتى . فمن كانت معه تلك الكتب ، عليه أن يعيدها إلى قائد المنطقة. وبما أنه لا شك فى أن المصادفة البحتـــــة هى التى أوصلتها إليه ، فلن نعاقبه على هذا الشأن ...»

«المسلم الذى قال إنه سيضرب الفرنسيين ، ضرب على بطن قدميه مائة ضربة عصا بأمر الشريف كان هذا أمام فرقة فرنسية» .

على الرغم مما ورد فى البيان سالف الذكر شديد اللهجة ، الموجه إلى الجند السارقين ، إلا أن اللص الفرنسى لن يعاقب ، بينما تصادر حرية الكلمة لدرجة أن أحد المصريين يعاقب أشد عقوبة لمجرد أن تفوه بتهديد خاوى المعنى ، لا يعبر إلا عن ثورة غضب عابرة نتيجة للاستفزازات الفرنسية. ونرى الشريف ، وكان ، آنذاك السيد كريم ، يتولى بنفسه تنفيذ أمر الفرنسيين ، وضرب «المسلم» بالعصا. كانت تلك سياسة كريم التى أوهم بها الفرنسيين أنه يتعاون معهم ، وهو يدبر فى الوقت نفسه حركة المقاومة إلى أن انكشف أمره ، وحكم عليه بالإعدام .

«السابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : إن خشب التدفئة هو أكثر ما

ينقصنا بعد المال ولذا فقد ذهب الجند إلى ممارسة أفعال يصعب السيطرة عليها ؛ فقد سرقوا حتى السواقى وناعوراتها» : وكان ذلك - بطبيعة الحال - خير دليل على جهل الجنود ، إذا تسببت تلك الأفعال فى تهديد الإسكندرية حيويا ، فقد شحت مياه الشرب ، ثم منعت بعد ذلك.

طعن سكندرى آخر جنديا فرنسيا ، فحكم عليه بنسف منزله ، ولكن الجندى الفرنسى لم يمت ، وطلب العفو عن السكندرى . فكتب كليبر فى ذلك الشأن قائلا : «فليقنع هذا المثل للكرم الفرنسى المسلمين أننا - عندما حضرنا لنخلصهم من اضطهاد المماليك - لم نكن نبتغى إلا حسن التفاهم الذى تحتمه السياسة والحكمة على الأمتين كلتيهما»، هذا ما قاله فى العلن ، ولكنه ، فى الحقيقة كان لا يوافق على مثل ذلك «الكرم» ، فهو يكتب فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ إلى بونابرت قائلا : «لا أمل لى فى إحراز أى نفع من وراء مثل هذا الكرم : فهؤلاء الناس يأخذون كل علامات الطيبة التى أعبر عنها ، على أنها دلالات ضعف ؛ ومن جهة أخرى ، إذا ما أثبتّ نوعا من الحزم ، ولا أقول صرامة ، تجدهم جاثين عند قدمى ». ثم يقـول للجنـدى المطعون : «أيها المواطن ، إنك أول من ضربته خناجر التعصب الدينى المسلم الأعمى..» : نلاحظ مرة أخرى أن فكرة دفاع المصريين عن حريتهم الحقيقية أو كرامتهم لم ولن تخطر لحظة واحد على بال أى من الجند الفرنسيين أو ضباطهم ، وعلى ذلك فإن أية مقاومة أو ثورة تحدث فى أى

مكان ، سواء كانت فى الإسكندرية أو القاهرة ، أو الأقاليم أو الوجه القبلى ، فهى تعزا دائما إلى «التعصب الدينى المسلم الأعمى» كما سبق أن قرأنا فى الكتب الأخرى .

«التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى بونابرت : إن المتطلبات التى تجد ، تهاجمنا باستمرار ، قد أجبرتنى على طلب مقدم من تجار هذه المدينة ، ثلاثون ألف جنيه ، لحين تحصيل الجمارك . وسأرسل هذا المبلغ ، على الفور ، إلى خزينة أمين الصندوق الذى يستغيث » . نذكر طبعا ، أن سياسة حكومة «الإدارة» كانت أن يعيش الجيش على خيرات البلد المفتوح ، الذى ينهب إلى أقصى درجة ، وكانوا قد سموا هذه السياسة رسميا وبحق «سياسة عصر الليمونة» . وجاء الجيش إلى مصر، على أنه فى بلد غنى سيجد فيه الجيش كل ما يحتاج إليه ، بل وسيثرى أيضا كما حدث فى إيطاليا التى نهبت عن آخرها . ولكن موارد مصر أثبتت عجزها حتى عن سد متطلبات الجيش .


«الحادى والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : ... سأكتفى بمبلغ الخمسة عشر ألف جنيه قيمة السلفة التى قدمها التجار الفرنجة والمحايدون ؛ أما بالنسبة للمسلمين الذين لا يقدرون رأفة الأمة الفرنسية، وكرمها ، فقد فرضت عليهم ضريبة مائة ألف جنيه تدفع فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، وسيبقى أربعة من أهم التجار الموجودين هنا ، تحت سيطرتى لهذا الأجل ، وقد انسحبت بعد إصدارى هذا الأمر ؛ فحاولوا التحدث معى ، لكنى أمرت بإبلاغهم أننى لن أستمع إلى أى شىء حتى

يصل المبلغ إلى خزينة أمين الصندوق» . سنقابل ، كثيرا ، ذلك النوع من تناقض الكلام ، الذى ينبىء عن منطق خاص جدا بهؤلاء القوم المتحضرين؛ فبينما يتحدث كليبر عن «رأفة الأمة الفرنسية وكرمها» ، نجده في اللحظة نفسها ، يحتجز الرهائن ويفرض الضرائب الباهظة .

نقرأ بعد ذلك عن المقاومة خارج الإسكندرية : «الحادى والعشرون من يوليو إلى الجنرال مينو : ذهب الجنرال دوموى مع رتل من الجنود إلى دمنهور (ليعاقبها على تمردها) ، ولكن البدو من سكانها استقبلوه استقبالا سيئا للغاية ، فعاد إلى الإسكندرية مسرعا دون أن يذهب إليك كما كان مخططا، وقد فقد في هذه العملية ثلاثين أو أربعين رجلا»، الرابع والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : «أنا محاط بالبدو من كل جهة . فما حدث «لدوموى» فى دمنهور جعلهم أكثر جرأة . لقد نزلنا على ثلاثين أو أربعين من البدو بالسيوف تقطيعا على بعد نصف فرسخ من المدينة ، واليوم يزخر بهم الوادى ، وسنضربهم بالسيوف مرة أخرى» .

ولكن النغمة التى لم ولن تنقطع ، تستمر : «الثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : لقد أخبرت الفرقة أنه لن يوزع عليهم ، مستقبلا ، لحم بقر مملح ، وستحل البقول محل هذه الأكلة مؤقتا » ، فقد كان الجيش فى مجاعة يرثى لها ، وستكون تلك المجاعة من أهم أسباب انهيار مينو ، وفى الإسكندرية أيضا ، فى آخر أيام الحملة .

ويستمر البدو فى هجومهم الخاطف : «الحادى والثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : خرج اثنان من فرسان البدو من كمين، وقتلا أحد الفرنسيين بطلقة مسدس، وجرحا الآخر فى مقتل ، سيكون ذلك دائما



،هجوم البدو عند أسوار القاهرة، (وهو اعتراف بما تكبده الفرنسيون من جراء تلك الهجمات)

جزاء استهتار جندنا»، فقد كان البدو يتصيدون أى جندى خارج صفوف جيشه. وقد قاموا ، أثناء الحملة ، بالدور الذى قام به فرسان القوقاز أثناء غزو روسيا بعد ذلك بسنوات ؛ وكان يساعدهمّ على تلك الهجمات الخاطفة ، سرعة جيادهم وصغر حجمها .

ونقرأ بعد ذلك خطابا من السيد كريم : «حتى الصهاريج والأدوات الخاصة بالرى ، حطمها الجند عند دخولهم » ، وكان هذا الخطاب سبب بيان إلى الجند : «فى السادس من أغسطس سنة ١٧٩٨ : ... رأى الجنرال كليبر بسخط شديد تصرفات لا تغتفر لبعض الجند الذين تسيطر عليهم روح تخريبية ، ولا يراعون المصلحة العامة ؛ أهدروا هذه المباني، ويمنعون اليوم مَنْ يقومون بإصلاحها من إتمام عملهم ...». نتعرف مرة أخرى ، على تصرفات الجند الجهلة الذين لا يدركون نتائج تخريبهم ، رغم أنهم أول من يقاسى منها ، إذ لن يجدوا ماء للشرب بعد ذلك ، وهذا خير دليل على مستواهم الثقافى. ويعبر المثل التالى تعبيرا دقيقا عن حقيقة شخصيتهم : «وصل إلى الجنرال كليبر أن رجالا فى خدمة الجمهورية ، غير جديرين بلقب فرنسى ، يبددون ما يتسلمونه من المخازن ، ويبيعون للأفراد حتى أسلحتهم ..» .

وبعد معركة «أبو قير» البحرية ، التى قضت تماما على الأسطول الفرنسى ، نقرأ ما يلى : «إلى القائد البحرى جانتوم فى الثامن من أغسطس ١٧٩٨ : أبلغنى الجنرال دوموى أن نصف البحارة وصغار

الضباط البحريين الذين مركزهم الكابتن بارريه فى بحيرة سابيس ، قد فروا من الخدمة» .. ترى أين ذهبوا ، وكيف كانوا يعيشون؟!

«الثالث عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : المواطن الكومندان ، نحن على علاقة ودية بقبائل من العرب المسلمين الذين يساهمون فى ازدهار الرخاء هنا ، ويحضرون لنا الحيوانات والمؤن المختلفة . وقد بلغنى أن كثيرا منهم قد أهينوا وارتكبت ضدهم أعمال عنف» : بدأت علاقة الفرنسيين بالعرب بداية سيئة فى الإسكندرية كما سبق أن قرأنا ، ولكن خيانة الجيش الفرنسى هذه ، لا تشرح ، طبعا كل ما تكبده بعد ذلك من حرب العرب المقاومين له؛ ويوضح لنا هذا الخطاب طريقة معاملة الجند حتى لأصدقائهم من البدو .

«الخامس عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : إن أول استجواب لأخى عبد الكريم يجعلنا نأمل فى الحصول على موارد سخية من المال، ستفى بمصروفات هذا الشهر ، وهكذا ينتهى على الأقل موضوع من الموضوعات التى تقلقنا» : إن ما فعله الفرنسيون فى سبيل الحصول على ممتلكات السيد كريم وأمواله يجعلنا نعتقد أن السبب المباشر للقبض عليه قد يكون الطمع فى ماله ؛ لقد قالوا إنه رفض دفع الفدية التى طلبوها منه بسبب بخله ، ويبدو أن المبلغ كان أكثر بكثير مما كان يمكن أن يدفعه ، فنفذ فيه حكم الإعدام ولو أنه دفع الفدية ، لما قتلوه ؛ فالمسألة كلها إذن تهديد للحصول على المال ، كما يفعل قاطع الطريق إذا خاب أمله فى استسلام فريسته .

«الثامن عشر من أغسطس ١٧٩٨ : ... ومن أجل هذا ، فعلى قائد الرحمانية أن يقبض على بشير شاوس وبطانى شاوس وشريف شاوس والأمير إبراهيم قائد دمنهور ، ويصدر أوامره لاثنين منهم ، ويحتفظ بالآخرين كرهائن إلى أن تصل الجياد والرجال إلى الإسكندرية». فكان الإرهاب المستمر هو وسيلة الحصول على متطلبات الجيش ، ونلاحظ أن أخذ الرهائن كان شيئا عاديا بالنسبة لهم لضمان تلبية طلباتهم ، مما يدل على حالة عدم الأمان المستمرة التى كانوا يعانون منها. وتدل الرســـائل التالية على أنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى الاستيلاء على أى شىء ، كى يخرجوا مما أسماه كليبر «حالة البؤس التى (يعانون) منها » :

«إلى بونابرت فى العشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، ألفت نظركم بصفة خاصة إلى أحوالنا المالية . الإنجليز لا يسمحون بدخول أية سفينة أو خروجها . وقد توقفت التجارة تماما ، والجمارك التى كنتم تأملون فى ريعها ، لا تنتج شيئا بتاتا » . «إلى الجنرال مينو في الحادى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ : إن حظنا وملاكنا الحارس هما وحدهما اللذان يستطيعان إخراجنا من حالة البؤس التى نعانى منها» .

«إلى بونابرت فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٧٩٨: إن الجمارك التى كانت توفر فى الماضى حوالى خمسين ألف «إيكو» (١٠) شهريا ، لن تنتج مليما واحـدا مادام الإنجليز يسدون الميــــاء ، ومادمنا لا ننعم بالهـدوء فى داخل البلاد» . ونلاحظ أن الجملة الأخيرة

سترد كثيرا وكأنها لازمة للترنيمة الأخرى : من أين الموارد ، والأمن غير مستتب؟

«إلى الجنرال بونابرت فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، لدينا وسيلة أخرى تجعل المسلمين يباركوننا وهى أن نعدهم برد المائة ألف جنيه ، التى أوجبنا دفعها للمجهود الحربى ، عقابا لهم على الصعوبات التى أثاروها فى تغطية سلفة الخمسة عشر ألف جنيه فى الوقت المناسب ، عندما طلبتها ، ... ، لاحظت أيها الجنرال المواطن ، أن هؤلاء الرجال لا يقبلون أية ضريبة مباشرة ، بينما تراهم متمرسين على دفع الضرائب غير المباشرة وقبولها » .

ثم ها هى المواد التى تنظم وظائف الديوان السكندرى ، تفضح ما قيل عن الدور الديمقراطى لتلك المجالس . ونأخذ بعضاً من بنود تلك اللائحة التنظيمية لنرى حقيقة أمرها :

«الديوان السكندرى :

... فقوتهم إذن قوة معنوية ووسائلهم وسائل إقناع .

(وظيفتهم الحفاظ على الهدوء) وإذا احتاجوا مساعدة خارجية فعليهم التوجه إلى الحاكم الفرنسى .

المادة الثالثة : وسائل التأكد من الهدوء الداخلى والخارجى ولا يستعمل الأغا القـــوات التى يأتمـــرها إلا بعد إخطار الحاكم الفرنسى (...) .

المادة السادسة : أعضاء الديوان سينهمكون بصفة خاصة فى الحفاظ على الوفاق (بين الجيش و) شعب الإسكندرية ، هذا الوفاق الذى نتمتع به منذ فترة والذى سيجلب السعادة للجميع » .

نستخلص إذن أن دور الديوان الوحيد هو فى الحقيقة ، الحفاظ على أمن الفرنسيين من غضب السكان وثورتهم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن أعضاءه لا يتحركون إلا بإذن من القائد الفرنسى ، حتى فى هذه المهمة التى يقومون فيها بوظيفة الشرطى التابع للمستعمر الفرنسى .

«إلى الجنرال بونابرت فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : نظرا لما أنا مقتنع به من أن السلام القوى لا يضمنه إلا وجود رهائن ، فقد رفضت أن أستمع إلى أى اقتراح قبل أن يسلموا لى أربعة من دمنهور نفسها ، وشيخ من كل قبيلة من القبائل الأخرى ، وقريب لكل شيخ من المشايخ الآخرين لهذه القبائل نفسها ... وسأرسل أهمهم إليكم فى القاهرة ، وحينئذ سنتمكن من تنظيم الضرائب . وفى هذه الحالة ، نأمل وصول دفعة جديدة من الجياد العربية» . «تنظيم الضرائب» هو إذن الهدف الوحيد لهذا «السلام القوى» الذى ينشده كليبر .

«إلى اللجنة الإدارية فى الخامس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أرسل إليكم بيانا عن توزيع ضريبة المائة ألف جنيه التى سبق أن فرضتها على المسلمين» وفى اليوم التالى ، فى خطاب إلى بونابرت بتاريخ السادس من سبتمبر : «أمرت فورا بمساهمة مسببة ، قدرها أربعمائة ألف جنيه كما سترون فى القرار التالى ،...، ليس هذا كل شىء ، ولكن مسئول

المال القبطي أمر في الوقت نفسه بالاستيلاء على مائة وستين قنطارا من الزيت، وهكذا ، فبينما أمرت أنا بمساهمة قدرها ثلاثمائة ألف جنيه من جهة ، يكون هو قد تحرك من جهة أخرى . لا أعرف إن كانت الإسكندرية قد مرت في عهد المماليك ، بمثل هذا الأسلوب العنيف ،...، وهكذا سيدخل مبلغ صاف من مائة وتسعين ألف جنيه»، يعترف كليبر إذن لأول مرة ، وبعد وصولهم بشهر واحد ، أن المماليك أنفسهم لم يلجأوا إلى مثل طغيان الفرنسيين وجبروتهم في تكبيد الأهالي ما يفوق طاقتهم من ضرائب ، ولا يسعنا هنا إلا ذكر ما قاله «فيفان دينون» في هذا الموضوع نفسه .

«إلى المواطن برتليمي، في الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : ستتوجهون إلى قرية غطاس ، ولتقبضوا على كل من يقاومكم، واحتجزوا النساء والأطفال والشيوخ بعناية . أما عرب القرية الذين سيموتون في هذه الحملة ، فلتفصل رءوسهم بيد أهل البلد الموجودين معكم (المرشدون) وتوضع على قمة زانة ليراها المارة. ولتدمروا بعد ذلك ، القرية عن آخرها ، ثم أشعلوا النار فيها » ... «إلى بونابرت في السادس عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن لقد عوقبت قرية بركة غطاس على تحالفها الخبيث مع العرب أولاد على ، وأعتقد أن أمر القبض على كل من يقاوم قد نفذ بكثير من الاتساع» . والكلمات هنا – على اقتضابها – تعنى ما تعنيه من عنف مبالغ فيه ووحشية لا ضرورة لها . إن الكابتن «مواريي» لا يشكو وحده إذن من ضراوة هذه الحرب ، وما العجب ، وقد كان كثير من الضباط

المنتصرين على متمردى حرب الفانديه فى فرنسا ، والتى عرفت ببشاعتها (*) ؟.

«إلى الجنرال مانسكور فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أمر القائد العام أن تفرض ضريبة على منازل الإسكندرية للإنفاق على أعضاء الديوان والأغا ، ولدفع أجور الانكشارية ، وكذلك لتغطية تكاليف نظافة المدينة .. » ، وهكذا بررت نظافة المدينة باقى التكاليف التى تخدم أغراض الجيش .

«الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (بمناسبة الاحتفال بأحد أعياد الثورة الفرنسية) : ... ولكن هذا الاحتفال الذى أمر به ، ما كان ليعجب القائد العام ، لو أن سكان الاسكندرية لم يشتركوا فيه والمسلمين منهم بصفة خاصة . ولذا ، حاولت كل ما فى وسعى لأجعلهم يتوجهون معنا إلى عامود بومبى بالذات (الذى يسمى حاليا عامود السوارى)» : وقد كتب كثير من الفرنسيين عن فرحة المصريين بالاشتراك فى أعياد الجيش ؛ وهذا الخطاب القصير يؤكد لنا طبعا عكس ذلك ، فقد كان تصرف المصريين هو التصرف الطبيعى لشعب مستعمر ، مغلوب على أمره .

وقبل سفره إلى بلاد الشام مع حملة بونابرت عليها ، كتب كليبر فى الثامن من فبراير سنة ١٧٩٩ قائلا : «أخبرنا الجند بالبؤس الذى ينتظرهم حتى نصل إلى سوريا ، وقد تقبلوا تلك الأنباء بشجاعة . ولكن

---

* ارجع إلى الجزء الأول.

من الصعب إخبارهم أننا لن نعود إلى أوربا عن طريق الدردنيل ، رأيت أن أترك لهم هذا الوهم ...» : إن هذا الاعتراف خير دليل على استياء الجيش من حياته فى مصر ، ودليل قاطع على أن القواد كانوا يعرفون ذلك وعلى أعلى مستوى. لقد كان الرحيل أمل الجند الوحيد ، حتى إن كان عن طريق حرب ضروس فى الشام ثم التوجه إلى فرنسا من الشرق. ونرى هنا كيف كان القواد يكذبون على جندهم حتى يرغموهم على تنفيذ خططهم ، والجند فى غفلة عن مصيرهم ولا همّ لهم إلا العودة إلى الوطن ، حتى إن كان ذلك يجبرهم على الالتفاف من الشرق .

«من دمياط إلى الجنرال فرديبه ، فى العاشر من فبراير سنة ١٧٩٩: بالنسبة للجمال ، لا تحترموا أية ملكية خاصة فالكل مأمور بأن يستولى على كل شىء فى هذه اللحظة العاجلة. يجب أن تظهر فى هذا الأمر أشد الحزم ..»

«إلى الجنرال مورا فى الثامن والعشرين من مايو سنة ١٧٩٩ : أيها الجنرال المواطن ملحق مع هذا، أمران تلقيتهما من القيادة العامة، أحدهما خاص بتخريب البلد الذى سيتولاه فرسانك..»، وكانت أوامر بونابرت كالتالي: «سيتولى الجنرال كليبر أمر حرق كل المحاصيل حيث يمر، وسيسير بحيث يستطيع أن يرسل دوريات مكثفة من الفرسان، يساندها بعض المشاة، لنهب القرى الموجودة على الطريق، والاستيلاء على الحمير والحيوانات والجياد.... إلخ».. كلام وأوامر لاتحتاج أى تعليق.. فكان الخراب التام لكل المنطقة. والرسالة التالية تلخص حقيقة ماقترفه الجيش آنذاك من فظائع:

«إلى الجنرال دوجوا، دمياط فى الحادى والعشرين من يونيو سنة ١٧٩٩: لقد ارتكبنا في الأرض المقدسة معاصى بالغة الخطورة، وسخافات كبيرة، ولكن، يجب أن نترك ستار المحظورات ينسدل على هذا كله، وألا نرفعه، خشية أن يعاقبنا المولى فى غضبه على جبرنا...»، نلفت النظر، مرة أخرى، إلى أن كاتب هذه السطور هو الجنرال كليبر الذى سبق أن اشترك مع الجيش الجمهورى، فى تخريب المناطق الثائرة فى فرنسا، وفظائع تلك الحرب الأهلية مازالت تحكى حتى يومنا هذا، ولم نقرأ شيئا لكليبر يدل على أنه ندم يوما على مااقترفه من ذنوب فى حرب «الفانديه» التى كان من المنتصرين فيها. ولكن من البديهى أن مافعله، وفعله الجند الفرنسيون فى فلسطين، يفوق بكثير كل ما مر به من قبل، والدليل، هذا الخطاب الصريح،

ثم سافر بونابرت عائدا إلى فرنسا، وترك لكليبر أمر الحكم فى مصر، فأرسل كليبر إلى حكومة «الإدارة» تقريرا قال فيه من بين ما قال: «..... مع أن مصر هادئة ظاهريا، إلا أنها ليست مطيعة. الشعب قلق، ولايرى فينا.. مهما فعلنا، إلا أعداء ملكيته، وقلبه متفتح دائما لأى أمل فى التغيير لصالحه».. تلفت نظرنا كلمة : «مهما فعلنا»، وبعد ما قرأناه عما «فعلنا» هذه، قد لايسع القارىء إلا التعجب لمنطق الفرنسيين.. وتجىء الأسطر التالية لتؤكد سخرية الموقف: «.... كان فى إمكان العرب وحدهم أن ينظموا لنا قوافل فى الرمال الحارقة؛ إلا أنهم خدعوا مرات عديدة لدرجة أنهم لم يعودوا يعرضون علينا خدماتهم الآن، ولكنهم يبتعدون عنا ويختفون».

تكاد هذه الفقرة الأخيرة تكون من أبلغ ماسطره كليبر في الموضوع الذي يهمنا، لأنه يفضح بقلم شاهد من أهلها، معاملة الفرنسيين لمن ساعدوهم بغية الكسب المادي؛ فما بالنا بمعاملتهم لمن لم يساعدوهم؟

★★★

نكتفي بهذا القدر من خطابات كليبر قبل أن يصبح قائدا عاما لجيش الشرق في مصر، والتعليق الوحيد الذي نراه ضروريا، قبل أن ننتهي من الأجزاء الأربعة لخطابات كليبر، هو ملاحظة ماحدث أثناء حكمه للإسكندرية في شهر يوليو، أي قبل أن يحطم «نيلسون» الإنجليزي، الأسطول الفرنسي في «أبوقير» أول أغسطس من عام ١٧٩٨. قيل مرارا إن هذه الحادثة حولت الجيش الفرنسي إلى جيش سجين في مصر، كان عليه أن يعيش بعد ذلك، على موارد البلد فقط، لاستحالة وصول أية إمدادات بسبب الحصار الإنجليزي للشواطيء: ولكننا نرى، بعد قراءة مخاطبات كليبر تلك، أن الاحتياج إلى فرض الضرائب الباهظة كان سمة هذا الاستعمار، منذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى مصر، فخطابات يوليو التي قرأناها ـ أي مخاطبات ماقبل دحر الأسطول الفرنسي ـ لاتدع أية بادرة للشك: لقد جاء الجيش منذ اليوم الأول كالجراد، يقضي على الأخضر واليابس، وكلمات «لابد من إيجاد المال الضروري لنا» شبه لازمة لكل خطاب، مع أوامر المصادرة العنيفة واللجوء الدائم إلى أخذ الرهائن، هذا من جهة. وقرأنا، من جهة أخرى، الأوامر التي كانت تصدر للجنود، فلم نقابل، ولو لمرة واحدة، أية بادرة «تحضير» لمصريين يُسلبون وتلوث قبورهم ومساجدهم، لم نقابل

جنديا أو ضابطا واحدا صدر له أمر، أو نفذ أمرا لنشر مبادىء الثورة، تلك الثورة التي لم نسمع عنها إلا فى احتفال فرنسى أجبر «المسلمون» - بالذات - على الذهاب إليه.

من البديهى إذن أن الجيش الفرنسى - بجنده وقواده - لم يتصرف إلا كما يتصرف أى جيش غاز، إن حافظ على المواطنين المهزومين، فهو يحافظ عليهم لأنهم كالبقرة الحلوب، إذا نفقت، انتهى مورد الرزق، فلابد إذن من الحفاظ على بعض مظاهر التودد، حتى تستمر البقرة البائسة فى إدرار لبن يعيش به الغازى.

وتتضح هذه الصورة أكثر وأكثر عندما ننتقل إلى مكاتبات كليبر بعد أن أصبح حاكما مطلقا على مصر: من هذه المخاطبات، تتضح لنا، بصورة فجة، معاملة القيادة العليا للشعب المصرى، وبالتالى، معاملة كل من كان تحت إمرة هذه السلطة العليا، أى كل الفرنسيين الموجودين آنذاك مع الجيش فى مصر. فلنقرأها معا، لعلنا نجد ولو إشارة واحدة إلى تلك المبادىء التى جاء الجيش من أجل تعليمها للشعب المصرى، سواء طبقها الفرنسيون أو علموها لشعب يجهلها.

★★★

إذا انتقلنا إلى الجزءين الثالث والرابع من كتاب «كليبر فى مصر»(١١) وجدناهما من تسعمائة وسبعين صفحة، نتعرف فيها على مكاتبات عديدة، أهمها طبعا خطابات وبيانات الجنرال كليبر الذى أصبح - بعد سفر بونابرت - القائد العام لجيش الشرق، نجد فيها من الخطابات التى يهمنا أمرها أكثر بكثير مما وجدنا بالجزءين الأول

والثانى، وهذه الخطابات تحتاج ـ لكثرتها ـ إلى نوع من العرض يختلف عما لجأنا إليه فيما سبق. بعضها لن يهمنا بحثه بصورة مباشرة أو حتى غير مباشرة، مثل مكاتبات المفاوضين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز من أجل اتفاقية إجلاء القوات الفرنسية، التى عرفت «باتفاقية العريش»، والتى كان فشلها سببا فى المعركة التى دارت بين الفرنسيين والعثمانيين فى «هليوبوليس» ، أى عين شمس، وكان انتصار الفرنسيين فى تلك المعركة سببا مباشرا فى استمرار بقاء القوات الفرنسية فى مصر، على الرغم من رغبة كليبر وجيشه فى العودة إلى الوطن، لأن الحملة كانت فى نظرهم فاشلة من بدايتها، ولا أمل يرجى من ورائها، كما نجد تقارير مطولة عن حالة الفرنسيين فى مصر، كان القائد العام يرسلها إلى حكومة «الإدارة»، وهو يجهل أن بونابرت أصبح فور وصوله إلى فرنسا المسيطر على كل مقاليد الحكم هناك، بعد تلك المخاطبات المهمة التى قد تفيدنا معرفة بعض منها، نجد كما هائلا آخر يوضح بصورة مباشرة القضايا التى تهمنا، وسنصنفها حسب موضوعاتها، لننتقى منها مايبدو لنا أكثر دلالة؛ فلا داعى لتكرار ممل، خاصة أن المشكلات هى نفسها، لاتتغير، والحلول المطروحة أيضا لاتتغير. وقد تعرفنا على بعض منها، عندما كان كليبر حاكما على الإسكندرية.

فكيف يكون الأمر وهو الآن حاكم على مصر كلها؟

★★★

ولنبدأ بالخطابات التى تعبر بصورة واضحة عن حالة الجيش، بعد أن تركه بونابرت، لنستشف منها ما سنقرؤه بعد ذلك، عن معاملة

الجيش المستعمر للمصريين تلك المعاملة التى تحتمها ظروف الجيش المشار إليها من قبل.

بادىء ذى بدء، يتضح لنا الأمر عندما نقرأ ما أرسلته الحكومة من باريس إلى القائد العام، الجنرال بونابرت، فى الثامن عشر من سبتمبر ١٧٩٩، أرسلت خطابا يفيد بأن المفاوضات ستبدأ مع العثمانيين من أجل إجلاء القوات الفرنسية عن مصر، وأن خبر هزيمة بونابرت أمام عكا كان قد وصل «منذ بضعة أيام»؛ كما أن الخطاب ينبىء بونابرت بحال القوات الفرنسية المهزومة فى فرنسا، ويأمره بالعودة لاحتياج البلاد إلى جيشه: المعنى واضح، فحكومة «الإدارة» قد اعترفت إذن بفشل مشروع الحملة بعد بدئها بسنة واحدة، واحتياجها لجيش الشرق؛ أمر مصر لم يعد يهمها، وفرنسا فى حاجة إلى كل قواتها، خاصة جيش الشرق هذا الذى سبق أن أثبت جدارته الفائقة فى إيطاليا. وصل هذا، الخطاب بعد رحيل بونابرت بمفرده من مصر طبعا، وأصبح على كليبر وحده أن يواجه الموقف: رحل بونابرت، وترك الجيش، والحكومة فى باريس لم تعد تهتم بإنجاز ماسافر من أجله بسبب فشل الحملة، ولا نعرف متى وصل هذا الخطاب إلى مصر، فقد كان الحصار على شواطىء الاسكندرية قاسيا، والأخبار والمراسلات تصل، إن وصلت، بعد شهور من إرسالها؛ ولكن المؤكد أن الرسالة وصلت بعد فترة من سفر بونابرت، وقد يكون بعده بشهور عديدة.

نرى بعد ذلك كليبر يشكو إلى مينو، في الثامن عشر من سبتمبر

١٧٩٩، سوء الأحوال التي تركها بونابرت وراءه، فلا يوجد شيء في الخزائن ينفق منه؛ وكان حكم كليبر على إدارة بونابرت أن «نظام الإدارة (....) كان غاية في السوء»، ثم نراه يطلب من مينو في خطاب آخر، أن يتودد إلى الأسطول الإنجليزي، الذي يحاصر الشواطيء، ليحصل منه على بعض الصحف، حتى يكون على دراية بما يحدث في فرنسا وأوربا، وبما يفعله بونابرت، وهو طبعا لم يتخيل أن بونابرت كان قد سيطر على الحكم في باريس في ذلك الوقت.. ونراه يشكو في خطاب بتاريخ الرابع من أكتوبر ١٧٩٩ إلى مينو مرة أخرى، يشكو مما يسببه الرمد والطاعون من مصائب للجيش الفرنسي.

وبعدها بأيام معدودة، وبالتحديد في التاسع من أكتوبر ١٧٩٩، يرسل أحد المسئولين تقريرا مطولا إلى حكومة «الإدارة»، يصف فيها الحال في مصر، وهو يجهل طبعا أن هذه الحكومة قد انتهى عهدها. إنه يرسل صورة بائسة يائسة: فالعدو والطاعون على الأبواب، والموارد شحيحة إن وجدت، والضباط والجنود «متأكدون أنهم يضحون بحياتهم وصحتهم من أجل الوطن وذلك دون جدوى»، هذا المسئول الكبير يناقش في تقريره مشروع احتلال مصر، ونتنقى من صفحاته العديدة مايبدو لنا ذا مغزى: «لاشك في أننا لو كنا الأسياد المؤمّنين لمصر، لاستطعنا أن نخلصها في بضع سنوات من معظم الآفات التي تخربها، مثل الطاعون والعرب (البدو) ،....، فتكون مصر أجمل مستعمرة في العالم،.....، ونظرا لما استجد من ظروف» بعد احتلال مصر، دون موافقة الباب العالي «فشعب مصر الذي كان علينا أن نعده صديقا،

أصبح، فجأة عدوا لنا»... ومن مناقشته لسياسة فرنسا، نصل إلى حقيقة الحملة ومغزاها: «ينظر الآن إلى الإمبراطورية العثمانية على أنها مبنى قديم على وشك الانهيار، وأوربا مستعدة منذ وقت بعيد لتقسيم أشلاء هذا المبنى، وكثير من السياسيين يعتقدون أن هذا الحدث قريب، ويرون أن على فرنسا أن تأخذ نصيبها، وأن مصر هى هذا النصيب»، ولكن هذا المسئول يرى أن الوقت لم يحن بعد لهذا الحدث المنتظر، وأن الحل الوحيد للخروج من المأزق الذى يجد الجيش الفرنسى نفسه فيه، هو أن تعلن روسيا الحرب على الباب العالى، حتى تذهب القوات العثمانية إلى تركيا نفسها لحمايتها، فلا تمثل بعد ذلك خطرا على القوات الفرنسية فى مصر، ويلفت نظرنا طبعا كلامه عن الشعب المصرى الذى أصبح إذن، حسب منطقه، عدوا بعد أن كان صديقا!

وقد تدل الكلمات التالية على حالة الفتور التى كان يحارب بها الفرنسيون، أو على منهج حروبهم، وكليبر هو الذى يكتب هذه المرة إلى حكومة «الإدارة» فى السادس عشر من نوفمبر ١٧٩٩، يصف لها الإجراءات التى اتخذها لحماية موارد مصر من التهريب لصالح «جيش الأعداء»، أى الأتراك: «.... لقد منحت الفرق الحق فى الاستيلاء على أية غنيمة تحصل عليها من القوافل الخارجة من مصر. وبهذه الطريقة حصلت، فى وقت وجيز، على ثمانمائة من الإبل، وزعتها على الفرق المختلفة»، وبما أن جيوش الأتراك قد تنزل قريبا إلى أرض مصر، فقد «ابتسم جنودنا عند التلويح بهذا الأمل، لأنهم ـ بصرف النظر عن سعادتهم بإحراز انتصارات جميلة ـ سيغنمون بكثرة»، الجيش يحارب

من أجل الغنائم، مما يسعد الجند، ولكن التقرير ينتهى بتلخيص الحالة العامة للجيش، فيقول كليبر: «ولكنى أرجو منكم أن تدركوا أن حالتى تسوء كل يوم أكثر فأكثر، وأن المستشفيات وحدها تحرمنى من حوالى ثلاثمائة رجل فى الشهر وأن الطاعون حاليا بالإسكندرية، وأن كل الظروف تتضافر لتدفعنى إلى النهاية الحتمية التى كان الجنرال بونابرت قد تنبأ بها، ولكنه أراد أن يتفاداها». فكليبر يرى إذن أن المفاوضات من أجل الخروج من مصر، وبالتالى إعلان فشل الحملة، هو «النهاية الحتمية» للحملة والحالة التى وصل إليها الجيش الفرنسى، حتى قبل أن يذهب بونابرت إلى فرنسا سرا.

وجاء ليعضد هذا التقرير، تقرير آخر للسياسى «تاليان»، الذى كان قد لحق بجيش الشرق فى مصر بمحض إرادته، مما جعل تقريره، كما يقول هو نفسه، مجردا من أية أغراض ذاتية، وهو مدون بتاريخ الحادى والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩. وقد كان «تاليان» بصفته موجودا فى مصر، لايزال يجهل أن بونابرت قد سيطر على الحكم، وسنجد فى تقريره، مرة أخرى، الأسباب الحقيقية ـ بل الوحيدة ـ لغزو مصر، وهو يؤكد أنه لن يناقش الحملة، أو أسبابها، التى كانت ترمى إلى «الحصول على تعويضات من إنجلترا»، وهو يقصد الحصول على مستعمرات تحل محل المستعمرات التى أخذتها إنجلترا سابقا من فرنسا، ولكنه يتكلم عن النتائج مثل: «ثورات القاهرة والمنصورة ودمنهور التى ذبح فيها كل الفرنسيين (الذين كانوا فى هذه المدن) بالإضافة إلى العديد من حركات التمرد علينا التى كلفنا إخمادها حياة كثير من الشجعان»، نراه يشكو

أيضا مما يعانيه الفرنسيون من «العرب (البدو) الذين لايبغون إلا النهب»، ويقول «تاليان» إن بونابرت كان يضمر منذ زمن ترك مصر، لأنه عند وصوله إلى هذا البلد اكتشف سريعا أنه «خدع بالنسبة لإمكانات هذا البلد، وما كان يستطيع تقديمه سواء لفرنسا، أو لجيشه».

«فهذه الملايين التى جنتها باريس وسهولة الحصول عليها من القاهرة، لم تكن فى الحقيقة إلا بعض آلاف من أكياس الضريبة على الأهالى، دفعت بعد صعوبات جمة (....)، الضرائب التى فرضت، وهى أقل بكثير من احتياجات الجيش نفسه، لم تحصل إلا بسلطة القوة (....)، لو كانت هذه الحملة قد نجحت (نلاحظ أن هذا التقرير بتاريخ ديسمبر ١٧٩٩) (.....) لكان من الصعب جدا ـ فى اعتقادى ـ أن نخلق مستعمرة أوربية فى بلد تتعارض معنا دائما عاداته وتقاليده ، خاصة دين الأهالى.وعلى الرغم من حكمة تصرفاتنا منذ ثمانية عشر شهرا، فإننا لم نجد حتى الآن إلا بضعة رجال يتحالفون معنا تحالفا مؤقتا، وغير مضمون، بضعة رجال يرون أن مصالحهم تتماشى مع مصالحنا، ومن المؤكد أنهم سيتركوننا عند أولى هزائمنا (لأننا فى بلد) شعبه كثير ودائما على أهبة الاستعداد للثورة (.....) فالجيش مسئول دائما عن تحصيل الضرائب لأن الفلاح المصرى لايدفع إلا إذا استخدمنا القوة، فلا يستطيع الجيش أن يحارب العدو ويكون ـ فى الوقت نفسه ـ بالداخل لتحصيل الضرائب (....) خاصة أنه منذ هروب بونابرت ، والجنود فى حالة ثورة ولايرون أصغر مركب يعد للسفر إلا ويقولون إنه

يعد لهروب الجنرالات؛ فسبب ثورات الجند ليس فقط ضيق ذات اليد.....».

وبعد هذا التقرير الطويل بثلاثة أيام، أى فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩، نقرأ خطابا من كليبر لأحد قواده يهنىء فيه فرقة لم تجذب «لعدوى» تمرد الجند المنتشرة آنذاك، نقرأ فى هذا الخطاب أن سبب ذلك التمرد كان سفينة ظن الجند أنها تقل القواد الفارين من مصر، بينما لم يكن على ظهرها سوى «رجال أصحاء وموسسات (......) من بلاط بونابرت»، وفى خطاب آخر بتاريخ السادس عشر من يناير ١٨٠٠، يكتب كليبر رأيه الصريح، مرة أخرى، فى بونابرت الذى «كان قد ضحى بهذا البلد قبل سفره بمدة طويلة. ولكن، كان عليه أن يجد الفرصة السانحة للهروب منه؛ إنه لم يفعل ذلك إلا ليتجنب مصيبة تسليمه (وقد ترك هذه المهمة لكليبر الذى يؤكد) فأنا لا أريد أن أرى باقى الجيش يذبح واحدا تلو الآخر، دون أية فائدة حقيقية للوطن: أنا الذى اعتبرت هذه الحملة خاسرة كلية بعد كارثة أبوقير وإعلان الحرب علينا من طرف الباب العالى ـ سأتحمل مسئوليتى كاملة ـ ولكنى وصلت إلى نهاية المطاف ولم يعد بيدى شىء».

وعندما اجتمع كليبر بقواده لبحث الحالة الراهنة، قيل فى تقرير الجلسة من بين ماقيل: «..... وفى حالة الهزيمة الحربية، كيف نستطيع إنقاذ حياة عشرين ألف جندى من موت محقق على أيدى جند (عثمانيين) جامحين وشعب من المتعصبين الذين يجهلون كل حقوق الحروب والشعوب المتمدينة (.....)» !!.

«ولم يعد هناك أى أمل فى حكومة لن ترسل أية إمدادات، بعد المبادىء التى أعلنتها، والتى تلوم فيها الحملة بطريقة قاطعة، وتجعل من هذه الغزوة تهمة توجهها إلى من أصدر أمرها أو تركها تنفذ، معلنة أن هذه الفعلة كانت ضارة بكل مصالح الجمهورية، بعد أن حولت أكثر حلفائها قدما وأمانة إلى عدو انضم إلى أوربا كلها ضدها....» (يقصد الإمبراطورية العثمانية).

أصبحت الحملة إذن اتهاما لمن أمر بتدبيرها، وكأنها سبة يتهم بها من أنجزها لأنها قد فشلت، ولم تدر على فرنسا إلا الخراب، فقد تحولت الدولة العثمانية من حليف إلى عدو، كانت حليفة لفرنسا منذ القرن السادس عشر، فتحولت إلى عدو لدود انضم إلى روسيا وانجلترا فى التحالف الثانى ضد الجمهورية، وذلك لأن فرنسا قد غزت مصر دونما سبب، بل حتى دون إعلان حرب وكانت تلك هى النتيجة الوحيدة التى جنتها فرنسا من الحملة، كما اعترف بذلك معاصروها من السياسيين.

ونستمر فى قراءة التقرير الذى يصف أوضاع الجيش الفرنسى فى مصر، وقد دب اليأس فى قلب كليبر أكثر عندما عرف أن بونابرت أصبح المسيطر على كل الأمور، ولم يرسل - مع ذلك - إمدادات للجيش الذى «هرب» وتركه فى مصر، وبعد أن استعرنا من هذا التقرير بعض الجمل التى بدت لنا مهمة لدراستنا، فإنه يستمر لصفحات عديدة سنترك قراءتها مؤقتا لنعود إليها فيما بعد فى محاولة منا لاستجلاء أمور الفرنسيين فى مصر من زاوية أخرى، ولكن كليبر يبلغ بعد ذلك - فى

الحادى والعشرين من يناير ١٨٠٠- أن الجند الفرنسيين قد سلموا العريش للأتراك، ولم يكن ذلك وحده كافيا كمصيبة، فقد زاد الأمر سوءا أن منهم من انضم بالفعل إلى الجيش العثمانى.

ونرى كليبر الذى عرف أخيرا أن بونابرت قد استولى على حكومة «الإدارة»، وقد أرسل خطابا آخر، فى الثامن والعشرين من يناير ١٨٠٠، موجها إلى تلك الحكومة ولم يدرك بعد أن اسمها نفسه قد تغير إلى «حكم القناصل»، ويشكو كليبر فى هذا الخطاب مرة أخرى من المقاومة التى يلقاها من البكوات (المماليك) ومن «شعب ثائر» من البديهى أنه يعمل له ألف حساب.

وبعد ذلك بيومين، يعيد كليبر الكلام نفسه فى خطاب آخر إلى حكومة «الإدارة»، يشكو فيه من استمرار خطر «البكوات» وأنصارهم فى مصر العليا على وجه الخصوص، وهو كلام له أهميته بالنسبة لما قيل مرارا عن سيطرة الفرنسيين عليها، بينما مراد بك يمثل الخطر الدائم هناك. وفى الصفحة التالية، نجد مرة أخرى الشكوى من خطر «العرب وسكان البلد» ولكنه يشكو أساسا من «أنه يكفى للرد على الأفكار المبالغ فيها عن إيراد مصر السنوى، ذكر ما تركه الجنرال بونابرت من ديون تصل إلى أحد عشر مليونا، مع أنه وجد، عند وصوله إلى هذا البلد، موارد هائلة قد نضبت كلها فى الوقت الحالى».

يعرفنا مرة أخرى أن «الحملة على مصر التى أصبحت مهملة كلية، أصبحت أيضا اتهاما صريحا ضد من أمر بها»، ولا يفوت شوفينية كليبر أن ينهى تقريره الأليم بالكلمات التالية: «أيا كان، فالجيش

الفرنسى ترك عند السكان (المصريين) أثناء وجوده في مصر، أحسن ذكرى لانتصاراته، وذكرى العدالة والاعتدال اللذين حكمنا بهما، والإحساس بقوة الجيش وسلطة الأمة التى ينتمى إليها، الاسم الفرنسى سيظل محترما ليس فقط فى هذا الإقليم من الامبراطورية العثمانية، بل فى الشرق كله»، يبدو أن كليبر قد نسى ماكتبه هو نفسه عما اقترفه هذا الجيش في يافا وكل فلسطين من فظائع، ولن ننسى مقارنة هذا الكلام بما سنقرؤه، بقلمه عن معاملته للمصريين، وقد اكتفت الذاكرة الفرنسية بهذه الجمل الإنشائية الرنانة لتؤكد بعد ذلك محبة المصريين لجيش كانت له تلك الصفات، صفات لم يذكرها إلا كليبر نفسه.

ومما يؤكد هذا الكلام، الخطاب الذى وجهه كليبر إلى أعضاء ديوان القاهرة، وقد أوشك على انهاء مفاوضاته للخروج من مصر، دون أن يدرى أن رفض انجلترا لشروط معاهدة الجلاء، سيجبره على البقاء.

إنه يقول لهم ماسبق أن قرأناه في مذكرات «مواريى»، وكان ذلك فى الأول من فبراير ١٨٠٠، يتكلم كليبر عن الذكرى العطرة التى سيتركها عدل الفرنسيين وسط الشعب الذى حكموه بتعقل وحكمة. ويزيد علينا، لنعرف لغة الذئب عندما يتحدث إلى ضحاياه، يزيد علينا واجب قراءة الأسطر الأخيرة من الخطاب: «إن شعوب مصر، الذين تبعوا نصائحكم قد انصاعوا لأوامر السلطة: إن الوفاق الذى دام دائما بيننا وبينهم ماهو إلا نتيجة جهدكم ومكافأته، وأرجو ألا تكدر هذه الوحدة حتى تنفيذ بنود المعاهدة، وإذا ظهرت أية اضطرابات غير متوقعة لتعكر صفاء هذه الوحدة، سأضطر إلى قمعها بالسلاح . والسلام».

وهكذا انتهى الخطاب، وقارىء التاريخ يعرف ماحدث، إذ فشلت المباحثات ثم قامت معركة عين شمس، وتلتها مباشرة ثورة القاهرة الثانية التي استمرت شهرا كاملا على الرغم من تحذيرات كليبر، ولكننا نرى هنا أن «الديمقراطية» التى علموها للديوان لا مكان لها فى هذا الخطاب، فالأمر واضح بالنسبة للمهمة التى كانت موكلة للديوان وأعضائه.

ومن خطاب فى الخامس والعشرين من فبراير ١٨٠٠، نعرف من كليبر أن الفرنسيين قتلوا شخصا وأنه يخشى نتائج تلك الجريمة. ولذا، ونظرا لدخول «ثلاثة أيام العيد» فلابد أن يكون الاحتياط على أشده، و«ألا يخرج جندى واحد من مركزه أيا كان السبب (....) حتى يسود الأمان المدينة (القاهرة)» ، فالتوتر إذن مستمر، والخوف من الثورات قائم باستمرار، فعلى الرغم من أن الشعب مهزوم إلا أنه مازال يقاوم، ويشكل خطرا دائما، كما سبق أن فهمنا أيضا من الخطابات والتقارير السابقة كلها.

ونفهم من خطاب كتب فى الثامن والعشرين من فبراير ١٨٠٠ أن كليبر عرف أخيرا أن بونابرت هو المسيطر الوحيد على الأمور. فى فرنسا، وأن أسطورة الحملة قد بدأت تنتشر على غير حقيقة الأمور، ثم يكتب كليبر إلى وزير الحربية فى فرنسا، من بين طلباته، أن يعّرف «اليوم للجمهور المخدوع ما كان ينوى أن يقدمه مزينا بأبهج الألوان».

ونفهم من خطاب لـ «مينو» فى الرابع والعشرين من مايو ١٨٠٠ أنه

يأمل فى تأدية مهامه «عندما يهدأ البلد» مما يؤكد استمرار حالة القلق، بعد شهر من نهاية ثورة القاهرة الكبرى التي كانت قد انتهت فى أبريل.

ونكتفي بهذه النماذج لنعطى صورة سريعة لما كان يعانى منه الجيش الفرنسى فى مصر بعد سفر بونابرت، مما نستخلصه من الكتابات الرسمية وغيرها، وقد فضلنا ألا نلجأ إلى ما كان يكتبه المفاوضون الإنجليز لرؤسائهم عن حالة أعدائهم، فقد يكون فى كلامهم مبالغة، أو نية معينة، نظرا لظروف وجودهم وسط الفرنسيين آنذاك.

وقد يبدو بعد ذلك أمر الأحوال المالية للفرنسيين واضحا، لايحتاج إلى الكثير من نماذج الخطابات؛ فالخطابات التى تتحدث عن الحالة الاقتصادية للجيش تكاد ـ لكثرتها ـ تملأ كتابا خاصا بها، فلا نكاد نقرأ خطابا إلا ويشكو من الاحتياج الملح، ثم نقرأ أمر إرسال فرق لمصاحبة من كان مسئولا عن جباية الضرائب التى لاتنتهى.



فريسة تلهث وتستغيث والصياد على وشك النيل منها، وما من مساعدة تكفي لإنقاذها، هذا هو الانطباع الذى يخرج به القارىء بعد كل هذه الخطابات التى لاتكف عن طلب المعونة، وهى دائما معونة مالية لاتكفى إعاشة آلاف من الجند فى حالة تأهب مستمر، والمعونة الوحيدة هى الضرائب والتعسف فى المطالبة المستمرة، سواء كان ذلك من حق دولة الفرنسيين أم لا، فقد تكفل العثمانيون مثلا بتحصيل الضرائب على أن يكف الفرنسيون عن المطالبة بها ما داموا على وشك الخروج من مصر، سيتكفل الأتراك بمعيشتهم، ولكن هذا البند من المفاوضات لم

يمنع كليبر من المطالبة بجمع مايمكن جمعه والاستيلاء عليه، وتتلاحق الطلبات حتى يعجب القارىء للمرة الألف بعد المائة، من أين كان المصريون يدفعون كل هذا؟ ولا يفوتنا أن الأمر لم يختلف عما قرأناه فى الجزء الأول من خطابات كليبر، بعد نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية مباشرة.

فمنذ الخامس من سبتمبر ١٧٩٩، أى بعد سفر بونابرت مباشرة، يكتب كليبر أنه لم يجد مليما واحدا فى خزائن دولته.

ونفهم التوتر الذى يسود الخطابات التى يطلب فيها مثلا، وقف بناء فنار كان بونابرت قد أمر بإنشائه قبل سفره، لأن بونابرت «لم يترك عند رحيله مالية مزدهرة تسمح بأن نهتم، بمثل هذا المشروع الفاخر»، وكان هذا الكلام فى السادس عشر من سبتمبر ١٧٩٩، وقد يكون هذا هو السبب الذى جعله، فى السادس والعشرين من الشهر نفسه، يأمر أن يكون نصف قوافل البدو من نصيب الفرق التى ستستولى عليها، وكأن الجنود قطاع طرق، لايحاربون إلا من أجل الغنيمة. ولكن، ألم تكن تلك هى الحال عندما كان الجيش نفسه يحارب فى إيطاليا تحت قيادة بونابرت؟ ؛ وكانت ضروريات الاقتصاد تحتم على كليبر أن يأمر الجيش، فى الثلاثين منه، بارتداء زى قصير، حتى يقتصد فى النسيج المطلوب وبتلاحق المتناقضات، فنرى كليبر، مثلا يستمع فى الثامن من أكتوبر «لسكان المنصورية الذين يشكون أن الفرنسيين قد استولوا على بهائمهم، فلا بد من وقف مثل تلك الأفعال، والتفاهم معهم بالنسبة لما هو ضرورى لنا. وفى مثل تلك الأحوال فإن السياسة الوحيدة الرشيدة أن

يعطونا ولا نأخذ منهم»، نراه بعد هذا الكلام الجميل فى الثانى والعشرين من نوفمبر، أى بعد شهر ونصف الشهر، يأمر أحد قواده الحربيين، بالآتى: «من الضرورى أن تعيشوا على موارد البلد، سواء كان ذلك بالاستيلاء أو بأية طريقة أخرى، وإذا رأيت أن بإمكاننا الحصول على مؤن للتخزين، فعليك أن تصدر الأوامر الصريحة بذلك، وتجعلها تحترم بطريقة صارمة»، وكان أى تصرف يراه الفرنسيون فى غير صالحهم، يجازى بفرض ضريبة جديدة، تدفع بمساندة الجيش، الذى يرسل مع المسئول عن تحصيلها، قد يلخص الموقف ماكتبه كليبر فى الثانى والعشرين من يناير ١٨٠٠، بتعبير لانستغربه بعد كل ما قرأناه من وسائل شتى للحصول على المال، فهو يقول: «عزيزى الجنرال، علينا الآن أن نعصر مصر كما يعصر «الشريتلى» الليمونة، وبعد أن نقوم باستخلاص كل شىء من نقود إلى عينيات فإننا بالكاد، نكون قد حصلنا على ما نحتاج إليه فى هذه الظروف»....

و«عصر الليمونة» كان كما سبق أن عرفناه، هو، اللفظ الذى استعمله سياسى مرموق أيام حروب الثورة التحريرية، وهو يتحدث عن الدول التى تم «تحريرها»؛ وبالتالى، فكليبر باستعماله هذا التشبيه البليغ، يعبر دون أن يدرى، عن سياسة فرنسا فى كل البلاد التى ذهبت إليها جيوشها. والعجب أن يأتى هذا الكلام بعد كل ما قرأناه من وسائل الضغط للحصول على المال، فقد كنا نظن أن البلد قد «عصر» إلى آخر قطرة فيه، وسيزداد «العصر» عنفا بعد الثورة الثانية للقاهرة، فالفريسة مازالت تلهث: حكمت عليها الظروف، وانتصارها فى عين شمس على

العثمانيين أن تبقى تلهث فى بلد سبق أن تم «عصره» إلى آخر قطرة وما من أمل فى الحصول على عون من أحد.

قد تشرح لنا هذه الخلفية عن حالة الفرنسيين، ما سنراه الآن من معاملة كليبر للمصريين؛ هؤلاء المصريون الذين لاوظيفة لهم فى الحياة، إلا الإنفاق على الجيش الفرنسى.

★★★

كان فرض الضرائب وسياسة الاستيلاء يجعلان كليبر يتحدث طوال الوقت عن «الأقباط»، هكذا كان يسمى تلك الفئة من المصريين الذين تولوا ـ بمساعدة الجيش الفرنسى ـ تحصيل الإتاوات والضرائب، لأن البكوات من المماليك، كانوا يوظفونهم للغرض نفسه؛ مما يعنى أنهم فئة معينة من أقباط مصر، وهى فئة الذين يتولون شئون الحسابات، وقد أصبحوا الملتزمين لدى الجيش المستعمر، الذى كان يبيح لهم حق تحصيل الضرائب. وقد كانت سيطرتهم تامة على اقتصاد البلاد، حتى جعلت منهم المتحدثين الرسميين للشئون المالية للجيش الفرنسى أثناء المفاوضات مع العثمانيين، ونرى كليبر يبلغ فى خطاب بتاريخ الثلاثين من يناير ١٨٠٠ أن «الوزير العثمانى قد طلب أن يذهب أهم الأقباط إلى الصالحية، بعد مداولتهم مع مصطفى باشا، ليدبروا أمر المعاهدة، فيما يخص مؤن الجيش الفرنسى».

وقارىء الخطابات يصل إلى درجة الإشباع من كثرة تردد اسمهم، وكأنهم جزء من المستعمرين، فمصالحهم واحدة، وهؤلاء «الأقباط»

لايتحركون إلا بمساعدة فرق حربية، عرفنا سابقا من «فيفان دينون» كيف كانت تتصرف مع الفلاحين للحصول على المال المفروض عليهم، ففي السادس والعشرين من فبراير ١٨٠٠ مثلا، نقرأ: «إليك المرسوم التالي، الذي يفي بالترتيبات مع الأقباط، حتى يدفعوا للخزينة، شهرا بعد شهر، مبلغ مائتين وخمسة وستين ألف «باتاك» (١٢)، على حساب ضرائب مصر العليا والسفلى، ومن الضروري حمايتهم وتوفير القوة المسلحة التي قد يحتاجون إليها ليستطيعوا الوفاء بمستلزماتهم، هذا ما أرجو أن تفعله، أن تربط هذه العملية المالية بتحركاتك الحربية، وبقدر المستطاع» . وفي الثامن عشر من يناير ١٨٠٠ : «عليك أن تمتنع عن دفع أية مصروفات لأي من خدمات المهندسين أو المشاة، فالمال كله لابد أن يذهب إلى البحرية، عليك أن تضغط على الأقباط، وتلح عليهم بالتهديد، كي يحصلوا لك على المال...» . وفي الثاني والعشرين من يناير ١٨٠٠: «اضغط على الأقباط، وهددهم، وأرسل ثلاثمائة رجل من المشاة ومدفعين للجنرال دوجوا، لا لشيء إلا لتحصيل الضرائب سواء كانت مالية أو عينية»، ولنتخيل ما فعله المدفعان في تلك المعركة مع الفلاحين.

ثم تتغير لهجة كليبر مع «الأقباط» شيئا فشيئا، فهو مقتنع بأنهم يسرقون المال، فيبدأ في التهديد بقطع رأس من يتأخر منهم عن دفع ما اتفق عليه؛ ثم نراه يشكو منهم عندما يرسل تقريرا إلى «القنصل الأول بونابرت» في التاسع عشر من مارس ١٨٠٠، لأنه اكتشف أن «الأقباط قد خدعونا بأبشع طريقة فهم يقسمون إيرادات مصر إلى ثلاثة أجزاء:

ثلث للفرنسيين وثلث لهم، والثلث الأخير كانوا يرسلونه للبكوات والمماليك الهاربين.... إلخ إلخ إلخ»، والاسم الوحيد الذى لم يشك فيه كليبر يوما هو اسم المعلم يعقوب، الذى يتفوق حتى على حسن طوبار، رجل الفرنسيين الآخر فى مصر، والذى كان قد بدأ مجاهدا خطرا ضدهم... ثم تحول إلى مساعدهم الأكبر، ويتقاسم هذا الشرف اسم آخر، هو اسم حسين كاشف.

★★★

ولنا أن نتخيل كيف تكون العلاقة مع باقى المصريين ، بعد أن رأينا أنهم لايعاملون إلا «كليمونة» ماخلقت لغير العصر، أو نراهم أمام المدافع يدفعون المزيد من الضرائب، وقد يكون أول ما يلفت نظرنا وسط هذا الكم الهائل من الرسائل والمخاطبات الرسمية وغيرها، ما أرسله «ديوان القاهرة» إلى قائد القاهرة فى لغة ركيكة هى ترجمة خطابهم إلى الفرنسية : «تلقينا خطابكم الخاص بالمظالم التى تحدث فى المدينة، والذى تطلب فيه من الديوان ألا يخشىء شيئا ، فأنت تظهر الحق دائما، لأنك مجبر على توفير العدل للشعب ، خاصة الفقير . وما أجمل النظام الذى تهديه اليوم إلينا ، لقد فرح به كل شخص . وسنخبرك من الآن فصاعدا ، كما أمرتنا ، بكل المظالم التى سبق أن حدثت، لتعرف كل الشرور التى تقع علينا فى المدينة، وذلك دون خوف من أى شخص، مادمت تساندنا بسلطتك، لأن واجبك أن تعرف الشعب بواجباته، والحكومة باحتياجاتها ، مما لابد أن يدركه كل عضو يعرف ما حدث فى المدينة . ونحمد الله على النظام الذى أعطيتنا إياه . حفظك الله»، وتاريخ

هذا المكتوب السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، ويبدو إيجازه غريبا على ذلك العصر ، وقد يكون فى هذا الإيجاز أبلغ تعبير عن الشكوى المكتومة «لما يحدث علنا فى المدينة» ، ناهيك عن «واجبات الشعب واحتياجات الحكومة» !

ومع هذا الخنوع الظاهرى ، وفى خط مواز له ، نجد فى التقرير الذى سبق أن قرأنا جزءا منه ، المرسل فى سبتمبر (أى فى الشهر نفسه) إلى حكومة «الإدارة» : «التعصب الإسلامى ضدنا لا يروض بأية وسيلة . فهذا الشعب لا يرى مسيحيين يحكمونه إلا بصبر نافذ ؛ ولا تمنع أقسى العقوبات سكان القرى من الثورة عند سماع أى خبر فى غير صالحنا أو أى فرمان ضدنا ينشر بينهم» . فالمدينة والقرى إذن فى حالة من التأهب للثورة ضد مظالم الجيش المستعمر ، ومذكرات «مواريى» أحسن دليل على تلك الحال من التذمر المستمر الذى ينبىء بما سيحدث فى ثورة القاهرة الكبرى بعد ذلك بأشهر معدودة ، بينما حركات التمرد فى الريف مستمرة .

وفى خطاب بتاريخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، نقرأ كلاما غريبا ، إذ يتساءل فيه كليبر عما إذا كان «حسين أغا قد دفع الخمسة آلاف «تاليرى» ثمنا لحريته (...)، والسؤال نفسه بالنسبة لمصطفى بشتيلى ، المحكوم عليه بأربعة آلاف وخمسمائة «تاليرى» ، حسب التقرير المرسل عن سجناء القلعة . وأنا أرى أشخاصا كثيرين آخرين مستعدين لشراء حريتهم» .. فكل شىء بثمنه، والحرية أولا التى

تستعمل كسلاح لإجبار المصريين على دفع ما يفرض عليهم من إتاوات، أو ربما فقط كثمن لإخلاء سبيلهم بعد القبض عليهم لسبب آخر .. أو حتى دون سبب . وهذا هو مفهوم «الحرية» التى تعلمها المصريون من الجيش الفرنسى ؛ ونلاحظ أنها المرة الوحيدة التى تستعمل فيها كلمة «حرية» ! وفى مكتوب آخر بتاريخ السادس عشر من سبتمبر، أى بعد ذلك بيوم واحد، نفهم أن الشيخ السادات قد تم احتجازه لدفع كل ما يملك . فكليبر يقول : «سيعاد إليه كل شىء ماعدا ثلاثة مراكب سننظر فى أمرها ، حتى أعرف إن كانت لازمة ضرورية لإعادة الجسر، ....، إن نيتى، بصورة عامة، هى احترام المؤسسات الدينية الخاصة بالإنفاق على المساجد ومشايخها ، ولذا، فمثل هذه الطلبات من أجل استرداد هذه الأشياء لابد أن تقبل دائما» . والنية حسنة ، حتى لا يثور الرأى العام ؛ فالمؤسسات الدينية لابد أن تحترم ، وكانت تلك هى سياسة بونابرت من قبل ؛ ولكن كلام كليبر يدل على أن الاستيلاء يتم أولا، ثم ينظر فى الأمر فيما بعد .

وكثيرا ما تصدر الأوامر لمعاقبة القرى التى لا تفى بطلبات الجيش، وهى طبعا فى تناقض مستمر مع النيات الحسنة ؛ ونأخذ كمثل لها الأمر الذى صدر فى اليوم نفسه لمعاقبة قريتين لم تمتثلا لأمر صرف الغلال والحبوب التى يحتاجها الجيش . وتلفت نظرنا جملة فى خطاب بتاريخ السابع عشر من سبتمبر ، تبدو لنا بليغة فى تعبيرها ؛ إذ يقول كليبر للقائد الحربى فى دمياط : «لن نخشى أى نزول (للأعداء) على

الشواطىء لمدة ستة أشهر ، وبالتالى ، فإن لديك من الفرق ما يسمح لك بالسيطرة على البلد وتحصيل الضرائب» .. فالضرائب لا تحصل إلا بمعونة الجيش وباستخدام القوة ، ولابد من «السيطرة على البلد» أولا؛ كلمات تتكرر لدرجة الملل ، فلا ضرائب دون قوات مسلحة بكامل أجهزتها الحربية، ولا فرقة حربية دون تحصيل ضرائب . ولا يسع القارىء إلا الابتسام بمرارة ، عندما يكرر كليبر أسفه لما يقترفه الجيش من أعمال، كالذى نقرؤه مثلا فى خطابه إلى قائد المنيا الحربى، فى الثامن والعشرين من سبتمبر، يقول فيه : «كان أمرا رائعا أن تعاقب القرى المتمردة ؛ ولكنه أمر مؤسف أن نضطر إلى مثل هذه الوسائل؛ ورأيى أن الدرس المرعب الذى أعطيته لهم سيكون عبرة وستكون نتيجته قطعا ما ننتظره (من الآخرين)» . ولا ندرى إن كان واجبا على القارىء أن يشكر كليبر على تلك المشاعر الرقيقة .

وثمة خطاب يبدو غامضا للقارىء ، إذ يقول فيه كليبر لقائد من قواده «المواطن شامبى يطالب أن يكون لتلاميذ المدرسة نصيب من الملابس التى توزع على الفرق . ولا يسعنا إلا الموافقة على طلبه ؛ ولذا أرجو أن تصدر الأوامر حتى يحصل كل تلميذ على زى كامل بأقصى سرعة» . فما تلك المدرسة التى لم نسمع عنها ، اللهم إلا إن كانت المدرسة التى يتعلم فيها المماليك الذين استولى عليهم الفرنسيون ، أو انضموا إليهم ، أو الأقباط الذين اختارهم المعلم يعقوب ، ليتعلموا نظام فن الحرب الغربى ، ونحن نميل إلى هذا الشرح بسبب أمر إلباسهم زيا

كباقى الفرق، خاصة أننا لم نقرأ ما يفيد أن الفرنسيين علموا المصريين أى شىء، أو فتحوا لهم أية مدرسة .

نجد أيضا وصفا شاملا لحالة الشعب المصرى ، فى التقرير الذى أرسله المسئول الذى سبق أن استعنا بمكتوبه، والذى أرسل إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من أكتوبر عام ١٧٩٩ ؛ يقول فيه مراسلنا كيف خُدع الفرنسيون فى موارد البلد حتى أن «خمسة عشر شهرا من الأبحاث والتجارب من قبل رجال مستنيرين ، لم تستطع حتى الآن محو هذه الانطباعات الخادعة (عن ثراء البلد)» فمجمل العائد «بصرف النظر عما يسرقه - بكثرة - الأقباط ، الملزمين بتحصيلها ، يوازى بالتقريب أربعة عشر مليونا لاغير» ، وقد «حصل الجنرال بونابرت، عند وصوله ، على أربعة ملايين تقريبا، من الشعوب المختلفة والتجار، ومن الضرائب غير العادية ،...، ولم تعد الظروف تسمح لنا بعمل المثل ، وعلى الرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، فإن الشعب المصرى يمكن أن يعتبر شعبا وديعا ولكنه كتوم ، ولا نستطيع أن نقول إنه يحبنا، مع أننا عاملناه أفضل، بكثير، مما يعامل به أى شعب مهزوم ، ولكن اختلاف التقاليد ، خاصة الدين ، واختلاف اللغة عوائق لا حيلة لنا فيها ولا تسمح بأية عاطفة صادقة ،...، المصريون يبغضون المماليك ويخشون سيطرة قسطنطينية، ولكنهم سيفضلون حكمنا على حكم أى من الدول التى يسمونها مسيحية» .

«ولنا فى كل مكان عشرة آلاف عدو خفى ، وصديق واحد ظاهرى» ،

وماهذا إلا نموذج لما ينفرد بشرحه هذا التقرير الطويل الذي يصعب تقديمه للقارىء كاملا .

ويبدو أن حدثا جللا وقع في دمياط ، لأن قائدها مينو يكتب إلى كليبر في الثالث من نوفمبر قائلا : «كان لحادثة دمياط أحسن تأثير، فمن كان ينوى أن يرفع رأسه منهم، يحاول أن يخفيه الآن بين سيقانه» ؛ ولا نعرف ما الذي فعله حتى يصل إلى هذه النتيجة ، ولكننا نتخيله بسهولة .

ويتوالى الخطابات ، ويتغير الكلام والأهداف هي نفسها ؛ فلا نجد ضرورة لتكرارها . غير أن هناك بعض كلمات لافتة للنظر ، مثل الأمر الذي صدر ضد من تبقى من سكان بولاق على قيد الحياة، بعد المجازر والحرائق التي أعقبت ثورة القاهرة الثانية ، وذلك في السادس عشر من إبريل عام ١٨٠٠؛ إنها المبالغ الباهظة المطلوبة ، على أن تدفع في ظرف عشرة أيام لا غير . والذي يقرأ تلك الأوامر يتأكد أن «الليمونة (كان يتم) عصرها» بطريقة منظمة ومستمرة في كل الظروف ، ومن توابع الثورة ، ذلك الخطاب الدوري إلى الجيش في التاسع عشر من مايو عام ١٨٠٠، الذي يدل على أن الاضطهاد مستمر يوميا: «يتلقى القائد العام التماسات وشكاوى من سكان مدينة القاهرة يوميا ، بسبب اهانات وابتزازات أخرى يمارسها قواد المناطق بطريقة تعسفية؛ وتدلنا تلك الشكاوى . على وقوع تجاوزات أخرى مشينة، فهناك إفرنج ومسيحيون آخرون يدعون أن أشياء تخصهم قد سلبت منهم أثناء الثورة ، يذهبون إلى هؤلاء القواد زاعمين - بحق أو

دون حق - وجـود تلك الأشياء في منازل محمديين (مسلمين) وبناء على ذلك فإن هؤلاء القواد يصدرون أوامراهم بفتح تلك المنازل ، ويسمحون للمسيحيين - دون أى أمر رسمى - بأخذ الأشياء التي يدعون ملكيتها . مثل هذا التصرف لا تكون له إلا نتيجة واحدة، ألا وهي نشر الذعر والرعب في النفـوس بدلاً من عودتها إلى السكينة والثقة التي توطد الهدوء العام، ولابد من وقف مثل تلك التصرفات فورا»، ولم نسمع عن معاقبة أحد بعد ذلك ..

إن قارىء التقرير الذى أرسل إلى فرنسا عن كبح الثورة ، والوصف السعيد لكل الفظائع التي اقترفها الجند أثناء ذلك كي يشفوا غليلهم ، لن يعجب - هذا القارىء - إذا ما ارتكب بعد ذلك ما يراه كليبر «مشينا» ، فمن الطبيعى أن تتحول القاهرة إلى مرتع لكل من أراد أن ينتقم لنفسه من جار أو صديق لأمر ما؛ وترشدنا مساعدة الضباط الفرنسيين إلى ما كان يحدث غير ذلك من تصرفات ، في مدينة هزمت وأحرقت وأذلت؛ وكان كليبر نفسه يرى أن انتقام الجند منها كان أمرا مشروعا ، ومن حق الجيش المنتصر .

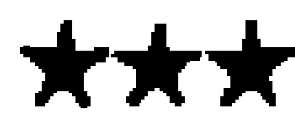
وبعد تلك اللفتة «الإنسانية» ، تكون الأوامر التي ترشدنا إلى معنى «السكينة والثقة» عند كليبر ، وهي الأوامر التي تخص حادثة القبض على الشيخ السادات وضربه ؛ تلك الحادثة الشهيرة التي أثارت الرأى العام، آنذاك ، بصورة فجة .

وأول حديث عنها ، تجده في خطاب العاشر من مايو عام ١٨٠٠

الذى يقول فيه كليبر : «بناء على خطاب المعلم يعقوب ، سترسل ضابطا من القيادة العامة إلى القلعة ، ليبلغ الضابط «دوبا» أن يأمر بتجهيز عدة ضرب العصـا الخاصـة بالسـادات البخـيل؛ ولحظة تنفيذ ضرب السـادات ، يدخل ضابطك إلى السجن، ويسلم «دوبا» أمر وقف تنفيذ الحكم ، ويؤخذ المجرم إلى منزله ومعه عشرون جنديا تحت قيادة ضابط مسئول مسئولية تامة عن السجين ، وكذلك تابعى الذى ستحمّله أنت شخصيا هذه المسئولية . وسيقال للسادات إنه إن لم يدفع فى ظرف ستة أيام من اليوم ، مبلغ مائتين وخمسين ألف «باتاك»، سيرسل مرة أخرى إلى القصر (القلعة) هو وزوجته ولن يخرج منه» . ونذكر هنا أن السيد كريم كان قد اتهم هو أيضا بالبخل عند الحكم عليه بالإعدام. من البديهى أنه قد قبض على الشيخ السادات بعد وشاية من المعلم يعقوب. وبعد تلك الأوامر، نجد خطابا طويلا من الشيخ السادات بلا تاريخ، موجها إلى «القائد كليبر» ، يذكره فيه: «لقد كنت دائما صديقكم منذ وصول القائد العام بونابرت والفرنسيين إلى القاهرة» ؛ وأن ما أخذه منه المحروقى لم يكن إلا سلفة ؛ وأنه فى الثامنة والستين من عمره ولم يضربه أحد فى حياته ، «ولا والدى ولا من ربونى» ؛ ويذكره أيضا أنه من بيت كانت له مكانته منذ خمسمائة عام، وأن الجميع ، حتى الأمراء كانوا يحترمونه . وأن الجنرال بونابرت نفسه قد أحبه واحترمه . فهو يتوسل إليه لأنه يضرب فى اليوم مرتين ، وأن على من يتهمه بأن لديه مالاً يخفيه، أن يخرجه بنفسه . وبعد ذلك بصفحات عديدة ، نجد خطابا بتاريخ الثانى والعشرين من مايو عام ١٨٠٠، يفيد بالآتى :«فليصدر

الجنرال (داما) أوامره حتى تسلم زوجة الشيخ السادات الى الشيخ سليمان الفيومى . وسيرحل الشيخ السادات نفسه إلى القلعة ، وله حق اختيار خادمين» . ثم «إلى قائد القلعة فى الثانى من يونيو عام ١٨٠٠ .. فليترك الشيخ السادات لشأنه مادام مصرا على موقفه ؛ ولكن عليك مراقبته حتى لا يستطيع الهرب» . هكذا كان يعامل صديق الفرنسيين .. فما بالك بالآخرين .

وقد اعتبر الناس ، فى ذلك الوقت ، ما حدث للشيخ السادات وهو من أكبر مشايخهم ، رمزا لما يعانون من تعسف . ولهجة الاحتقار التى يستعملها كليبر فى الحديث عن السادات تفى بما يكفى لنتخيل كيف كان يعامل باقي المصريين ، إن كانت تلك معاملته لأحد كبارهم .



وهناك - من ناحية أخرى - قصة الفرنسيين والمماليك، وأشهرهم طبعا مراد بك ، ونكتفى بقصتهم معه . فكل الخطابات تدل على أنه وأنصاره كانوا يمثلون ، دائما، خطرا محدقا يهددهم ويمنعهم من السيطرة على مصر العليا ، أى الصعيد ، ويحرمهم من خيراتها . ونفهم - سواء كان ذلك من التقارير المرسلة إلى فرنسا ، أو الأوامر المرسلة إلى القواد الحربيين - أن البدو ومراد بك ومماليكه ، لا يتركون الفرنسيون يهنأون بالراحة يوما واحدا ؛ وإذا ما انتصر عليه الفرنسيون فى معركة واحدة ، فهم فى كل مرة يأسفون لأنهم لم يستطيعوا الإجهاز عليه . فالفر والكر كانا أساس

هجومه ، مما جعله هو وجنده كالسراب ؛ كلما لحق بهم الفرنسيون ، اختفوا ، أيا كانت خسائره ، وكانت دائما ضئيلة . ونعرف من خطاب بتاريخ الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٧٩٩ ، أن ثلث الجيش الفرنسي يتمركزون فى الصعيد من أجل محاولة القضاء عليه ، مما كان يضعف طبعا الجيش الفرنسي كله ، ويدل على أهمية مراد بك وخطره عليهم .

ولكن الأمور تتغير عندما تدخل المفاوضات مع العثمانيين والانجليز فى مرحلتها الحاسمة ، وينتظر الجميع – وأولهم الفرنسيون – أن يحل الجيش العثمانى محلهم فى مصر . ولذا ، لا نعجب عند قراءة الخطاب التالى ، المرسل من مراد بك ، إلى القائد الفرنسي الذى يحاربه . يقول له فى الثامن من فبراير عام ١٨٠٠ : « إلى الجنرال الفرنسي . كتب لى كل من الوزير (العثمانى) وإبراهيم بك أن السلام قد تم مع الفرنسيين ، وأن علىّ أن أمتنع عن أى فعل عدائى ضدكم . وعلى الرغم من ذلك ، إلا انكم مازلتم تطاردوننى ؛ فإذا حدث مكروه فستكونون أنتم البادئون . لقد أخبرتكم بما حدث، وعليكم أن تتوقفوا عن مطاردتى وتأكدوا أننا فى هذه الحالة، لن نضير أى فرنسي . حامل هذا الخطاب سيفيدكم بالباقى». وفى الحادى عشر من فبراير ، يهنىء كليبر الجنرال الذى تلقى هذا الخطاب على قبوله «الهدنة التى عرضها مراد بك ، نتيجة المعاهدة مع الوزير (العثمانى)» .. ولا يمنعه ذلك من تهنئته مرة ثانية بعد ذلك بأسبوع، فى التاسع عشر من فبراير، عما «قام به ضد مراد بك وسكان

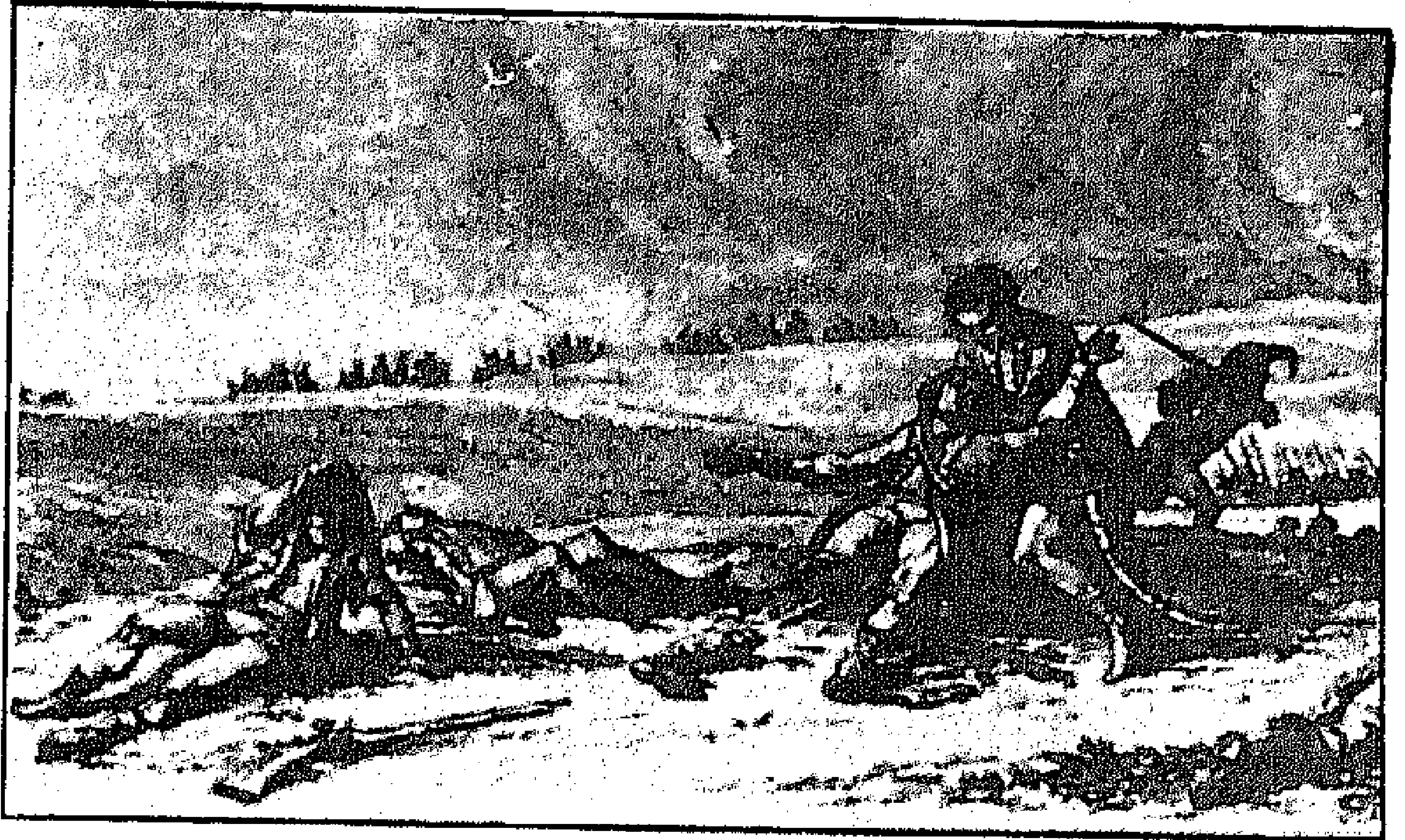
مقاطعة بنى سويف»، أى أن الهدنة لم تمنعهم من مُحاربة مراد بك. ثم تكون الخطوة التالية ، عندما ذهب سكرتير المعهد الفرنسى، كمندوب لكليبر، ليعقد اتفاقا مع مراد بك ، عن طريق زوجته «الست نفيسة»، ليعرض عليها صداقة الفرنسيين لو أن مراد بك انفصل عن قوات العثمانيين؛ إنه يعرض عليها أن يقتسم الفرنسيون الحكم على مصر مع مراد بك، إلى أن تنتهى الحرب فى أوربا ، فيترك له الفرنسيون الحكم على البلد كله . وينتهز الرسول فرصة وجوده مع «الست نفيسة» ليطلب عفو «جواريها وجوارى إبراهيم بك اللاتى يعشن مع الجنرالات الفرنسيين،خاصة تلك التى تعيش عندك (كليبر) والتى طلب منك الجنرال دوجا حمايتها» .

صدق «فيفان دينون» عندما قال إن الفرنسيين حرروا مصر من المماليك ، وحلوا مكانهم ! وكانت جوارى الجند أقل حظا . فقد أخذ أسيادهن فى بيعهم عند الرحيل ، وكانت البحرية الإنجليزية هى التى تشترى منهم كل شىء : السلاح والجوارى . هذا ما يصفه المؤرخ «ماكيزى» فى كتابه عن «النصر البريطانى فى مصر» .

ولنعد إلى الخطاب السابق ذكره ، لنقرأ البقية : «وعدت هذه السيدة أن تضم صوتها إلى صوت الشيخ الفيومى (...) حتى لا تصاب هذه الجوارى بأى أذى . سترسل «سيلون» إلى بيت الشيخ، ومما لاشك فيه أنها ستكون فى مأمن عنده. وقالت الست نفيسة إن الجنرالات الفرنسيين يعيبهم أنهم خطفوا أجمل جواريهم ، وكان خطأ هؤلاء



،معركة سيدمان جنوب الفيوم بجانب بنى سويف،
(نرى فيهما ماتكبده الفرنسيون من المقاومة المصرية)



الجوارى تغيير بيوتهن. ولكن لابد أن ينظر إلى هذا النوع من الأخطاء برأفة» . ولم نعرف ماذا سيحدث بعد ذلك لهؤلاء الجوارى ..

لن نعجب، بعد هذا الخطاب ، إن قرأنا فى التقرير الذى أرسله كليبر إلى الحكومة الفرنسية عن الأحداث التى مر بها هو وجيشه منذ فشل معاهدة العريش ؛ نقرأ بقلمه : «عندما وصلت شروط المعاهدة العريش، بعث مراد بك يطلب صداقة الفرنسيين»، والدليل عندنا أن العكس هو الصحيح . والأكاذيب التى ستستجد هى التى ستصبح الرواية الرسمية للتاريخ الفرنسى ، إذ يضع كليبر على لسان مراد بك بعد ذلك، ما يحلو له ليفخم دور القوات الفرنسية التى لم تستطع ، حتى آخر لحظة ، القضاء عليه والسيطرة على الصعيد ؛ وزيارة سكرتير المعهد إلى «الست نفيسة» خير دليل على ذلك . أما علاقة مراد بك بالفرنسيين بعد ذلك ، فالكل يعرفها لأنها جزء من التاريخ المعترف به من كل جانب.



ولكن ما لا يذكره التاريخ ، هو ما يبدو للوهلة الأولى كذبة كبيرة . فالمعروف أن كليبر كان يرفض فكرة تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية ، مما جعله على غير وفاق مع بونابرت . وبسبب تلك المسألة ، نجد كثيرا من الخطابات المتداولة بينه وبين مينو الذى كان يحبذ الفكرة، بل كان من أكبر أنصارها ، فكانت سبب خلاف عنيف بينهما. وقد قُتل كليبر بعد ثورة القاهرة الثانية بفترة وجيزة ، ويبدو أن عدم اهتمام الحكومة

الفرنسية بحاله هو وجيشه، ويأسه من الوصول إلى معاهدة مقبولة للانسحاب من مصر ، جعلاه يعيد النظر في خططه .. فكان المشروع التالى؛ مشروع جذب يونانيين إلى مصر ليقوموا بالدور الذى قام به الأوربيون والفرنسيون بعد ذلك فى الجزائر .

وأول تنويه عن الموضوع ، نجده فى خطاب بتاريخ السادس من مايو عام ١٨٠٠ ، أى بعد ثلاثة أسابيع تقريبا من نهاية ثورة القاهرة ، يقول فيه كليبر لأحد قواده : «أنا سعيد جدا أن تجنيد نيكولو قد نجح إلى حد ما ؛ احمه بقدر المستطاع ، هو ورئيس كنيسته بالإسكندرية لأننى أظن أن هذا هو العون الوحيد الذى يمكننا أن ننتظره ، ولو أن مامن شىء مضمون» .. وبعد هذا الكلام الغامض ، تتضح الرؤية فى الخطاب المرسل إلى قائد منطقة دمياط الذى نقرأ فيه : «استمر فى حماية المراكب اليونانية التى تصلك من الموانىء المختلفة (...) وقل لهم أن يخبروا مواطنيهم بأننا سنستقبل الذين يريدون الهجرة من بلدهم ليستوطنوا فى مصر ، بكل الحفاوة الممكنة . سألحق بالخدمة من كان منهم جنديا أو بحارا ، وسأعطى أرضـا للفلاحين ، والتجار منهم سيتمتعون بأكبر قدر من الحرية ، وسيكـون من حقهـم بنـاء الكنائـس فى كل المدن حيث سيكون لهم مطلق الحرية فى ممارسة طقوس دينهم علنا» .

ومرة أخرى، يكتب كليبر الكلام نفسه، ويقدم العروض نفسها، ولكنها لقائد الإسكندرية هذه المرة .

وقد يكون هذا المشروع ، حسب علمنا – والله أعلم – الوحيد الذى نراه فى حيز التنفيذ ، فى حالة استعمار مصر نهائيا ، ولا نرى فيه أى تنويه لأى من مبادىء الثورة أو تحضير الشعب المصرى وتعليمه .

★★★

وعلاوة على مشروع «عصر الليمونة» ، فهناك مشروع آخر لكليبر وقد نجح بالفعل . ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٧٩٩، صدر «للقائد العام كليبر» ، أمر من أربعة بنود: أمر كليبر فى بنده الأول، «بتشكيل لجنة وظيفتها جمع كل المعلومات التى تساعد على معرفة الحالة الراهنة لمصر؛ معلومات عن تقارير الحكومة، والقوانين، والعادات المدنية ، والدينية والخاصة، عن التعليم العام والتجارة» .. إلخ إلخ إلخ .. وفى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٧٩٩ ، يزيد على مشروع اللجنة أن «الفرنسيين ،...، الذين زاروا مصر العليا ، بالنسبة للعلـوم والفنـون ،...، عليهم أن ينضموا إلى اللجنة لأن الهدف واحد، وهو جمع المعلومات لنشر التعليم والمشاركة فى بناء نصب أدبى جدير بالاسم الفرنسى».. يلى هذا، الإجراءات الإدارية لتنفيذ المشروع، دون أن نفهم بالضبط ماذا يعنى كليبر «بنشر التعليم» وأين؟!.. ويبدو أن الفكرة قد تبلورت مع الأيام، ففى الخامس والعشرين من نوفمبر ، يحدد أخيرا «الهدف الذى يجب الوصول إليه وهو إعفاء الأجيال القادمة من البحث – تحت أطلال القرون وفى بحر من الافتراضات – عما كانت عليه مصر فى المرحلة التى مر فيها الفرنسيون من عهد الملكية إلى عهد

الحكومة الجمهورية» .. وضحت هنا رؤية كليبر وهدفه ، وفهمنا إذن أن الفرنسيين هم المستفيدون من عملية «التعليم» السابق ذكرها . وأثناء مفاوضاته مع الإنجليز ، يطلب كليبر من المفاوض الإنجليزى فى السابع من ديسمبر ، إذنا خاصا للفنانين ورجال الأدب ، «فأوربا كلها لابد أن تنتفع بأبحاث غاية في الأهمية ، قاموا بها فى هذه البلاد» . وعندما يرسل تقريرا إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من يناير عام ١٨٠٠ ، يتوقف طويلا عند «وصف مصر القديمة» . ويتحدث عن «الحيوانات والنباتات وكل المنتجات الطبيعية لهذا البلد ، التى درست ووصفت: نتائج هذا العمل ستثرى المجموعات الوطنية ،...، هذا المشروع الأدبى ستستقبله حكومات أوربا كلها وسيكون له أحسن استقبال فى بلد ، تشجع فيه الحرية كل الفنون ،.....، هذه الأبحاث عن الحالة الراهنة والحديثة لمصر تمثل أمرا مهما للفلسفة والسياسة» ..

يبدو كل هذا الكلام طبيعيا من رجل القرن الثامن عشر ، تلميذ فلسفة التنوير ، المتعطش لكل جديد ، ولمعرفة كل شىء، المهتم جدا بعرض النتائج مع المجموعات المعروضة بالفعل، فى المتاحف للجمهور الفرنسى لتعليمه . ولا يفوت رجل الثورة أيضا أن يعيد ما يعتبر من مستلزمات لغة العصر عن «الحرية» وإيجابياتها ، بينما كان حب العلم فى الحقيقة، ومعرفة كل جديد ، بل حتى وإنشاء المتاحف، من موروثات العهد الملكى ؛ بما فى ذلك الهدف «السياسى» الذى يكتب عنه كليبر . أيا كان ، فقراءة التقرير طويلة ، ولا يمكننا تقديمه بالكامل ؛ ولكن، علينا أن ننتقى الجمل التى تعتبر نواة لما سيصبح كتاب «وصف مصر».

فكليبر يبلغ الحكومة عن سفر أحد أعضاء اللجنة «الذى انتخبه كل زملائه بالإجماع ليتولى الإشراف على طبع كتاباتهم ،...، وقد رأيت أن أحتجز بجانبى ، وبأوامر واضحة ، أعضاء اللجنة الذين تكون أبحاثهم خاصة بالجيش ، وبمصلحته المباشرة» .. الكلام واضح ، ولا يحتاج لتعليق : هذه الأبحاث لها هدف مباشر فى مصلحة الجيش المستعمر .

وفى الأول من فبراير عام ١٨٠٠ ، يهنىء كليبر رئيس لجنة الفنون ، ويسمح له بمراسلة الجمعية الملكية بلندن «فالتداول المتبادل بين التنويريين مهم للعلوم ، ولا يجوز أن توقفه الحروب السياسية» ، مما يثبت أهمية البحوث العلمية بالنسبة للرجل ، بصرف النظر عن أية قيمة نفعية ، لأنه فعلا – وعمره كما سبق أن رأينا يؤهله لذلك – من تلاميذ مدرسة التنوير ، وقيمها العلمية المجردة حتى إن استفاد منها أيضا سياسيا وعسكريا .

ولكننا نلاحظ أنه يبحث أيضا عن المجد لوطنه ، فتلك الدراسات التى يفخر بها – وبحق – إن نشرت ، فهى فى واقع الأمر ، المكسب الوحيد الذى غنمته فرنسا من الحملة على مصر .

ولكن خطابا خاصا إلى أحد الوكلاء الفرنسيين ، فى الثانى والعشرين من مايو ، يجعلنا نظن أن الأمر فى حقيقته ، لم يكن منزها من الأغراض ؛ فكليبر يقول : «لقد تقدمنا كثيرا فى هذا الكتاب الشهير، الذى يخص طبيعة الضرائب فى مصر؛ ولا يبقى لنا إلا معرفة الكثير من الحقوق الصغيرة، غير المكتوبة ، والتى يبدو أن التقاليد قد رسختها ؛ ثم

معرفة النسبة المطلوبة من كل قرية ، وأسماء تلك القرى كلها : كل هذا طويل جدا ، لأن علينا أن نعمل مع الأقباط» : هل كان يقصد بهذا ما أصبح بعد ذلك كتاب «وصف مصر» ؟ أم أن تلك الأبحاث كانت تخص ترشيد الضرائب كي تجمع بشكل أفضل فقط ؟، ولكنه يقول : «الكتاب الشهير» ؛ هل يضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ؟ ممكن ..

أيا كان ، فإن كليبر قد مات ، وتولى مينو تنفيذ المشروع الذى ذهب مع علمائه إلى فرنسا ، حيث عرف الإمبراطور نابليون بعد ذلك كيف يمكن أن يستفيد منه لدعايته الشخصية ، وظهر الكتاب مهدى إليه لمزيد من التمجيد الشخصى ، ويحمل شكراً «للفرنسيين الذين قاموا بكتابته» كما تقول صفحته الأولى ، وكما أسلفنا فى الجزء الأول .

★★★

وبعد، فقد انتهينا الآن من قراءة الأجـزاء الأربعـة للمكاتبات الرسمية والخطابات الخاصة التى جمعها «هـنرى لورانـس» عن عـصر كليبر، منذ أن كان قائدا للإسكندريـة، حتـى طعـنه سليمـان الحلبـى فى مقـتل. وقد تعرفنـا علـى الأوامـر والمشروعـات التـى كانت تخرج من مكتب القائد العام لمصر. ولم نجد فـى تلك المشروعات – كما سبق أن قرأنا فى كل ماكـان يمارسه كليـبر من سلطـات – أى تنويه عن أى مشروع حضارى يفيد المصريين أو يعلمهم جديـدا فـى أى ميدان، حرفيـا كان أم ذهنـيا : كان كليـبر يقـود جيشا استعماريا، يمارس عنفه الطبيعى نظرا لطبيعته كمستعـمر، ذلك

العنف الذى ينتظر من أى جيش استعمارى في أى بلد وفى أى وقت، لاغير .

إن الذين قتلهم كليبر بحكم إعدام فردى - والحق يقال - أقل مما فعل بونابرت بكثير ، ولكن ضحايا ثورة القاهرة الكبرى ، وضحايا السلب من بعدها ، أكثر بكثير منهم أثناء حكم بونابرت. أما ضحايا الأقاليم ، فالعدد لم يتغير طبعا . والاختلاف بين شخصيتى القائدين وفلسفتيهما ، جعل الصورة تتغير كلية من حكم إلى حكم ، خاصة فى ظل الظروف التى جدت ، والتى كان على كليبر أن يعمل لها ألف حساب .

وكان هدف كليبر الأول ، أن يجمع المال بأية طريقة ليشبع جيشا كان فى حالة من التذمر المستمر ، خاصة أن قائده السابق هرب وتركه يتصرف فى ظروف قاسية ، كان جيشه هو أول من دفع ثمنها . ومعاملة كليبر للمصريين لا تدل على أى نوع من الاحترام أو التقدير لأى مركز أو هيبة ، حتى لأكبر كبرائهم ، لأنه لا يبحث عن أى مجد ذاتى؛ فهو لا يتملق الشخصيات العامة - كما كان بونابرت يفعل. كان - بصفته جنديا محنكا ، دون أية أطماع سياسية - لا ينظر إلى البلد المستعمر إلا بالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يفيده بها هذا البلد .. إنها «الليمونة» ، عليه عصرها إلى آخر قطرة ، وحتى بعد ذلك . ولا ننسى أنه هو نفسه قالها فى العديد من الخطابات .. إنه لا يرى أى

مستقبل لوجود فرنسا فى هذا البلد الذى يرفض فكرة استعماره لأسباب لا مجال لذكرها هنا . ومن البديهى أنه أجبر على تقبل الفكرة ، بعد انهيار اتفاقية العريش وثورة القاهرة ، فأخذ يبحث عن بديل للشعب المصرى، كأن مصر بلد بلا شعب ، لأنه يدرك تماما مدى رفض المصريين للفرنسيين ، فهو يراهم كبرميل بارود يمكن أن ينفجر فى أية لحظة - وقد كان .

***

تولى مينو السلطة بعد وفاة كليبر ، وخرج بالجيش مهزوما عام ١٨٠١ .. وبدأت أسطورة نابليون وأسطورة الحملة بسياسة عبادة الفرد فى عصر الإمبراطور ، وبعد هزيمة نابليون بدأت أسطورة أخرى، بأقلام الفنانين والأجيال الجديدة من الحالمين بمجد فرنسا الحربى تحت إمرة إمبراطورهم المنفى . ومرت العقود، وجاء بعض الفرنسيين فى عهد محمد على، مثل «السان سيمونيين» العابدين لنابليون ومشروعه الاستعمارى؛ وقد لعب محمد على بذكاء شديد على مشاعرهم تلك ، مؤكدا لهم أنه سلف نابليون الأمين .. وصدقوه .

ولن نتعرض لكتابات «السان سيمونيين» عن مصر ، لأنها تاهت مثل الجدول الصغير فى الصحراء ؛ ولم يتركوا أثرا يذكر ، لا فى فرنسا ولا

فى مصر . وقد استطاعوا بعد ذلك ممارسة أحلامهم الاستعمارية بنجاح كبير فى الجزائر الفرنسية ، بعد أن عرف محمد على كيف يستفيد من تقنياتهم الهندسية ، دون أن يترك العنان لأحلامهم الخاصة، ودون أن يمنحهم فرصة السيطرة على غير المشروعات البناءة لصالح مصر فقط .

ولكن فرنسيا آخر عاش فى مصر، وكانت شهادته على ما تركه فرنسيو الحملة من آثار، غاية فى الأهمية بالنسبة لنا : إنه كلوت بك ، الطبيب الشهير .

الفصل الثانى

ما بعد الحملة

«يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلمين:إنما ذكرى نابليون التى لا تزال حية ..... لقد قاسى [المصريون] الكثير من وحشية جند بونابرت . وقسوتهم وكبريائهم ؛ أمر طبيعى ، فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا» .

(جوستاف فلوبير)

«إدوارد لين» : «عادات وتقاليد المصريين المعاصرين»

لا نستطيع أن نتحدث عما كتبه كلوت بك ، دون المرور سريعا على كتاب مشهور، كان له تأثيره الفعال على كلوت بك نفسه كما سنرى، وهو كتاب الإنجليزى «إدوارد لين» (١٣) .. وعلى الرغم من أن «لين» لم يتعرض لآثار الحملة بالذات فإنه لا يهمنا إلا بالقدر الذى يتحدث فيه ، وبطريقة عابرة ، عن هذه الآثار ، إن وجدت. فقد كان هدفه الأول ، كما يقول عنوانه صراحة ، هو دراسة المصريين أنفسهم . شهادته ، إذن ، غاية فى الأهمية ، لأنه لم يمر مرور الكرام على مصر ، كما فعل «شاتوبريان» مثلا ، وغيره من المسافرين الفرنسيين الآخرين .

لقد عاش «لين» (١٨٠١ - ١٨٧٦) عدة سنوات فى مصر . منذ عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٢٨ ، ثم عاد إليها مرة أخرى فى عام ١٨٣٣ وبقى فيها حتى عام ١٨٣٥ . وقد جعلته معرفته الممتازة للغة العربية وحياته وسط المصريين ، وكأنه واحد منهم ، أحسن من يتحدث عما يدور فعلا فى البلاد ، من عادات وأفكار ؛ وبالتالى، فعلينا أن نبحث فى كتابه الأمين عما يقوله المصريون ، أو يفعلونه ، فى عصره ، ويوضح ذلك ، الأثر الذى قيل مرارا إن الجيش الفرنسى وبونابرت تركاه فى مصر، وعلى المصريين .

«إدوارد لين» يصف كل شىء ، بما فى ذلك الأفراح والمآتم ، وحتى طريقة طهو الطعام ، الفتة مثلا . ولكن حديثه عن الحملة لا يأتى إلا عرضا ، فهو يقول مثلا : «هناك العديد من المساجد فى مصر ، حيث لا

يسمح لإفرنكى أو أى مسيحى آخر أو يهودى أن يدخلها فى السنوات الماضية ، وذلك منذ الحملة الفرنسية» . كما يؤكد أن «التعليم كان فى القاهرة ، قبل دخول الجيش الفرنسى ، فى حالة أكثر ازدهارا عما هو عليه فى السنوات الأخيرة . فقد تأثر التعليم جدا بسبب الحملة ، ليس بسبب اضطهاد مباشر ، ولكن نتيجة لحالة الذعر التى سببها هذا الحدث والاضطرابات التى تلتها» . هذه هى إذن الذكرى التى تركتها الحملة بين جمهور سكان القاهرة .

نقرأ كذلك ، كذكر للحملة ليس إلا : «هذه التوابيت ،...، أخذها الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ، وهى الآن فى المتحف البريطانى» .. وانتهى ذكر الحملة فى هذا الكتاب .

نلاحظ أن «إدوارد لين» يذكر أن «أكثر العلماء المعاصرين علما فى القاهرة ، الشيخ حسن العطار ، هو الآن شيخ الأزهر» ، دون أن يذكر علاقته بالفرنسيين . كذلك حديثه عن «السيد عمر (مكرم) نقيب الأشراف ، الذى كان أهم من ساعدوا محمد على فى الوصول إلى مركز باشا مصر» .. لا نجد كلمة واحدة عن دوره أثناء الحملة، وكأن هذا الدور قد سقط أيضاً من ذاكرة المصريين مع سقوط ذكرى أحداث الحملة. وبعد هذين الاسمين، لا يذكر الجبرتى إلا بصفته «مؤرخا لكل الأحداث التى مرت بها مصر» دون ذكر لدوره أثناء الحملة ، وتأريخه لها ؛ فما هذا الجزء إلا حدث وسط باقى الأحداث فى كتابه الشهير . يحكى «لين»، كذلك، عن الأساطير الشعبية التى تغنى فى المواسم والمناسبات،

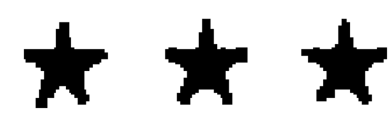
فيذكر «سيرة أبي زيد الهلالى» و«حياة الظاهر بيبرس» دون غيرهما، على عكس ما يقوله الفرنسيون من أن المصريين يتغنون بجند الحملة حتى يومنا هذا . و«إدوارد لين» يكتب كثيرا عن «الفرنجة» فى مصر، والمفهوم طبعا أنهم الأوربيون ، وكان عددهم قد زاد بطريقة ملحوظة فى ذلك العصر ، دون أن يرجع «لين» مرة واحدة إلى سابقيهم من الجند الفرنسيين .

وقد تكون أفضل خاتمة لمن يبحث عـن آثار الفرنسيين فى مصر، فى هذا الكتاب الإنجليزى ، القصتان التاليتان : أولاهما ، يحكى فيها المؤلف ، أن أحد معارفه «من المصريين سأل مواطنا له ذهب إلى باريس ، عن أكثر شيء لفت نظره هناك ، فأجابه : إنها حفلات الرقص، حيث يسمح الزوج لزوجته بمراقصة غيره أمام عينيه» . ويعتبر ذلك خير دليل على الفجوة الحضارية التي تمنع وجود التفاهم بين الجانبين، المصرى والفرنسي كليهما . ويؤكد، بالتالي، استحالة محاكاة أحدهما للآخر . وهو ما تؤكده القصة الثانية .

يقول «لين» : «مع كل تقديرى للتجديدات الحديثة (فى عصر محمد على) إلا أننى وصلت إلى بعض الملاحظات الصغيرة فى هذا الشأن ، كانت نتيجتها أننى وجدت أن أنوار العلم الأوربى مقصورة تماما على موظفى الحكومة الذين أجبروا على التعلم على أيدى معلمين إفرنج، وأن العادات الأوربية لم يتبنها - بالكاد - إلا قلة قليلة جدا من «الأتراك» . وقد أخبرنى بعض المصريين الذين درسوا لبضع سنوات فى فرنسا

بأنهم لا يستطيعون نقل أى من المفاهيم التى اكتسبوها، حتى إلى عقول أقرب المقربين إليهم من الأصدقاء» . فما بالك بتوصيل مفاهيم جند محتلين لم يمكثوا إلا ثلاث سنوات، قضوا معظمها محاولين كبح لهيب الثورات؟

يصل القارئ إذن إلى نتيجة واضحة لاشك فيها: إن «إدوارد لين» ، فى معاشرته اليومية للمصريين، لم يقابل ما يذكره بالحملة إلا بطريقة عفوية، لابد أن تمر دون أى انتباه على القارئ العادى لأنها، فى واقعها، لا تعنى شيئا للمعاصرين فى ثلاثينات القرن التاسع عشر.



«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر»

ولكن، قد يقول الفرنسى «كلوت بك» ما يفيدنا أكثر، قد يكون الإنجليزى متحيزا، مهملا لما يمكنه أن يمجد فرنسا الغريمة، عدوة القرون السابقة، أو رجلها الكبير الذى كان يسمى «الغول» فى إنجلترا. «فكلوت بك»، مثل «إدوارد لين»، عاش هو أيضا وسط المصريين فى العصر نفسه، وقالها كلوت بك صراحة، إنه شعر بالغيرة من كتاب «إدوارد لين» (١٤)، وبذا فقد قرر هو أيضا أن ينشر كتابا يصف فيه مصر. وقارئ الكتاب يتأكد من ذلك عندما يقابل أوصاف الأفراح والمآتم، وغير ذلك من التقاليد المصرية، كما فعل «لين» بالضبط. ولكن، ثمة هدف آخر لهذا الكتاب: إنها الحرب الإعلامية المستعرة فى فرنسا

آنذاك، لأن الحكومة هناك كانت تساند محمد على، وكان بعضهم يرفض تلك السياسة، بسبب قضية الشرق وحرب الاستقلال في اليونان. فكتب «كلوت بك»، كى يرد على هؤلاء الصحفيين، ما يفيد أن سيده حاكم مستنير، يعمل لخير بلاده. أراد أن يعضد موقف «محمد على» بعد أن اتهمه بعض الفرنسيين بالدكتاتورية الظالمة، بصفته من حكام الشرق المسلم الغارق في ظلمات الجهل والتعنت. وظهر كتاب كلوت بك بالفرنسية سنة ١٨٤٠، ونحن نستعين بترجمته إلى العربية، التى نشرت تحت عنوان «لمحة عامة إلى مصر» فى ثلاثة أجزاء صغيرة الحجم.

يصل مديح «محمد على» - فى هذا الكتاب - إلى درجة التملق السافر: نرى «كلوت بك» لشدة إعجابه بسيده، يقول مثلا الحقيقة التى نعجب لوجودها بقلم فرنسي، وهى أن ابراهيم باشا نجح حيث فشل بونابرت، واستطاع أن يفتح عكا. ولكن الرجل مع ذلك لا يقل شوفينية عن باقي مواطنيه، عندما يتحدث عن الحملة. إنه يسرد قصتها كتاريخ، ليس إلا، ويتكلم دون أية مواربة عن هدف فرنسا الاستعمارى، ورغبتها فى تحويل البحر الأبيض إلى «بحيرة فرنسية»، إنه يتحدث صراحة عن الأمل فى أن تحل مصر محل المستعمرات المفقودة فى أمريكا، ناهيك عن قطع طريق الهند على الإنجليز. و«كلوت بك» من أكثر المعجبين ببونابرت، ويرى أن كل ما فعله صحيحا حتى إنه لا يذكر ثورة القاهرة الأولى، أو ثورات الأقاليم، ولا يتحدث بسوء طبعا عما اعتبره جند بونابرت وضباطه «هروب القائد العام إلى فرنسا» وإن كان قد ذكر ثورة القاهرة على كليبر - غريم بونابرت! - بالتفصيل. من البديهى أن

معلوماته تفتقر إلى الدقة، إذ يقول مثلا إن كليبر قد ذهب إلى الشام وراء الأتراك عندما قامت ثورة القاهرة، مما يجعلنا نشكك في كلامه كله، خاصة أن مرجعه الوحيد، وباعترافه، هو مذكرات نابليون نفسه. فتتضح الصورة، ونفهم من أين جاءت معلوماته تلك، بعد وقوع الأحداث بأربعين عاما.

كذلك نراه يقع فى الفخ الذى تقع فيه الشوفينية العادية للرحالة الفرنسيين، فيكفيه مثلا، أن يقابل مصريا واحدا معجبا بنابليون، حتى نراه يؤكد أن ذلك دليل على شعور المصريين كلهم. ونجد في سرد «كلوت بك» لأحداث الحملة، كثيرا مما سيصبح جزءا من الأسطورة الرسمية لها، مثل دحر المماليك على يد بونابرت وحب المصريين له. ولكن القارئ الذى تعرف على حقائق الأمور من الكتابات التى سبق أن قرأناها خاصة مكاتبات كليبر للحكومة المركزية فى فرنسا، يدرك ما وراء تلك الشعارات من زيف وفراغ ولا يفوت القارئ ملاحظة أن هذا السرد الإعلامى للحملة المكتوب فى مصر وعن مصر لم يحمل أى تنويه، ولو بكلمة واحدة، عن أى مشروع تنويرى للحملة: لقد أكد «كلوت بك» مرارا ويصراحة أنها حملة استعمارية فقط، وكان ضرب الإنجليز، هدفها السياسى الآخر. لكننا قد نجد فى الجزءين الآخرين من الكتاب، ما يكذب تلك القراءة للجزء الأول منه، قد نجد ما يؤكد حتى النتائج الحضارية للوجود الفرنسى فى مصر. ولكن «كلوت بك» لا ينسى - مثله فى ذلك مثل باقى من قرأنا لهم - أن يؤكد أن الجيش الفرنسى «انتقم للملك لويس التاسع الذى أسر فى معركة فارسكور التى

دحر الصليبيون فيها. ونلحظ أن كلوت بك، إذا ذكر المعهد الفرنسى فى مصر، فهو لا يتحدث إلا عن «هذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله - كما هو مذكور فى مذكرات المعهد الفرنسى بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء...»، ولا تذكر كلمة واحدة عن أى دور تعليمى أو تنويرى لهذا المعهد. وبمناسبة وصفة المتواضع جدا لمصر، يتحدث مثلا عن السراب، فيقول: «ولم يغب عن الذاكرة ما سببته تلك الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة، إذ أصابهم من العطش ما كاد يودى بحياتهم أجمعين» فالحملة ليست غائبة عن ذاكرته أيا كان الموضوع الذى يتحدث فيه ومع ذلك، فهو لا يذكر كتاب «وصف مصر» بكلمة واحدة. ومن هنا تتجلى الصورة، صورة استعمار دون أية مشروعات أخرى، إذ يكون لغياب الشئ دلالة، أكثر منها بالحديث عنه فالحديث كثير عن الحملة، ولكن، فى أى موقع، ولماذا؟

من هنا كانت أهمية النص الذى سنسرده على القارئ كاملا، وقد كتبه «كلوت بك» وهو يتحدث عن النساء فى مصر، تحت عنوان «حكاية نابليون بونابرته»، يقول «كلوت بك»:

«أورد نابليون بونابرت حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى أبرازها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على ان اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد ادهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال. قال:

تزوج الجنرال منو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها إلي غرفة الطعام ويتحرى لها اوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمة واشهاها. وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه واعادته إلى مكانه. فلما ورت تلك المرأة هذه الامور على صاحباتها في أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الامل في تغير احوالهن وعاداتهن، وحررن عرضا قدمنه إلى السلطان الكبير - بونابرته - ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل «منو زوجته الرشيدية به»...» .

لا أعتقد أن قارئا جادا في نقده، سيجد في هذه القصة أكثر من نكته، حكاها نابليون الذى عرف عنه دوما احتقاره المطلق لجنس النساء. ولكن الأمر يكاد يكون مؤثرا بالنسبة للجوء «كلوت بك» إلى مثل تلك القصة الطريفة ليس أكثر؛ فهو لم يجد - على ما قرأنا له - إلا تلك القصة التافهة، ليثبت عمليا أن الفرنسيين قد تركوا أثرا في مصر. «فكلوت بك» عاش في مصر بعد ذلك بثلاثين عاما، وهو يحاول أن يصف مصر التى عاصرها، فيورد تلك القصة القديمة، ليؤكد بها شيئا، من البديهى أنه لم ير له أى أثر بعينيه . ولكن، إذا كان نابليون نفسه هو الحاكي، الا يدل ذلك على صحة المعلومة، وأهميتها، حتى إن كان «كلوت بك» لم ير شيئا من نتائجها على المجتمع؟ فهو لا يقول إنه رأى معاملة إفرنجية للأزواج المصريين كانت تلك القصة سببا فيها: إن القصة تكفيه، مثل الشعارات الفارغة، وهى ثمينة وذات دلالة مادام نابليون هو الذى قصها.

إن موقف «كلوت بك» يكاد يكون مؤثرا بالفعل، لأنه لم يجد إلا تلك القصة لتكون الدليل الوحيد على ما أثر به الفرنسيون على المصريين، ولن نعجب، بعد ذلك، إذا رأيناه مجبرا على الاعتراف أن أمورا شتى لم تتغير منذ عصرالمماليك، بل منذ أيام الرومان؛ أما بالنسبة للنساء، وبالذات قضية تعدد الزوجات، فهو يرى أن انتشار الفكر الغربي وحده، كفيل بحل تلك المشكلة، ولم يقل إن الحملة ساعدت بصورة ما في انتشار تلك الأفكار .

وكما سبق أن رأينا، فإنه، على الرغم من ذلك لا يفوت فرصة لتمجيد الحملة. فإذا تحدث عن «أبو قير» مثلا كشاطئ لا يفوته أن يذكر أنه مكان «يثير في نفس كل فرنسي لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد». نجد أيضا هذا التمجيد فيما يقوله نابليون - مرة أخرى - عن كبحة جماح البدو، بينما تؤكد لنا مكاتبات كليبر عكس ذلك. «فكلوت بك» يشكو من أفعالهم، وكأن الفرنسيين وحدهم هم الذين استطاعوا التخلص من أشرارهم.

ومثله مثل غيره من مواطنيه، يؤكد «كلوت بك» حب المصريين للفرنسيين بالذات، لطبائعهم الحسنة، «إذا أضيفت إلى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها»، دون أن يحدد ماذا! ويزيد على هذا الكلام المبهم مانقرؤه بعد ذلك أن «الحملة الفرنسية في مصر هي مقدمة حركة الحضارة التي بدت آثارها الآن في الشرق» وهو يؤكد كذلك عن نابليون «عندما رأيت الآثار الجليلة التي خلفها من ورائه، لم أستطع الجزم إن كان أثره في آسيا أقل من أثره في بلاد الغرب»: من المؤسف

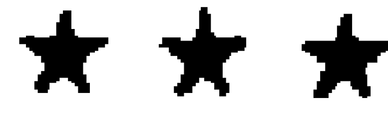
أنه لم يشركنا فى رؤيته لتلك الآثار التى لم يتحدث عنها أكثر من ذلك، ولكنه إذا قص بطولة لا تنكر لإبراهيم باشا، قال إن الحادثة «فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم»! علينا بالتالى أن نشكر أمانته، عندما يصف المصريين وهم يستمعون إلى لحن «المارسييز»، فهى «لاتهز واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطها أسماعهم».

بقى أن نشكر كلوت بك أنه ذكرنا أن محمد على «طلب من الإفرنج الذين كانوا فى خدمة مصر ،....، مراعاة عادات الشرقيين فى كل شئ »، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قوله: «إن الشرقيين، كلما اختلطوا بنا (الافرنج)، لا يأخذون فى الغالب، من أخلاقنا سوى ما كان منها سيئ العاقبة بعيدا عن الصواب...»، ولم يفكر لحظة واحدة، أنه ما دامت تلك هى حال الشرقيين، فمن المؤكد أن ذلك قد حدث أيضا أيام الحملة، فكيف تكون إذن فاتحة الحضارة التى يتحدث عنها؟!

★ ★ ★

ننتهى هنا من قراءتنا كتاب «كلوت بك» الذى خيب أملنا، إذ كان لابد أن نجد عند هذا الفرنسى الذى عاشر المصريين بعد رحيل الفرنسيين ما يؤكد تأثيرهم بصورة ما. الواقع أننا لم نتأكد إلا من أمر واحد، وهو أن صديقات زوجة «مينو» الرشيدية، كن يحسدنها على معاملة زوجها لها، وما أتفه الحادثة. وتأكدنا بالتالى أن فرنسيا من سكان مصر، مولعا ببونابرت، اعترف سنة ١٨٤٠ أن الهدف الاستعمارى كان وحده سبب الحملة على مصر. لم يكن لها أى تأثير

على الرغم من ادعاء «كلوت بك» عكس ذلك، فهو يؤكد قوة هذا التأثير دون أن يقدم أى برهان على قوله، مثله فى ذلك مثل غيره من المتحدثين عن أسطورة الحملة، وجاء كتاب «نرفال»، بعد ذلك، ليؤكد صحة ما توصلنا إليه.



«جيرار دى نرفال»: «رحلة إلى الشرق»

فى عام ١٨٥١، نشر كتاب آخر من أشهر كتب الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، وهو كتاب «رحلة إلى الشرق» (١٥) . وترجع شهرة هذا الكتاب إلى سببين أولهما أنه تحفه أدبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مكانة المؤلف، وهو الشاعر الكبير «جيرار دى نرفال» (١٨٠٨-١٨٥٥).

سافر «نرفال» إلى الشرق فى اليوم الأول من عام ١٨٤٣، وعاد إلى فرنسا فى أوائل شهر ديسمبر من العام نفسه بعد أن زار كلا من مالطه، مصر، سوريا، قبرص واسطنبول، ونشر كتابا عن رحلته فى عام ١٨٥١. وقارئ مؤلفه الرائع يتأكد أنه قرأ كتاب «إدوارد لين» بإمعان ولكنه قرأ أيضا «شاتوبريان» حتى أن بعض الصفحات تبدو كأنها رد على «شاتوبريان» بصورة واضحة للدارس الناقد لكتابى «المسار من باريس إلى أورشليم» و«رحلة إلى الشرق». وهو يفعل ذلك دون أى تداخل فج، فالكتاب مكتوب بقلم شاعر، تمر إيحاءاته ناعمة دون أن تخدش رؤية القارئ غير المتخصص. والرجل يهمنا أمره ليس فقط لأنه عاش بضعة أشهر فى مصر، على عكس باقي الرحالة فى تلك الأزمنة،

ولكن لأنه كان أيضا من أشد المعجبين بنابليون، وكتب قبل رحلته إلى الشرق ما يثبت حبا مطلقا للإمبراطور البطل .

وأول ما يلفت النظر لقارئ الجزء الخاص بمصر في تلك «الرحلة إلى الشرق»، هو إصرار «نرفال» – مثله في ذلك مثل «لين» – على عدم الحكم على الأمور من منطلق أوربى فحسب – لقد قال الراوى، عند وصوله إلى القاهرة، إنه يريد أن يخلع رداء الغرب، حتى يتحرر من الأفكار المسبقة فهو يقدم العادات المصرية والإسلامية لقارئه الفرنسى حسب المنطق المحلى، ولا يرفض شيئا، لأنه يتقبل فكرة اختلاف المبادئ، إنها صفة قلما نجدها عند باقى الرحالة، وحتى يومنا هذا. كما يلفت النظر أيضا أن هذا المتيم بحب نابليون، لايتحدث عن الحملة، ولكنه يتحدث عما تركته الحملة، وشاهده هو بعينيه.

فأول لقاء له مع «تركى» مثلا، كان مفاجأة له، إذ اتضح أن هذا «التركى» من أصل فرنسى، يعرفنا به الراوى قائلا: «إنه من ذلك الجيل العسكرى الذى وهب حياته لخدمة نابليون، وكثيرون من ذلك الجيل فضلوا عرض خدماتهم على ملوك الشرق على أن يصبحوا من رعايا («البوربون» لقد أصبح هذا الجندى) تركيا. وكيف ألومه؟». هذا هو تعليق «نرفال» الوحيد على مثل هذه الخيانة للوطن والدين. وتكون المقابلة الثانية، وهى لقاؤه «بالمسيو جان (إنه) من البقايا المجيدة لجيشنا فى مصر كان أحد الفرنسيين الثلاثة والثلاثين الذين دخلوا الخدمة العسكرية كمماليك بعد انسحاب الحملة. (وبعد أن عاش هذا السيد) جان سنوات مجد وترف، فكر أن يبيع النبيذ علانية، وكان ذلك شيئا

جديدا على مصر»: ما أبعدنا عن مماليك «شاتوبريان» الخمسة الذين كانوا يستولون على حكم البلاد!

يبدو أن القدر الماكر، لم يجعل الرحالة الفرنسي يقابل إلا حطام *الحملة البائسة*: نراه يقابل بعد ذلك «*أحد مماليك الجيش الفرنسي الذين* تبعوا جنودنا (عند عودتهم إلى فرنسا) ولكن منصور المسكين، ألقى فى الماء مع باقى زملائه فى مرسيليا، لأنه كان يناصر حزب الإمبراطور، عند عودة آل بوربون». عاد منصور إلى مصر، وكان يعيش هو وزوجته فى حالة من الفقر المدقع فاستأجرهما الراوى خادمين عنده.

تلك هى آثار الحملة على المستوى الإنسانى، ولا ندرى كيف كان يمكن لهؤلاء أن يؤثروا على المصريين.. اللهم إلا إذا اعتبرنا «المسيو جان»، أول من أدخل بيع الخمور «علانية» فى مصر، رائدا محترما فى ميدانه.

أما على مستوى الآثار الملموسة، فقد وجد الرحالة، وبفخر شديد، فى داخل الهرم الأكبر «نقشا فرنسيا قد حفر على حجر كبير، يؤكد مرور جندنا على هذا النصب، قرأته باحترام شديد وكأنه بطاقة لزيارة الجيش الفرنسى»، ولكنه يكتشف بعد ذلك باندهاش، حفرا آخر، لبطاقة زيارة أخرى. «*للبعثة العلمية التى أرسلها* ملك بروسيا وكان رئيسها لبسيوس» وتنتهى الفقرة فجأة عند هذه الكلمات، دون أى تعليق من الراوى الذى عادة ما يعلق على كل شئ. والتحليل النقدى الأدبى لهذا النص يثبت نوعا من المواجهة بين البعثتين، العسكرية والعلمية. وصمت الراوى ، بعد الحديث عن البعثة العلمية البروسية، يؤكد نوعا من الحرج،

لايستشعره إلا قارئ الكتاب كاملا ويتأكد هذا الإحساس، عندما يمر رحالتنا، أمام جامع السلطان حسن، فنراه يلاحظ - دون أي تعليق مرة أخرى: «أن آثار المدفعية الفرنسية (على الجدران) لاتزال موجودة منذ ثورة القاهرة الشهيرة».

ويشهد الراوى عودة الحجاج بموكبهم المهيب، وينبهر به، وبالروحانية السامية التى تنبعث من الاحتفال، حتى أنه يكاد يسخر من بونابرت، مما يعجب له القارئ فعلا، فهو يقول: «كان وكأن أمة بأكملها تسير لتذوب في شعب لا حصر له ،...، ولا مجال هنا للتفكير فى الأوبرا، أو فى القافلة الشهيرة التى جاء بونابرت ليستقبلها عند البوابة نفسها بوابة النصر»: دهشة القارئ لها طبعا سبب منطقى، لأنه لا مجال هنا لذكر بونابرت فإن كانت الأوبرا هى المسرح الذى يتحرك عليه مئات الأشخاص، من ممثلين ومنشدين وراقصين، فلا داعى بتاتا لذكر بونابرت: كأن المؤلف يقول لبونابرت إنه لم ير شيئا يضاهى ماراه هو نفسه وفهمه، بينما بونابرت لم ير حقيقة هذا الشعب وعظمته .

وتنتهى رحلة مؤلفنا. وقبل سفره، يدعى إلى حفل ختان، ليجد نفسه جالسا بجوار شيخ يغنى له، أنشودة مديح لبونابرت. وعلى الرغم من أن المؤلف لا يتكلم العربية ولا يفهمها، إلا أنه يكتب لنا ترجمة تلك الأنشودة! «وبعد ذلك - والكلمة للراوى - حاولت أن أستخلص من الشيخ بعض ومضات من ذكرياته، فأخذت أكرر عليه (.....) الأسماء المجيدة لكليبر ومينو ولكنه لم يكن يتذكر إلا الكولونيل برتليمى»، ويفسر لنا أحد هوامش الكتاب، أن الأنشودة التى ظنها «نرفال» مديحا

لبونابرت، كانت فى الواقع مديحا «لبرتليمى الذى كان فى خدمة المماليك قبل حضور الفرنسيين، والذى كان يلقبه المصريون بفرط الرمان». ثم يجهش الراوى بالبكاء عند «سماع الشيخ يعيد الغناء القديم الذى كان ينشده المصريون على شرف من أسموه السلطان كبير»: من حقه أن يبكى بالفعل، فهو لم يجد أثرا مجيدا آخر لمرور الرجل العظيم على مصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمصر فى كتاب «رحلة إلى الشرق». كان كاتبه، على حبه الشديد للإمبراطور، غاية فى الأمانة، فهو لم يكتب إلا ما شاهده، أو عاشه بالفعل أو اقتبسه من كتاب «لين» الشهير آنذاك. أيا كانت المراجع التى ساعدته على تدوين مذكرات رحلته، إلا أنه لا يمكن اتهامه بالتجنى على الإمبراطور، ولا يمكن اتهامه كذلك بإغفال أى شئ كان يمكن أن يفخم من شأن بونابرت وحملته على مصر. «فنرفال» لا يقل حبا لوطنه عن باقى الرحالة، ولكن أمانته حلت محل الشوفينية الفجة التى اتصفت بها كتب الآخرين الذين مروا مرور الكرام على وادى النيل. فرح «نرفال» لوجود كتابة فرنسية داخل الهرم، فما بالك بفرحته لو أنه وجد أثرا آخر غير آثار طلقات المدافع على جامع السلطان حسن؟ لم ير شيئا يثبت أن الجيش قد ترك أى أثر ثقافى أو حضارى، وإلا كان تحدث عنه كما تحدث عن الفرنسيين اللذين أصبح أحدهما «تركيا»، أو مسلما ويعيش مثل المسلمين، والثانى صاحب حانة فى أزقة القاهرة.. من هنا كانت أهمية «بكاء الراوى» بالنسبة لدارس هذا المؤلف، لأن هذا «البكاء» يقع فى الصفحات الأخيرة من قصة رحلته إلى

مصر، فالموقف يلخص مشاعر المعجب بنابليون، ويرمز إليها، وهو الذى جاء إلى مصر، ولم يجد بونابرت إلا فى أنشودة شيخ هرم، أنشودة تتحدث فى الواقع عن «فرط الرمان»!

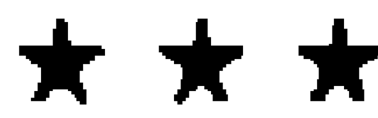
★ ★ ★

«جوستاف فلوبير»

وختاما، نلجأ إلى جملة واحدة قد تكون الدليل الوحيد على الأثر الذى تركه الجيش الفرنسى؛ جملة بقلم أحد أعظم وأشهر الروائيين الفرنسيين.

جاء «جوستاف فلوبير»، الروائى الشهير إلى مصر، حيث كان يرسل منها خطابات نشرت أخيرا، نقرأ منها رسالة مكتوبة بين السادس والعشرين من نوفمبر ١٨٤٩و الخامس من فبراير ١٨٥٠: «يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلحين: إنها ذكرى نابليون التى لاتزال حية ،...، لقد قاسى (المصريون) الكثير من وحشية جند بونابرت وقسوتهم وكبريائهم؛ أمر طبيعى، فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا»، (١٦): هذا هو كلام أحد أكبر المؤلفين الفرنسيين، الذى ترك لنا فى خطاباته انطباعات رحلته إلى وادى النيل، وهى جد شيقة: تصويره لما رآه عفوى صادق صريح لأن خطاباته لم تكن للنشر. وكلامه هنا لا يحتمل أى تعليق، عن «الذكرى» التى تركها الجيش، والتى تذكره بالفظائع التى تمت أثناء عصر «الإرهاب» فى فرنسا، فنراه يتفهم موقف المصريين من الجيش الفرنسى.

ولو أننا لا نظن أن الرعب من الجند الفرنسيين استمر بعد مرور خمسين عاما على رحيلهم، إلا أن الجملة غريبة، خاصة إذا تذكرنا أن كاتبها فرنسي؟ ومن الممكن أن تكون جنسية أخرى هى المسئولة عن هذا الانطباع السيئ ولكن تلك هى فكرته عن بونابرت، والانطباع الذى تركه «جند الإرهاب» . وكما يقول الفرنسيون، فهذا فى ذاته أمر يجعلنا نتفكر...



حان الوقت لنتعرف على ما قاله أيضا المصريون المعاصرون للحملة، غير الجبرتى. لقد كتب «الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى» عن الفرنسيين صفحة بليغة فى قصرها، ودوره معهم معروف.

فهو يكتب قائلا.. «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ينال لهم نصارى قاتوليقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين، ويقولون إن الله واحد بطريق التعليل. ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام بعقولهم ويسمونها شرائع. ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعه عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم. ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم. وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر. فإنهم جعلوا من جملة ديوانهم جماعة من المشايخ وصاروا يراجعون بعض أشياء لا

تليق بالشرع. والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال» (١٧). يدل تحليل هذه الأسطر أولا على أن الشيخ العلامة لديه معرفة واضحة وصحيحة لفكر «الفرنساوية» الدينى، دون أية إشارة إلى منجزات الثورة الفرنسية، والحرية والمساواة إلخ، هذا من جهة؛ وكلماته تؤكد، من جهة أخرى، المسافة الشاسعة التى تفرق بينه وبينهم إنه ينظر إليهم عن بعد ويتدارسهم كأغراب لا يلتقى، ولايفكر أن يلتقى معهم فى أية نقطة، فهو موضوعى فى حكمه على دواوينهم ولكن مفرداته الأخيرة بخصوص العجز عن «مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال»، تعنى أن الانصياع للأوامر لم يكن عن اقتناع؛ عندنا الدليل أن الفلاحين كانوا يقاومون المدافع الفرنسية بالعصى فمن الطبيعى إذن إذا ما رحل أهل السطوة، أن ينتهى تأثيرهم المجبر المباشر.

وهناك مصرى آخر، نرى أن شهادته غاية فى الأهمية، خاصة أنه كان معاصرا لمن قرأنا لهم من كتاب سجلوا شهاداتهم عن مصر بعد رحيل الحملة بربع قرن. وهم كما أسلفنا «إدوارد لين»، «كلوت بك» و«جيرار دى نرفال». فإذا قارنا ما قالوه، بما نستنتجه من كتابه، لعجبنا لتطابق الرؤى، بين الأجانب المقيمين فى مصر، والشاب المصرى المثقف: إنه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى وما قاله أو بالأصح ما لم يقله، عندما زار فرنسا ودون ملاحظاته فى كتابه الشهير.

«الطهطاوى» : «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» (١٨)

قيل مرارا وأعلن جهارا، أنه لولا الشيخ حسن العطار، ما سافر الشيخ رفاعة مع البعثة المرسلة إلى باريس عندما أقنع القنصل الفرنسى النشط «دروفتى» محمد على، بتحويل كل البعثات العلمية إلى فرنسا وعلاقة حسن العطار بالفرنسيين معروفة (١٩)، وكان بونابرت قد أوكل إليه مهمة تعليم بعض الفرنسيين اللغة العربية. ومن المعروف - والأصح أن الفرنسيين يقولون - إنه أعجب بعلمهم واستنار بأفكارهم. وعندما أصبح شيخاً للأزهر، كان الطهطاوى تلميذه المصطفى. فياترى ما الذى قاله العطار عن الفرنسيين؟ أو ما الذى علمه لهذا الشيخ الشاب وهو يعده للرحيل، موصيا إياه تدوين مشاهداته، كما كان يفعل دائما الرحالة العرب، وحتى يستفيد باقى مواطنيه بما يراه مندوبهم فى بلاد الفرنجة؟ وما الذكرى التى تركتها الحملة، بمحاسنها إن وجدت، وأورثها العطار تلميذه وهو أشهر المعجبين بالفرنسيين وحضارتهم؟ وما الذى وصل إليه من هذا العلم، ولابد أنه قدمه لتلميذه النابغة؟

لو أن الفرنسيين تركوا أثرا علميا أو حضاريا على أحد، أثرا له امتداد واقعى حتى إن كان سطحيا، فلا يمكن أن يرى إلا عند هذا الشيخ الشاب، تلميذ أكثر المشايخ اختلاطا بالفرنسيين وإعجابا بهم. ومن الطبيعى أن يدون هذا التلميذ النجيب، وهو يتحدث عن فرنسا، ما سبق أن سمعه أو عرفه عن الفرنسيين، من أستاذه الذى انبهر بهم. فلابد أن ما يراه يذكره بشئ قيل له عنهم وعن عاداتهم؛ أعتقد أن هذا أضعف الإيمان.

ولنترك الكلمة للطهطاوى... إن وجدت،لأن العجب كل العجب هو غياب ذكر الحملة فى كتابه. ولو أنه غياب كلى، لشككنا فى الأمر، ولكنه مثل «كلوت بك» و «إدوارد لين» يتحدث بما يدل على أنه يعرف وقوعها، ليس أكثر ، وكأنها شئ لا يستحق الذكر، وهذا مايلفت نظر القارئ منذ الصفحات الأولى لكتابه. فمنذ الصفحة الرابعة بالتحديد نقابل قولا يعجب له من سمع مرارا أن الحملة «أيقظت» مصر فالطهطاوى يقول: «وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولا، (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام إنه سميع مجيب، قاصده لا يخيب» وإذا تتبعنا صفحات الكتاب بترتيب تقديمها، عجبنا أنه مثلا يقدم «جومار» الذى يشرف على المصريين، دون أن يذكر أنه كان يوما فى مصر أثناء الحملة، مع أنه إذا تحدث عن الإسكندرية، وتاريخها، قال باقتضاب شديد: «وقد تغلب عليها الفرنسيس، ثم أخرجهم الإنكليز منها، ورجعت إلى يد الاسلام»: ولا كلمة واحدة أكثر من ذلك. كلام غريب، لأن الحال كانت حال مصر كلها وليست الإسكندرية وحدها! (٢٠).

ورفاعة يذكر بونابرت بطريقة تلفت النظر، لأنه مصرى مثقف من أول جيل جاء بعد الحملة، إذ ولد عام ١٨٠١، جيل يفترض أنه تأثر بنتائجها ويعرف تاريخ بونابرت معها.

فالطهطاوى، الذى يحكى تاريخ كل منطقة يمر عليها، يقول «جزيرة قرس (كورسيكا) وقد فتحها المسلمون، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا، وهى وطن «نابليون» ،...، الشهير باسم «بونابرته» الذى تغلب على مصر

فى غزوة الفرنساوية، ثم تولى سلطنة فرنسا»، ليس أكثر: مرة أخرى، تتأكد فكرة أنه لولا شهرة نابليون الإمبراطور، لما ذكر تاريخ بونابرت الجنرال المنتصر.. حتى بالنسبة للمصريين. ولذا فلن يذكر نابليون بعد ذلك إلا لشرح اسم «قنطرة استرليتز، سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النيمسا والموسقو».

وحديث الشيخ رفاعة عن المصريين المقيمين بميناء مرسيليا يؤكد كون الحملة صفحة من الماضى، طواها الزمن وانتهى عهدها فطريقة قصه لما قابله، وحديثه عن «مينو» دون أى تعليق على حكمه لمصر، ينمان عن عدم مبالاه لأحداث الماضى، وبُعد ذهنى يفوق الخمسة والعشرين عاما المنصرمة منذ رحيل «مينو» إنه يذكره لتنصيره لابنه. نلاحظ أنه لا يوجد أى تعليق ينم عن اهتمام خاص بهذا الجنرال الذى حكم مصر فى أواخر أيام الحملة، وكأنه لم يترك للطهطاوى ذكرى إلا بسبب زواجه من مسلمة، ثم عودته إلى المسيحية.

حدث عابر لماض طويت صفحته، فالأهم الآن هو رؤية كل ما هو جديد وغريب – وما أكثره – فى هذا العالم الذى لم يسمع عنه شيئا من قبل. فحديث رفاعة عن الفرنسيين وطبائعهم وقوانينهم... إلخ، عفويا بحق، وإن أكد شيئا، فهو جهله التام بما كان سيقابله عندهم من جديد، سبق للمصريين أن تعرفوا عليه عندما كان الجيش الفرنسى يحتل القاهرة: كل شئ غريب ومحل مدح أو نقد. وإذا ما قابل كلمة «حرية» تلك الهدية الجديدة التى احضرها بونابرت إلى مصر، حسب قول بعض

المؤرخين، نراه يشرحها لقرائه على أنها شئ جد جديد بالنسبة له ولهم، ولكن على مستوى اللغة فقط: «وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عندنا العدل والإنصاف....». وعندما يصف نظام جباية الضرائب، لا يعقد ، ولو بكلمة واحدة، مقارنة بين ما كان يحدث عندما كان هؤلاء الفرنسيون أنفسهم يفرضونها على المصريين مع أنه و في الصفحة نفسها يقوم بمقارنة نظام توارث المهن بين ما يحدث في فرنسا، وما كان يحدث فى مصر، وهو كثيرا ما يفعل ذلك.

ماذا نستنتج من قراءتنا تلك؟

حصاد هزيل لبحثنا عن آثار الحملة فى كتاب «تخليص الإبريز..» لو أننا أضفناه إلى ما قاله «لين» و«كلوت بك»، لوجدنا أن حصيلة ما تركه الفرنسيون من ذكرى يكاد يكون منعدما، خاصة إذا تذكرنا دموع «جيرار دى نرفال» فى نهاية بحثه عن ذكرى «الرجال العظماء» في مصر. ولنذكر أنه حتى من أنشد أمجاد جند بونابرت من المؤرخين (*)، اعترف أن النتائج الفعلية الرائعة للحملة تمثلت فى اكتشاف حجر رشيد وكتاب «وصف مصر»، ناهيك عن «الأثر الثقافى» الذى لم يبدأ بالفعل إلا فى عهد إسماعيل باشا. ستون عاما بعد نهاية الحملة.

ولكن، كيف يُشرح هذا التجاهل التام لآثار الحملة عند الجيل التابع لها؟ .

فلنعد إلى الجبرتى، علنا نجد لديه إجابة عن تساؤلنا، وهو الذى عاش سنوات الحملة وما تلاها من أحداث.

---

* ارجع إلى الجزء الأول.

الجبرتى: «تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» (٢١)

نظرا لوجود كتابه وضخامته، فلن نتوقف عن التفاصيل بل نستخلص سريعا ما كان من حال مصر والمصريين بعد رحيل جيش الفرنسيين، وهو جزء لم يهتم به معظم من تعرض لصفحات الجبرتى عن الحملة، والانطباع العام بعد تحليل النص هو ما يهمنا هنا، كى لا نغرق فى صفحات عديدة تحكى الأحداث الصاخبة التى ملأت الفراغ المؤقت للسلطة فى مصر.

إذا ما انتهى القارئ مما كتبه الجبرتى فى ألفى صفحة، فإنه يرى بعد الصفحات الثلاثمائة والخمسين التى يحكى فيها الجبرتى أحداث الحملة، كيف أن الحال في مصر قد عادت إلى سابق عهدها، وكان أيامها حدث عابر عارض يمكن إسقاطه دون أن يشعر القارئ أن حلقة فقدت في تسلسل أحداث تاريخ مصر. عاد العنف بين الفئات المتصارعة مرة أخرى، وعاد القتل والتناحر، وعادت الصفحات تقطر دما وشغبا وضوضاء . غير أن الصراع الدموى على السلطة لم يعد حكرا على المماليك وحدهم، فعلى الساحة الآن عنصر كان قد اختفى منذ سنوات، ولولا الحملة ما عاد بهذه الصورة الضارية : عادت السلطة العثمانية العسكرية لتؤكد سيطرتها على مصر، وكانت تركيا قد فقدت تلك السيطرة، فأعادت فتح مصر واستباحتها بحق السيف. لقد كان غياب السلطة العثمانية وتهميش دورها، من أهم العوامل التى أشعلت الرغبة فى غزو مصر، فكانت اطماع فرنسا، والحملة التى اجبرت تركيا

على العودة لتؤكد سيادتها على مصر. عاد العثمانيون كرد فعل مباشر للحملة وهم أكثر شراسة مما سبق، كما نقرأ عند الجبرتي . وكانت لذلك نتائج وخيمة، عاد العثمانيون بسطوة ما كانوا ليحلموا بها قبل الحملة، وانفراد المماليك بالحكم المطلق . وإن كانت الحملة قد أحدثت شيئا ملموسا وفعليا، فهو عودة مصر إلى حظيرة العثمانية في الوقت الذى اوشكت مصر ـ وكان ذلك معروفا للعالم أجمع ـ على الاستقلال عنها، وهو الأمر الذى شجع بونابرت على الهجوم عليها، كما قالتها صراحة وزارة الشئون الخارجية في فرنسا، لتبرير قيام الحملة. وبعد قراءة الجبرتي، يرى الباحث أن عودة السيطرة التركية على مصر ـ على المستوى المحلى – النتيجة المباشرة والوحيدة لمرور جيش الشرق العاصف على مصر. فكان، بعد رحيله، التنافس الضارى مرة أخرى، بعد حقبة عارضة عابرة من ثلاث سنوات وكأن شيئا لم يحدث. كان هذا التنافس على من يتبوأ مركز حاكم القاهرة، وقد انتصر فى هذا السباق الدموى ضابط داهية من الجيش العثماني، لعب وكأنه من المماليك ، ولكنه عرف كيف يستخدم الصوت المصـرى، ليكسـب تأييد الباب العالي : فى عام ١٧٨٦ جاء الجيش العثمانى لينصر المصريين على المماليك؛ وقف المصريون مرة أخرى فى عام ١٨٠٥ ، مع هذا القائد العثمانى ضد المماليك . حكم محمد على مصر وكأنه من المماليك ، إلى أن تخلص نهائيا من منافستهم له، وبدأ فى إنشاء دولة مركزية على نمط جديد ، نقل مصر فعلا من عهد الى عهد ولم تكن مصر بحاجة الى

الحملة ليأتي محمد على إليها؛ فبصفة مركزه ونظرا لطموحه ، كان من الممكن جدا أن يأتي يوما، اليها وهو ايضا «باشا» ممثل للسلطان.

ولكن الباشا العثماني كان قد فقد كل هيبة، خاصة بعد فشل الحملة العثمانية في ردع المماليك عام ١٧٨٦ . وكان المصريون قد أخذوا زمام الأمور بأيديهم ليدافعوا عن حقوقهم أمام تسلط ابراهيم بك ومراد بك؛ وفي عام ١٧٩٥ أي ثلاث سنوات فقط قبل وصول بونابرت. كانت الحركة الشعبية التي قادها الشرقاوي، ومعه السيد عمر مكرم لوضع شروط للحاكمين اللذين تعهدا باحترامها. وبعد تلك الزوبعة التي استمرت شهرا ، عادت الأمور مرة أخرى إلى سابق عهدها.

ولكن، هل كان المصريون سيصبرون على بلواهم بعد أن أملوا مرة شروطهم على البكوات ؟ وأملوها مرة أخرى بعد رحيل الجيش الفرنسي، وفرضوا محمد على عدو المماليك ، حاكما على مصر.. كأن شيئا لم يحدث ؟

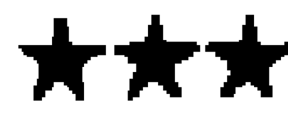
١٧٩٥ .. والحملة في ١٧٩٨.. لم يعط بونابرت المصريين المهلة الكافية، وأصبح خطره أهم من همومهم الداخلية . وبعد الثورات التي استنزفت دماء المصريين وهممهم أثناء الحملة ، وبعد أن عادت الفوضى الى شوارع المحروسة، سعدوا بتسليم أمرهم ليد محمد على القوية ، وعادوا الى العثمانيين من خلاله، كما سبق أن سعد الفرنسيون من قبلهم، بتسليم أمورهم لبطش بونابرت ، حتى تهدأ الأمور وتعود الحياة إلى النظام والهدوء اللذين لا يستتب الأمان دونهما .

ونزل الإنجليز رشيد عام ١٨٠٧ .

نعم فتح بونابرت صفحة جديدة فى تاريخ مصر . لقد لفت نظر الإنجليز لأهمية موقعها وخطرها على سيادتهم للبحار . هذا على مستوى المدى الطويل للتاريخ الذى لا يتحرك إلا بالقرون .

أما على المستوى الداخلى، فأين هذا التأثير على المصريين الذى طالما قرأنا عنه ؟ عاش المصريون خلال سنوات ثلاث أحداثا جساما ، فما كان رد الفعل المصرى ؟

وبم يمكن أن يشبه تأثير تلك الزوبعـة على الوعـى المصرى المعاصر ؟



فى الخامس عشر من ربيع ثان سنة ١٤١٣، الموافق الاثنين الثانى عشر من اكتوبر تشرين أول عام ١٩٩٢، بابه ١٧٠٩ ، زلزلت الأرض زلزالها، وقال الإنسان ما لها، تهدمت البيوت ، وسقطت المدارس وهربت الأبلوات، وتشرد الفقراء ، واستشاطت التليفزيونات، وكثرت النكات، وتبرع الأحياء ، ودفن الأموات، وانهارت الاعصاب، لأن الأرض لم تهدأ إلا بعد شهر .. عادت الحياة بعده الى ما كانت عليه من قبل، ولم يعد أحد يذكر ما حدث إلا كالكابوس الذى ضرب كالصاعقة وتبخر كأى ماض كريه، لا يحسن ذكره . ترى ما الذى كان الجبرتى سيقوله عن هذا الحدث الجلل لو أنه عاصره ؟ أتراه يزيد عما قاله عن السنوات الثلاث التى احتل فيها الفرنسيون مصر، ثم ذهبوا بلا رجعة وكأنه زلزال ضرب وانتهى ؟

ثم يظهر محمد على فى الأفق ، كالموج الكاسح ، يغرق بجبروته كل ما يصادفه من عوائق ، فرسخت اقدامه لسنوات عديدة ، تمتد حتى لما بعد وفاة الجبرتى ورسخت كذلك اقدام نسله من بعده، ولأكثر من قرن من الزمن : إنه تاريخ مصر الذي لا يمكن اسقاطه .

وعلى الرغم من أن الجبرتى قد عاشرهم عن قرب، أثناء اشتراكه معهم فى الديوان الذى عمل فى عهد «مينو» إلا أن قارىء الجبرتى ليشهد على أنه لم يذكر الفرنسيين - بعد رحيلهم - إلا عرضاً ، وكأن مرورهم السريع لم يكن تلك المقابلة الفاصلة التى فتحت للمصريين أبواب عالم آخر باهر، عالم الحضارة الغربية لقد طوى الجبرتى الصفحة، وكأنها انعراج خاطئ فى مسيرة التاريخ الذى يسرده علينا، والحروب بين المماليك بعضهم بعضا، وبينهم و«الباشا» العثمانى، تستأنف ما انقطع من تلك المسيرة مؤقتا بسبب وجود العدو المشترك ، ومرة أخرى، يعود الجميع إلى السباق الدامي للحصول على السلطة .. تماما كما كان يحدث قبل وصول الفرنسيين، إلا أن السباق فى هذه المرة، كان به الفرس الرابع، محمد على .

★★★

هذا ما توصلنا إليه بعد قراءة ما كتبه المصريون أيضاً، وأكد لنا حقيقة مغايرة تماما لما يردده كثير من المؤرخين عن تأثير الحملة على تاريخ مصر والمصريين.

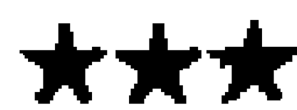
نتيجة كنا قد توصلنا إليها بعد قراءة ما قاله شهود عيان من الفرنسيين أنفسهم .

لقد تم اختيار شهود من الحملة، وآخرين عاشوا في مصر بعدها بحوالى نصف القرن، أو أقل، إما لأن شهادتهم لم تؤخذ قبل كتابة هذه الدراسة(٢٢)، أو لأهميتهم، أو لأمانتهم التى لم يشكك أحد فيها .

وبعد القراءة الدقيقة لكل ما كتب هؤلاء من كتب أو مكاتبات، كانت النتيجة هى نفسها، لاتتغير: لا يستطيع الباحث أن يستشعر – بعد دراسته – أى أثر يبدو أن الحملة قد تركته فعليا، خاصة فيما كتبه من عاشوا فى مصر بعد رحيلها بأعوام ثلاثين أو أكثر؛ والمعروف أن ثلاثة عقود أو خمسة في تاريخ أية دولة، لاوزن لها بمقاييس الزمن، وكأنهم كتبوا فى اليوم الثاني من رحيل الجيش الفرنسي؛ بينما لاتزال آثار الفتحين العربى والعثمانى قائمة حتى يومنا هذا، على الرغم من مرور قرون على تاريخها .

لم يقابل دارس تلك النصوص الموثقة عن الحملة الفرنسية، ما يثبت وجود تأثيرات فعلية على المصريين، أيا كان مركزهم، اللهم إلا الذكريات التى تتوارثها الأجيال عادة، وهذه أيضا لا نجد لها إلا نصيبا ضئيلا في بعض الكتب: ذكريات سلبية لا نستغربها بعد كل ما عرفنا من حقيقة معاملة الجيش المستعمر للأهالى، وهم سكان بلد مفتوح، لا يطلب منه إلا الامتثال للأوامر والخنوع للبطش المنظم، تلبية لمتطلبات الجيش الغازى: إنها الحقيقة التى بدأت تظهر وبدأ أيضاً الاعتراف بها، عند استقرائنا لتاريخ الحملة، بعد مرور مايقرب من قرنين من الزمن، وكان أهم فاضح لها فى فرنسا، رسالة «هنرى لورانس» عن الحملة الفرنسية، التى تمت ترجمتها أخيرا إلى العربية، كما أسلفنا، وقد يكون احسن

دليل على عدم ترك أى أثر للحملة، كما رأينا عند إدوارد لين وكلوت بك ونرفال وفلوبير، ما أكده بعد ذلك المؤرخون الذين اسلفنا دفاعهم الحماسي عن الفكرة الرائعة التى تركها جيش التحرير الفرنسي: إن اقصى ما توصلوا اليه كان تمجيد كتاب «وصف مصر» وهو لم يترجم إلا جزئيا اخيرا، هذا من جهة ، ثم ربط التأثير الثقافى الفرنسى للحملة، من جهة اخرى، بالبعثات التى بدأت تدرس الانسانيات بإيعاز من اسماعيل باشا بعد طمس دوره : فبعد سبعينات القرن التاسع عشر نذكر أن الحملة تركت مصر عام ١٨٠١، كان التيار «المتفرنج» ، فكان «المطربشون» أمام «المعممين»، حسب تعبير طه حسين فى رائعته «الأيام» وكان الانبهار بباريس، وكتاب الاستنارة الغربية فى بداية القرن العشرين .



وبعد .. فإننا لن نعجب لتعليقات المؤرخين الجدد،، الذين درسوا تاريخ بلدهم، بعد التخلص من غشايات الأساطير الكاذبة التى فرضت عليهم شعارات إنشائية لا أساس لها فى الحقيقة، فرضتها لعقود عديدة، هى عقود المرحلة الاستعمارية.

وبدأ المؤرخون الفرنسيون يعترفون بالواقع الجديد عليهم .

الفصل الثالث

« المؤرخون الجدد »

« لايبدو - وذلك في كثير من النقاط - أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذي طالما حُدثنا عنه . لم تدم بصمته ...، لم تكن سياسته إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جدا» .

«الثورة الفرنسية»

«المؤرخون الجدد»

مما لاشك فيه أن الأستاذ «فرانسو فوريه» هو أشهر اسم في مجموعة «المؤرخين الجدد» فقد كانت كتبه عن الثورة ـ كما أسلفنا ـ بمثابة قنبلة نسفت معبدا كان اليساريون والجمهوريون يتعبدون فيه. وفي كتابه الشهير عن «الثورة الفرنسية» الذى كتبه مشاركة مع «دينى ريشيه» ونشر سنة ١٩٦٥ ، صور جند بونابرت فى الحملة على ايطاليا بتفاصيل يعجب لها من قرأ أدبيات الثورة السابقة ، حيث كان «جند الجمهورية» يقدمون على أنهم محررو شعوب البلدان التي فتحوها والذين نشروا بينهم «مبادىء الحرية والمساواة والأخوة» وكان التاريخ الرسمي يجعل منهم قديسى العلمنة ، سفراء الحكمة الثورية ، وشهداء أجيال المستقبل من أجل حياة الرخاء والأخوة الجديدة من أجل ذلك سميت البلاد المستعمرة «بالمحررة» وبالجمهوريات الأخوات؛ ولكن هذا الكتاب يعدد المجازر التي رد بها الفرنسيون على ثورة الايطاليين على الاحتلال الفرنسي الواقعي ، وحرقهم للمدن واعدامهم للرهائن . ومن بين ما يفضحه المؤرخان ـ فوريه وريشيه – نقرأ ما كتبه الجنرال بونابرت المنتصر، عن تلك التصرفات التعسفية لحكومة «الإدارة» قائلا : «أنا واثق أن هذا الدرس سيكون القدوة لشعوب ايطاليا» : كلام يمكن أن يطبق حرفيا على ما سيحدث فى مصر بعد ذلك . ويعلق كاتبانا على هذا التصرف بما سبق أن ذكرناه فى الجزء الأول من دراستنا هذه ، ونكرره هنا لأهميته: «وبسذاجة الضمير المستريح ، كان الفرنسيون يعزون هذا الشعب الى غوغاء رافضة لقيمة الحرية، غوغاء يلهبها تعصب

وتطرف قساوسة مثل الذين لعبوا دورا في فانديه . وقد شارك بعض المؤرخين في تصديق هذه الأوهام ، واعتبروا أن هذه الثورات ثورة مضادة ، بينما هى فى الواقع دفاع بدائى لشعب يحمى نفسه من قطاع طرق أجانب استباحوا البلد» (٢٢). جنود الثورة أصبحوا فى نظر هذين المؤرخين اذن قطاع طرق أجانب استباحوا البلد ، وهى هنا ايطاليا ، ولو أن المؤرخين اهتما بالحملة على مصر كما اهتما بالحملة على ايطاليا لأعادا الكلام نفســه بعد أن نزعا عن جيش التحرير الثورى ، ثوب القدسية الذى أخفى جرائمه لقرنين من الزمن : إن ما قرأناه بقلم شهود الحملة العيان ، يجعلنا لا نستغرب تقييم «ريشيه» و«فوريه» «لجنود الحرية» هؤلاء .

ولكن المؤرخين ، عندما تعرضا للحملة ، اعتبراها من اختصاص بونابرت. وأغلب الظن أنهما رفضا الخوض فى موضوع لم يتخصصا فيه ، فرفضا الحديث عن تفاصيله كما فعلا مع تاريخ الثورة الذى قتلوه بحثا، مما يدل على أمانة علمية نادرة وسط أقرانهم .

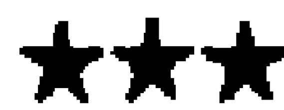
وعندما نشر «فرانسو فوريه» وحده جزءى كتابه عن «الثورة» سنة ١٩٨٨ ألقى بمسئولية الحملة مرة أخرى على بونابرت لأن «مصر كانت جزءا من عالمه الخيالى » شارحا موقفه بقوله: «سأترك الحملة على مصر خارج هذا السرد ، لأن الحملة لها قصتها الخاصة ، المستقلة عن الأحداث الفرنسية ، إنها على عكس ذلك ، ضرورية لفهم مسألة الشرق فى القرن التاسع عشر (علاوة على أن) المسألة كانت محسومة منذ البداية»، عندما أغرق نلسون الاسطول الفرنسى (٢٤) : كلمات معدودة

فى نصف صفحة قصيرة ، وسط التفاصيل الدقيقة التى تحكى ثورة ١٧٨٩، وماتلاها من سيطرة نابليون على فرنسا ، يوما بعد يوم ، حتى النهاية فى عام ١٨١٤. يرفض فرنسوا فوريه إذن التحدث عن الحملة ، لأنه يعتبرها جسما كالنتوء الغريب ، لها ظروفها المحلية التى تبعده عن اختصاصه المباشر: إنه لم يتخصص الا فى دراسة غاية فى الدقة للثورة الكبرى ، وفى سياساتها الداخلية والخارجية.

«فوريه» و«ريشيه» : «الثورة الفرنسية »

ولكن كتاب الثورة الفرنسية القديم ، كان قد تعرض بصورة أدق للحملة ، بصفتها من حروب الثورة وحكومة «الإدارة». والمؤرخان لايتحدثان فيه إلا عن بونابرت ، مما يشرح أيضا رفض «فوريه» ، فيما بعد ، الخوض فى موضوعها مادام يعتبرها جزءا من سيرة بونابرت ، أكثر منها جزءا من تاريخ الثورة لذا فإن المؤرخان لن يشيرا ، فى كتابهما إلا الى المرحلة التى كان الجنرال الشاب يحكم فيها مصر وكأنهما لايهتمان بالحملة إلا بسبب اسم قائدها .

إنهما يردان فى مؤلفهما على أسلافهما من المؤرخين ويقولان ذلك صراحة ، ولذا ، فلا غنى عن قراءة أهم ما قالاه لينفذا أقاويل أشهر مؤرخى «حملة بونابرت على مصر» والذى سبق أن قرأنا لهم فى الجزء الأول من هذه الدراسة «عصر الأساطير» .



يذكرنا هذا الكتاب بأن أحد أسباب قيام الحملة أن التقارير التى قدمت للحكومة كانت تؤكد أن «الشعب المصرى سيستقبلنا بفرح بالغ»

علاوة على كل مزايا الاستيلاء على أرض مصر الخصبة وضرب مصالح انجلترا ، ويجزم كاتبانا أن بونابرت كان فى حاجة الى نصر باهر فى الشرق ، يزيد من فرص استيلائه على السلطة فى فرنسا ، كما أن تمويل الحملة جاء من نهب كنز مدينة «برن» السويسرية. أما عن الحملة نفسها «فهذه الغزوة التى قامت فى وقت سلام تام «مع تركيا» لأرض يمتلكها السلطان، قد اثارت صعاب جسيمة»، و «كان تفوق العدد والتسلح ، سبب نجاح غزو مصر ، ولكنه لم يجهز على المماليك ، وفى هذه الاثناء وقع الجيش الفرنسى فى الفخ» ، بعد «معركة النيل» كما يسمى الانجليز معركة أبو قير البحرية «معركة النيل كانت انتصارا للذكاء على روح المغامرة» ثم نقرأ كل النتائج السلبية للحملة ، وما فقدته فرنسا بسبب انعقاد التحالف الثانى ضد فرنسا ، ردا على هذه الغزوة .

وكان الكلام بالنسبة لحكم بونابرت صريحا قاسيا ، وجاء «قانون المنتصر» بمعنى «حكم القوى» عنوانا يلخص رؤيتهما وتحمله صفحات سبع تعرض مارأه المؤرخان أهم الأحداث . ويرد فيها الكتاب على ما كان يقال عن الحملة حتى أصبح واقعا ومسلمات لا تناقش؛ فنقرأ التالي: «تمجيد سياسة بونابرت فى مصر كان من المسلمات لزمن طويل ، فى التاريخ الفرنسى الرسمى على الأقل ، وقد قيل إن هذه السياسة عمل تحريرى ، وانفتاح لمصر على الحضارة الحديثة والتقدم. ولو أننا نظرنا اليها عن قرب ، فلاشك فى أننا سنجد بها بعض الجوانب المجددة، ولكنها عبارة عن اجابات تقليدية لمشاكل أزلية، فقد عرفت بلاد

النيل، خلال تاريخها الطويل ، أقليات غازية أخرى، غريبة بجنسها وحضارتها ودينها ، كانت تقابلهم كلهم الصعوبات نفسها ، رئاسة ادارة محلية كان لابد من الابقاء عليها ، التسامح لتهدئة الخطر المحدق بالديانة ، نهب الضرائب، كبت الثورات ومحاولة كسب ود الأعيان». فماذا كانت النتيجة بالنسبة لبونابرت الذى فعل مثل ما فعل سابقوه في غزو مصر؟. كانت الثورة في كل مكان .. ويصل المؤرخان لتقييم صريح للموقف: «لاييدو - وذلك فى كثير من النقاط - أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذى طالما حُدثنا عنه ، لم تدم بصمته من ناحية ، ومن ناحية أخرى، لم تكن (سياسته) إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جدا وعلي الرغم من ذلك فقد كانت مغامرته فريدة في ميدانين ، لقد وفرت لمثقفى وتقنو كرات القرن التاسع عشر حقلا ممتازا للتجارب العلمية»: الكلام واضح ولا يحتمل التأويل ، فالحملة اذن لم تفد أحدا غير فرنسيي القرن التاسع عشر، ولم يذكر حجر رشيد أو كتاب «وصف مصر» وكذلك لم تدم بصمة بونابرت ان كان قد ترك بصمة.

وعند تحليل أعمال المعهد الفرنسى ، أو بالاصح فرعه فى القاهرة نجد هذه الصفحات التى تقيم الحملة بموضوعية جديدة على من كان يؤرخ لها تؤكد الرؤية نفسها ، أى أنه لم يفد أحدا غير الفرنسيين .

ونقرأ التالي : «المادة الثانية تحدد الهدف المطلوب منه :

١ ـ تقدم التنوير ونشره فى مصر .

٢ ـ بحث ودراسة ونشر العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية فى مصر .

٣ ـ ابداء الرأى فى مختلف المسائل التى تطرحها عليه الحكومة».

ويقول الكتاب بعد سرد هذه الأهداف الثلاثة للمعهد فى مصر: «إن كان الهدف الأول لم يتحقق، وكان الثانى أكثرها خصوبة من المنظور التاريخى، فإن بونابرت كان يصب اهتمامه الخاص على الهدف الثالث»: الكلام واضح، فالاهتمام الفعلى كان طبعا لخدمة مشكلات الجيش فى حياته اليومية وإيجاد حلول محلية لها. لم يستفد المصريون شيئا من الأبحاث العلمية للمعهد اذن، وهذا الكلام منطقى لأن المعهد لم ينشأ أساسا من أجلهم بل من أجل رفاهية الجيش ، الأمر الذى يشرح غموض الشعارات التى طالما قرأناها عن الأثر الرائع الذى تركه المعهد ، والذى أخرج مصر من الظلمات إلى شمس التنوير .

عندما بحث مؤرخانا عن حقيقة الأمر ، لم يجدا شيئا واحدا يبرر أيا مما كان يقال : ونلاحظ نبذة غريبة وجديدة على الأدبيات التاريخية الفرنسية ، وهى الإشارة الى المؤرخين غير الفرنسيين وقد كانوا دائما موضع هجوم لأنهم يقولون الحقائق التى لا يرضى عنها «التأريخ الفرنسى الرسمى» قيل هذا بلباقة شديدة وحياء لغوى مستحب فى ذلك العصر ، باستعمال كلمتى «على الأقل». فإن «المؤرخين الجدد» الذين سيكتبون بعد ذلك سيواصلون المسيرة بالاعتراف جهارا بجدية الدراسات غير الفرنسية خاصة الأنجلو ساكسونية منها ، لأنها لم تكن تتعامل مع التاريخ الفرنسى من منطلق شوفينى ، يشوه ويدلس حتى تبدو الصورة ملائمة للهوى .

وتنتهى الصفحات السبع (والكتاب به أكثر من خمسمائة صفحة) وينتهى الجزء الخاص بالحملة برحيل بونابرت وكأن المؤلفان لم يبغيا الا نقد ماقيل عن بونابرت «وسياسته المصرية»، تنتهى تلك الصفحات بسرد لنشاط بونابرت العلمي، وتكون آخر الكلمات : «كان هذا العمل عابرا ولم يكن له أى تأثير على مستقبل مصر، لكنه أثر بعمق على جيل المهندسين السان سيمونيين» .

وقصة هؤلاء مع محمد على ثم فى الجزائر معروفة ، ولا علاقة لها بالحملة كما يقولها الكتاب صراحة قد تكون الحملة رحما شكل تجاربهم لكن تأثيرهم لم يغير شيئا من وجه مصر ، لأن محمد على لم يسمح لهم بمزاولة نظرياتهم الاستعمارية الاستيطانية .

أيا كان ، فقد توصل مؤلفا كتاب «الثورة الفرنسية» الشهير الى النتيجة نفسها التى سبق أن توصلنا اليها ، وهى أن الحملة كانت زوبعة عابرة ولم تترك أثرا فى تاريخ مصر. لقد حطم هذا الكتاب، بكلمات وجيزة، أسطورة الحملة ، كما حطم بإسهاب أسطورة الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩ .

ولكن كيف كان الأمر مع المؤرخين الآخرين ؟

***

لن نتوقف عند ما قاله «هنرى لورانس» فى رسالته،لتوافرها فى الاسواق مترجمة للعربية، خاصة أن الكتاب يقول الكثير، فيكون الرجوع إليه بمثابه إعادة نشره، علاوه على اننا لا نريد ان نخل بتوازن ما نعرض له عند الكتاب الآخرين . ولذا، فإننا، حالياً على الأقل، ننحى كل

ما قاله جانباً، حتى نرى ما يكتبه الآخرون على ضوء الكلام التقليدى الذى اعتاده القارئ الفرنسى لما يقرب من قرنين من الزمن.

«روجيه دوفريس» : «نابليون»

في سنه ١٩٨٧ظهر عدد من سلسله كتب «ماذا أعرف؟» العلمية الشهيرة، فى مائة وخمس وعشرين صفحة من القطع الصغير، تحت عنوان «نابليون» (٢٥) .

وكان من الطبيعى ألا يستطيع مثل هذا الكتيب – الذى يغطى كل أحداث حياة نابليون الحافلة – التحدث عن الحملة على مصر فى أكثر من صفحات أربع . وعلى الرغم من ذلك فإنه ذو دلالة مهمة، فهو نموذج آخر لرؤية «المؤرخين الجدد» . وتكمن أهميته فى صغر حجمه، وانتشاره الواسع، بسبب جدية علوم هذه السلسلة التى تساعد المتخصص، وسهولة قراءتها التى تنير العامة .

وقد ظهر هذا الكتيب فى السنه نفسها التى كتب فيها «جان تولار» عن «أسطورة المنقذ» الكاذبة، فنابليون هذه المرة أيضا، لم يعد ذلك الإله الذى لا يخطئ، ولا ينجز إلا المعجزات التى لا يقدر عليها إلا عبقرى فذ مثله، ولكنه هنا الإنسان الذى اقترف من الاخطاء ما يمحى كل إيحاء بذلك الانبهار الذى اتسمت به الكتابات السابقة عند الحديث عنه .

فالمؤلف يقول صراحة ما أخفاه كثيرون، مثل تمسك نابليون باسمه الإيطالى «نابليونى بيونابرتى» (٢٦) حتى سنه ١٧٩٥، وهى السنه التى أراد فيها السفر الى تركيا مع بعثه الخبراء العسكريين المرسلين إلى اسطنبول . كما ان مؤرخنا «دوفريس» يعترف أن بونابرت استقبل فى

شمال إيطاليا كمحرر، إلا ان «الثورات اندلعت ،...، بسبب الضرائب الطاحنة التى فرضها (الفرنسيون) والتى كشفت (لبونابرت) عن قوة الشعور الوطنى الإيطالى . وبسبب تلك الاحداث، عمل نابليون كل ما فى وسعه لكبح جماح هذه الفتن، وتنازل عن فكرة خلق دويلات إيطالية مستقلة، فهو لن يسمح بعد ذلك إلا بإنشاء دول موالية لفرنسا» : مما يؤكد زيف فكرة جيوش بونابرت المحررة للشعوب .

كما نرى فى هذا الكتيب، نفاق بونابرت السياسى فى أحسن دلائله، عندما أمرته حكومة الإدارة بإنهاء البابوية، وإطفاء شعلة التعصب الدينى هذه : إنها السياسة التنويرية كما كان يفهمها رجال القرن الثامن عشر . نفذ بونابرت «الاوامر ولكنه أكد للكاردينال وزير شئون الدولة (البابوية) فى الوقت نفسه، أنه يحترم شخص البابا والديانة الكاثوليكية». يعرف القارئ أن بونابرت سيؤكد، كذلك، فى بيانه الأول للمصريين، عداءه للبابا ورفضه تلك الديانة . ولم تترجم هذه الفقرة إلى الفرنسية عند نشر هذا البيان فى فرنسا . ولكن «شاتوبريان» لن ينسى له تلك السقطة، مثل كثير من اليمينيين الملكيين المتدينين .

الغريب فى كتاب «دوفريس»، انه لم يذكر مصر أثناء حديثه عن تصرفات بونابرت فى إيطاليا مثله فى ذلك مثل الغالبية العظمى من المؤرخين، فهو يقول : «فوجئ بونابرت بردود الأفعال العدائية للإيطاليين، وكان منهم الرعاع الذين يثيرهم الرهبان، وكان منهم ايضا اناس يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية بصدق. لم يفهم بونابرت أنه أمام أولى المظاهرات الوطنية الإيطالية الرافضة للأجانب .لم يفهم انه من الممكن

التصدى لتجاوزات الاحتلال الفرنسى، مع كون الرافض لها يعقوبياً صادقاً . ولنقل بإيجاز، إنه اقترف الخطأ الذى سيتكرر فيما بعد فى أسبانيا، والمانيا، وروسيا، وهو إنكاره قدر الشعور الوطنى التحررى للشعوب المستعمرة». تجاهل مؤرخنا هنا ذكر ما حدث أيضا فى مصر، وطمسه تلك الحقيقة يذكرنا بكتابات مؤرخى العصر الاستعمارى، كأن لمصر وضعاً خاصاً، لا ينطبق عليه ما حدث فى البلاد الأخرى من ردود أفعال مشروعة على احتلال قاس ، يجعلها تثور لسلبها أبسط حقوق العيش الكريم.

وبعد إيطاليا، ينتقل دوفريس إلى مصر مع بونابرت، فى صفحات أربع ، نعود اليها لاحقاً، فنقرأ أولا ما قاله ، مؤرخنا ، بعد ذلك ، عن حكم نابليون، عندما استولى على السلطة فور عودته من الشرق.

ولن نتمادى فى ذكر ما كتبه، خاصة أن مؤرخين آخرين كانوا قد قالوا الكلام نفسه، وسبق أن استرشدنا بتأكيدهم لما يبدو أنه أصبح الصورة الجديدة للاستعمار الفرنسى فى ذلك العصر ، على أيدى جيش كان يصور سابقا على أنه منح أوربا الحرية ومبادئ الثورة. فبلجيكا وهولندا فى حالة ثورة بسبب تجاوزات الجند فى البلاد المحتلة «المحررة»، والضرائب الباهظة المفروضة عليها. ويقول مؤرخنا: «إن الفلاحين (فى هذه البلاد)، حين طلبوا للتجنيد، ثاروا بمساندة الكهنوت»، فقد كان دور رجال الدين المحليين ضد المستعمر الفرنسى، من أهم عناصر الثورة ضد المحتل، وهو ما يشبه إلى حد كبير، دور رجال الدين فى مصر؛ ولكننا لا نجد أيه إشارة إلى هذا التشابه هنا أيضا.

ثم يكون وصف الحكم غير الديمقراطى لفرنسا، بما فيه من إلغاء لمبادئها، وتجريدها من كل مكاسب الثورة السياسية ، كما سبق أن عرفنا. ومرة أخرى، لا نجد أية مقارنة بين هذا الحكم وما كان يماثله فى مصر.

والجديد أن مؤرخنا يشير، وبالتالى يشرح سبب ثورة عبيد المستعمرات: «لقد تسببت إعادة قوانين الرق ـ بقانون السابع عشر من مايو ١٨٠٢ ـ فى الثورة، وإضاعة جزيرة سان – دومينج»، هذه الهزيمة التى قلما تحدث عنها المؤرخون، لأن قائدها لم يكن الجنرال بونابرت، ولكن زوج أخته الجنرال «لوكلير». ويشير «دوفريس» إلى أن تتويج نابليون ملكا على إيطاليا في مارس من عام ١٨٠٥ «لم تسبقه أية استشارة شعبية تدعم هذا التغيير. لقد أدار نابليون ظهره للنظرية الثورية للعقد» الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ونعرف من تفاصيل الدراسات الأخرى، أن «استشارة» فرنسا فيما سبق من قرارات وتغييرات، لم تكن إلا صورية. فما الجديد إذن؟. وسيحدث الشئ نفسه فى سويسرا ثم ألمانيا، مع اختلاف اللقب الجديد فى كل من هذه البلدان. لذا، جاء الاعتراف صريحا، «فدوفريس» يستعمل كلمة «مستعمرات الإمبراطورية» عندما يتحدث عن بلاد أوربا «الصديقة» لفرنسا .

ويذكرنا وصفه لما يقترفه الجند الفرنسيون في هذه البلاد، بما كان يحدث في مصر عندما أطلقت أيديهم، كما حدث في أوربا: «على الجندي أن يعيش على خير البلد، فكثيرا ما يتحول إلى لص ناهب للمأكولات. فالأجور لم تكن تدفع بانتظام، وغالبا ما تكون من الضرائب المفروضة على المهزومين».

ويؤكد مؤرخنا على جانب آخر من تاريخ نابليون، وهو بذلك يعتبر من القلة الذين توقفوا عند نقطة تتويجه إمبراطورا ونتائج هذا الحدث؛ إذ «شعر نابليون منذ تلك اللحظة أنه من عائلة الملوك، وبالتالي، فإن عليه أن يتنازل عن كونه «الثورة المسلحة» في أوربا. وحتى يثبت شرعيته أمام أوربا الملكية، أخذ يعقد الزيجات مع العائلات الملكية الحاكمة آنذاك». ويذكر «دوفريس» - والأمثلة كثيرة - كيف تم اختطاف أحد الناشرين في مدينة «نورنبرج» الألمانية وإعدامه لأنه كان يوزع منشورات ضد نابليون، وكيف حاول نابليون أن يحرض النزعة القومية في المجر لتثور على الحكم النمساوي، ولكن محاولاته باءت بالفشل؛ ومرة أخرى لم يذكر أن هذا بالضبط ما حاوله بونابرت في مصر لسلخها عن الإمبراطورية العثمانية، بدعوى إحياء المجد السحيق لمصر.

كما أن مؤرخنا يلاحظ أن نابليون قد أعاد «التعذيب الوحشي» إلى القانون الجنائي الفرنسي، ونحن نعرف أن الملكية كانت قد ألغت التعذيب قبل قيام الثورة بسنوات. ولن يعجب القارئ العربي «للوحشية الإمبراطورية»، إذا تذكر ما حدث لسليمان الحلبي: حوكم حسب «العدالة الفرنسية»، ولكن طبق عليه «القانون المحلي» ليتم تعذيبه.

ويقول مؤرخنا باقتضاب: «تأكد الطغيان فى ظاهرة «التحكم» فى العقول». ليفضح مرة أخرى «تجنيد الفنانين لخدمة النظام (و) سيطرة الأسطورة الإمبراطورية على الجمهور، فأصبح هناك عبادة إمبراطورية، كان لها مثلا تقويم لطقوس دينية خاصة بها»، وذلك بمساندة رجال الدين فى فرنسا كما سبق أن قرأنا.

ثم يكون الاعتراف بالدور البريطاني فى إخراج الفرنسيين من أسبانيا: «في عام ١٨١٠، توجه «ماسينا» على رأس مائة ألف جندى، مأمورا بتنظيف شبه الجزيرة الأيبيرية من الوجود الإنجليزى. دخل البرتغال، ولكنه طرد منها عام ١٨١١، .... ، وفى أوائل ١٨١٢، دخل ولينجتون (الإنجليزى) أسبانيا، وفى الثانى والعشرين من يوليو ،....، سحق مارمون و كلوزيل، وطرد جوزيف (أخو نابليون المتوج على عرش أسبانيا) من مدريد». فكانت مساعدة الإنجليز للأسبان مثل مساندتهم للعثمانيين والمصريين لطرد الفرنسيين، وهذا أيضا لم يذكر.

أما عن الحملة على روسيا، فهى أيضا تذكرنا بما حدث فى مصر، خاصة أن «دوفريس» يشير بوضوح إلى ماتاه فى الكتب الكبيرة التى تحدثت عن الموضوع. فالمعروف أن بونابرت جاء إلى مصر ليحدث المصريين عن مبادئ لا علاقة لها بواقع مصريى ذلك العصر، وبمنطق لا يناسب ما كانوا يعيشونه آنذاك . وكان بونابرت ينتظر أن تثور شعوب الشرق على حكامها، مثلما حدث فى فرنسا، فيكون هو محررها وقائدها. ولسان حال الموقف يعبر عنه «دوفريس» بقوله عن الحملة على

روسيا: «ذهب إليها نابليون وكله أفكار خاطئة. كان ينتظر أن يثور أقنان الأرض لأنه يجلب لهم مبادئ ١٧٨٩، مع أنهم لم يكونوا قد سمعوا عنها مطلقا. ومع ذلك، فهو لم يحررهم حتى لا يفسد المصالحة المقبلة التى كان ينتظرها، مع القيصر»: الازدواجية نفسها قابلناها فى مصر، فقد كانت البيانات تتحدث عن الحرية والمساواة، وفى الوقت نفسه تسير الأفعال فى خط مناقض تماما، فرفض المماليك مطلوب من المصريين، ولكن معاملة الفرنسيين للمصريين كانت نفس معاملة المماليك لهم .... إن لم تكن أسوأ.

كتيب «دوفريس» صغير حقا، خاصة إذا ما قارناه بالمجلدات التى نشرت ولا يقرؤها غير المثقفين المتخصصين. أما هذا الكتيب فهو للطلبة وعامة الجمهور المهتم بقضايا التاريخ، دون أن يغوص فى تفاصيل مرهقة، قد يغرق فيها القارئ فلا يواصل قراءتها؛ كتيب للعامة يثبت أن أسطورة نابليون محرر أوربا ونصير القوميات قد انتهت.

فماذا عن أسطورة الحملة، ومؤرخنا يفضح بموضوعية قاسية، الحقيقة المؤلمة وراء أسطورة نابليون؟

★★★

يقول «دوفريس» إن الحملة على مصر ليست إلا نتيجة لاستحالة غزو إنجلترا، كما كان الأمر مطروحا. وكان رأى بونابرت، عندما رأى ضعف البحرية الفرنسية، أن تُضرب إنجلترا فى أرض حليفتها «هانوفر» أو ضربها فى مصر. ولكن ضرب «هانوفر»، الأرض الألمانية، يمكن أن يشعل حربا جديدة مع كل الدويلات الألمانية الأخرى؛ أما احتلال مصر

فسيعوض خسائر فرنسا في مستعمراتها المفقودة، حتى إن كانت مصر ملكا لتركيا، وهي دولة صديقة لفرنسا، وليس لها أية معاهدات أمنية مع انجلترا. ومصر على طريق الهند، وفي الهند ثورة ضد الإنجليز، يمكن مساعدتها إذا كانت مصر تحت السيطرة الفرنسية. فكان قرار غزو مصر دون إعلان حرب.

وكان أول أخطاء نابليون، الذي سيكرر المأساة في روسيا فيما بعد: إنه الجهل بمناخ البلد الغريب؛ وهكذا «ستنزل القوات مرتدية ملابس الميدان الشتوية في شهر يوليو» إلى صحراء مصر الحارقة.

أمرت حكومة «الإدارة» بونابرت بإرسال خمسة عشر ألف جندي من السويس إلى الهند لمساعدة الثوار الهنود «ولكن كان عليه أن يضمن سيطرته على مصر أولا. وعندما وصل إلى السويس في ديسمبر ١٧٩٨، لم يجد السفن الكافية لهذه المرحلة، وكان تيبو - ساهيب (قائد ثورة الهند) قد هزم وقتل».

«كانت الحملة على مصر، على المستوى الحربي، فاشلة فشلا تاما: الجيش الفرنسي محصور في غزوته، وإنجلترا سيدة البحر المتوسط، وقوتها في الهند موطدة. وكانت للحملة نتائج مؤسفة، ففي ديسمبر ١٧٩٨ أعلنت تركيا الحرب على فرنسا. وبعد ذلك بقليل، سمحت للقيصر بدخول أسطوله الحربي إلى البحر المتوسط. وفي ديسمبر، عقد تحالف بين إنجلترا ونابولي وروسيا ،..... وعندما سمحت النمسا للجيوش الروسية بالمرور في أراضيها، أعلنت فرنسا الحرب عليها، في مارس

«كما سبق أن حدث في إيطاليا، حاول بونابرت في مصر أن يستميل أعيان البلد - على الأقل - ليضمهم إلى صفه، مما أجبره على التنظيم والإدارة والتقنين، ولكنه لم يعدل عن سياسة استغلاله للبلد، فباءت سياسة الضم هذه بالفشل».

«في الثاني من يوليو ١٧٩٨، تقدم إلى الأهالي على أنه محررهم، مؤكدا نيته في احترام القرآن، فقد كان شديد الحرص على تفادى المشاكل الدينية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، أطلق نداء صريحا بالثورة على المماليك، ولكن أحدا لم يتحرك، فكانت المفاجأة الكبرى له. وبعد ذلك مباشرة، بدأ في فرض ضرائب باهظة من الذهب والفضة على تجار الإسكندرية. عندما فهم استحالة إدارة البلد بطريقة مباشرة، نصّب في كل مدينة «ديوانا» من الأعيان، وظيفته السهر على الإدارة، والتموين والشرطة، تحت مراقبة مندوبين فرنسيين. أما فيما يخص العدالة والضرائب، فقد حافظ على الأسلوب المحلي».

«وقد أنشأ في الثاني والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ ما يمكن أن يعتبر فرعا لمعهد باريس، حتى يسهل على العلماء الذين اصطحبوه أعمالهم. إنه «معهد مصر» (أي المعهد الفرنسي) الذي طلب منه أن «ينشر التنوير في مصر ويساعد على التقدم»، ودراسة كل موارد البلد وتاريخه. وإن كان الجزء الأول من المهمة قد فشل تماما، فإن الجزء الثاني قد وفر الوثائق التي سمحت بميلاد علم المصريات». ثم نقرأ عن كل المشروعات التي أراد نابليون تحقيقها، ويعترف مؤرخنا: «كان

الهدف الأكيد هو حماية الجند من الأوبئة، ولذا فقد اتخذت عدة قرارات لتحسين صحة أهل البلد، لم يكن لتلك السياسة أى تأثير مباشر، غير أنها أدهشت أطباء البلد. ولكنها كانت أصل الانطلاقة الاقتصادية المقبلة للبلد...»!: صوت نشاز، فجأة، وسط كل هذه الموضوعية العلمية، خاصة أن مؤرخنا يقول الكثير فى أسلوبه الواضح على اقتضابه، مثل سخريته من مفاجأة بونابرت بعد ندائه بالثورة على المماليك. فالجملة الأخيرة لا يبررها - من الناحية المنطقية - أى كلام سابق عن المشروعات التى تستهدف كلها حرية حركة الجند فى الوادى، ولا يرى القارئ أى صلة بين هذا الكلام عن «دهشة أطباء البلد»، وما سيحدث بعد ذلك - على المستوى الاقتصادى- فى عهد محمد على. مرة أخرى، ومع اعتراف «دوفريس» بما كان المؤرخون السابقون لا يميلون إلى ذكره، نجد لازمة كل ما يمس وجود الفرنسيين فى مصر، وهى إرجاع الفضل فى انطلاقة محمد على إلى الوجود العسكرى الفرنسى. تناقض غريب، خاصة إذا ما استمر الدارس فى قراءته ليعرف ما يقوله المؤرخ نفسه بعد ذلك: «كان أهل البلد لا يطيقون رق الاحتلال. وساءت الحال عندما أعلن السلطان الحرب المقدسة على الفرنسيين. ومنذ سبتمبر ١٧٩٨، اندلعت الثورات، وتلتها ردود الأفعال الثأرية الدموية»: كلمات مقتضبة مرة أخرى، ولكنها تدمغ الاحتلال بوصمه الوحشية.

ويلخص «دوفريس» بعد ذلك ، سريعا، معارك بونابرت، مؤكدا أن: «بونابرت لم يستطع فتح عكا، التى كان يدافع عنها المهاجر الفرنسى «فليبو»، زميل دراسته فى الماضى، فعاد إلى مصر». وهنا، تظهر حقيقة

الأمر ويتجلى: إن «دوفريس» من ذلك النوع الجديد من المؤرخين الذى يعترف بالحقائق المؤلمة، ولكنه لايزال متمسكا، ولو فى دخيلة نفسه، ببعض خيوط الأسطورة، لزوم شوفينيته؛ فالذى هزم بونابرت فى عكا لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا، وصحوة مصر فى القرن التاسع عشر لابد أن تكون وليدة الوجود الفرنسي، حتى وإن كان عاريا من أى دليل يؤكد به مثل هذه الادعاءات. وعلى الرغم من وضوح كلامه السابق كله، إلا أننا نجد هنا تلك البؤرة المظلمة من الإنشاء الأجوف والمسلمات الغامضة، التى تؤكّد ، دونما دليل تستند عليه.

ولكن إذا ما قورن باقى كلام الرجل بما سبق أن عرفناه فى الكتابات الأخرى، فإنه ، بالقطع ، يعتبر قفزة هائلة نحو الاعتراف بالواقع، ورد الاعتبار للمصريين الذين لايستقبلون الغزاة بالأحضان، كما سبق أن قرأنا. وكأن هذا الكتاب يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فبه - على المستوى العلمى - من الأمانة ما يجعله يدحض ما كان يقال عن الانتصارات المعجزة لبونابرت، معبود المصريين المبهورين به؛ وإن كان لايزال أسير أسطورة جعلت من الحملة حربا خاصة، لا علاقة لها بحروب الثورة الأخرى، ولا يمكن أن يهزم قائدها على أيد غير أوربية.

بضع سنوات، وتزداد الشجاعة.... وينقشع ما تبقى من سحب كانت تحجب نور الحقيقة الكاملة.

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية»

فى عام ١٩٨٩، نشر «هنرى لورانس» رسالته للدكتوراه عن «الحملة على مصر» وقال فيها كل ما يمكن أن يقوله دارس شاب

حديث، تخلص، مثل علماء جيله، من غشايات الأساطير الخاصة بفرنسا، الدولة الاستعمارية العظمى: لقد تحدث فى كتابه هذا، كما أسلفنا، عما قيل عن الحملة كله، ففضح كل مساوئها. ولكن مؤرخا آخر أراد أن يزيد على ما نشر، ففى عام ١٩٩١- أى بعد كتاب «لورانس» بعامين فقط - كان كتاب بعنوان «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية : ١٧٩٨ - ١٨٠١» (٢٧).

يتحدث «جان - جويل بريجون» مؤلف هذا الكتاب، عن رسالة «لورانس» بتعال شديد، ومن البديهى أنه حاول التفوق عليه. ولكن كتابه، على ضخامته، لا يقدم رؤية متسقة نستشف منها موقعه الحقيقى من الأحداث التى يرويها، حتى أن خاتمة الكتاب جاءت مفاجأة تامة للقارئ! والمعلومات التى يقدمها مؤرخنا مفككة، لا تضيف، فى الواقع، جديدا إلى جوهر الموضوع، ولكن كتابه يهمنا لما يورده من معلومات تثبت أن ثمة حقائق لم يعد من المستطاع السكوت عنها.

يبدأ «بريجون» مقدمته بنقد ساخر «لكل المؤرخين العرب» الذين أرخوا للحملة وانبهروا ببونابرت وحملته... ثم نراه لا يذكر إلا ثلاثة كتب! فإذا جاء، فى إطار الحديث، ذكر كتاب يعارض كلامه هذا، فهو لا يتحدث عنه إلا فى أحد هوامشه ويتهم مؤلفه بالسلفية الدينية المتعنتة. ومن البديهى أنه لم يقرأ من كتب «المؤرخين العرب» إلا هذه الكتب الأربعة وإذا ما تعرض بعد ذلك لمؤرخ فرنسى حديث، عاب عليه «تجاهله المتعالى لوجهة نظر أهل البلد». أما عن «كريستوفر هيرولد»، فهو «يعبر عن وجهة نظر أنجلو - ساكسونية نموذجية (أى أنها معادية تماما

للفرنسيين). فيحلو له، فى كل صفحة تقريبا، سرد وصف لحظات الضعف، والتخبط، وحتى عيوب الرجل الكبير»، أى بونابرت .

نجد إذن، ومنذ الصفحات الأولى، إدعاء صارخا بالموضوعية التى لا يساندها فعل، فهو يعيب على الأمريكى نقده بونابرت، ولا يقدم من المؤرخين العرب إلا قلة لا تدل إلا على تحيز تيار بعينه للفرنسيين فاعتبرهم «كل المؤرخين العرب»، دون ذكر للتيارات الأخرى. وإذا قابل نموذجا لأحد هذه التيارات، همّشه ودمغه بوصمة التعنت السلفى، ثم يدخل فى صلب الموضوع. لن نناقش ما قاله كله، فيكفينا رصد بعض المعلومات الجديدة التى أوردها فى كتابه الضخم، والتى تخص قضيتنا، كما سنترجم من تعليقاته ما ينم عن نظرة حديثة للحملة ورجالاتها.

فهو يعترف مثلا بالمحاولات الدائمة للإرساليات الكاثوليكية الفاشلة، فى ربط الأقباط المصريين بهم كما سنقرأ - عندما يتحدث عن يعقوب - قوله إن يعقوب هذا «أحد الأقباط النادرين الذين حاربوا بجانب الفرنسيين». وعندما يتعرض للحملة، يلاحظ أن «أكثر الحجج شيوعا بين غزاة ١٧٩٨، هى الإعلان عن شن حرب تحريرية لانتزاع المصريين من طغيان البكوات. هذا الشرح، حتى وإن كان مسببا إلى حد ما، وإن كان يعبر عن إيمان صادق بالفكرة، إلا أنه تبرير ذاتىّ لضميرهم الحى، وواجب مفروض إعلانه من قبل كل غازٍ عشية قيامه بمشروع استعمارى!». الاعتراف بالهدف الاستعمارى المطلق واضح إذن وصريح، فكيف نتفهم أن يكون ضميرهم حى مع ذلك؟ ولكن هذه التأكيدات

ستتعدد بعد ذلك، فيبدو أن «بريجون» يناهض هذا الهدف الاستعمارى الأوحد. إنه يتحدث مثلا عن «حكومة الإدارة» وأزمتها الاقتصادية الطاحنة، بصراحة فجة، قائلا: «فهى لاتعيش إلا بالحيل والقروض ونهب «الجمهوريات» الأخوات أيضا، وهى الأراضى «المحررة». وفى نهاية ١٧٩٧، تتجه أنظار هذه الحكومة إلى الولايات السويسرية وممتلكات البابا: فهناك كنوز ترقد فى مدينة «برن» السويسرية، وفى روما، تنتظر من يأخذها»: السخرية الواضحة التى يتحدث بها «بريجون» عن معاملة الحكومة الفرنسية للدول «الأخوات» المحررة فى الجزء الأول من هذا النص، وكلامه الأخير عن فكرة استغلال البلاد وغزوها لا لشىء غير سلب كنوزها، ينم عن انتماء المؤرخ إلى الفكر الحديث، الذى يرفض مبدأ الاستعمار.

وعلى أية حال، فإن هذه الكنوز هى التى ستمول الحملة على مصر.

وسرد مؤرخنا لأحداث الحملة، يؤكد تلك النظرة السافرة لما كان يعتبر - كما أسلفنا - أساطير أمجاد التاريخ الفرنسى، فهو يقول مثلا عن «المعركة المسماة بموقعة الأهرامات (إنها) أحد الأيام العظيمة فى الملحمة النابليونية، كان للمؤرخين الفضل فى التعامل مع الحدث الذى عظم بعد ذلك بهذه الصورة».

فمؤرخنا يرى إذن أن الموقعة فى حقيقتها لاتتناسب ما قيل عنها بعد ذلك ، كما أنه يقول عن «معركة النيل كما يسميها البريطانيون (معركة أبو قير البحرية) انها نموذج الكارثة التى حولتها الذاكرة الفرنسية الى حادثة حزينة ولكنها مجيدة».



«معركة أبو قير» (وهى طبعا معركة أبوقير الثانية)

اما عن مشاعر المصريين، فهو يتهم الفرنسيين بعدم ادراك حقيقتها: «كان الفرنسيون يظنون أنهم وصلوا الى سلام مستتب. وقد وجد بونابرت نفسه محاطا مرتين على الأقل، بجمهور يلقى عليه السباب، ولكن مترجميه طمئنوه مؤكدين أن هذه الجمهرة تتغنى بأفضاله!» وعلامات التعجب تكشف عن رأى «بريجون» الساخر فى المسألة. وتكون ثورة القاهرة الأولى، ويكتب بونابرت إلى «رينييه»: «عاد الهدوء التام إلى القاهرة ،...، وفى كل ليلة ، تقطع حوالى ثلاثين رأسا، و(نقتل) كثيرا من القواد، أعتقد أن ذلك سيكون درسا كافيا»، فيعلق «بريجون» قائلا: «أثبتت ثورة القاهرة أن قلة من المصريين هى التى كانت راضية بالوجود الفرنسى، اما الآخرون كلهم فكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم للتخلص منه». ويحكى كيف أن الجنرال «لانوس» استعاد مدينة دمنهور، التى كان «المهدى» قد استولى عليها : «فحولها (لانوس) الى رماد، وقتل كل سكانها، وبعد أن انتهى من هذا «الأورادور»...» لابد من وقفة هنا، فالأمر جد خطير فاستعمال مؤرخنا هذا الاسم الأخير «أورادور» له دلالة خطيرة، إذ أن «بريجون» بهذا الوصف، يشبه فرنسيي الحملة، بالجيش النازى، الذى احتل فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، و«أورادور» هو اسم قرية حرق كل أهلها فى العاشر من يونيو ١٩٤٤، وأصبح اسمها رمزا للوحشية الألمانية والبربرية النازية، فالتشبيه جد خطير وجديد على الفرنسيين المهتمين بتأريخ الحملة.

لكن هذا التشبيه الذى يدمغ فرنسيى الحملة بمثل تلك الوصمة ليس الوحيد فى كتاب «بريجون»، فهو يقارن مرارا بعد ذلك، ما حدث على أيدى الجند المستعمرين، بما فعلوه من قبل فى مقاطعة «فانديه» فى فرنسا، عندما حولوا البلد الى «أرض محروقة» بعد الإجهاز على كل السكان من نساء وأطفال وشيوخ.

وإذا ما بحث مؤرخنا عمن تعاون مع الفرنسيين من المصريين، نراه يعترف أنه لم يجد إلا قلة ضئيلة، «لاتتعدى أصابع اليد الواحدة»، لذا فقد اضطر الفرنسيون الى استخدام «وحوش» مثل برطلمى اليونانى، فكانت النتيجة أن «الفرنسيين فقدوا مصداقيتهم لدى الشعوب المستعمرة. ولكن الاحتلال العسكرى لبلد مهزوم، مجبر على مثل هذا المنطق البشع، وذلك ما يحدث فى كل العصور».

ثم نصل الى ما يقدمه «بريجون» باستفاضة، وهى «يوميات فرانسوا» الذى لقب «بجمل مصر» لاشتراكه فى جميع معارك الحملة، كبيرة وصغيرة، فقد تطوع فى صفوف الثورة منذ عام ١٧٩٢، وهو لايزال فى السابعة عشرة من عمره، فأصبح جزءا منها ومن حروبها، وارتبط مصيره بعد ذلك بحروب بونابرت فى ايطاليا قبل أن يسافر إلى مصر، وكان قد تمت ترقيته إلى رتبة ضابط ؛ إنه أحسن نموذج للجندى الثورى المحترف فى عصره. وتشكل يومياته أحسن صورة لما كان يحدث فعلا فى مصر، على أيدى جند الحملة الفرنسية. وقد استعمل هذه «اليوميات» آخرون، ولكن «بريجون» اختار أن يفرد لها أكبر نصيب، حتى يصور ما أسماه فى عنوانه «الحياة اليومية» للجيش المستعمر.

وبدون اسهاب فى التفاصيل التى ينشرها «بريجون» فى كتابه، يكفينا بعض الاشارات الى ما وصفه الضابط ذاته، مثل اشتراكه «فى عمليات تمشيط تكررت كثيرا وكانت لاتترك وراءها إلا الرماد وسفك الدماء. ولم يشعر فرانسوا الا بتأنيب ضمير خفيف. إنه يفضل – على حد قوله ـ ألا «يشرح الفظاعة بالتفصيل». كان «فرانسوا» هذا مع فريق الكشافين المكلف بأكثر العمليات وحشية، وكانت لهم سمعة جعلت زملاءهم يلقبونهم بالجزارين» . وتستمر الملحمة الدموية للدوريات التى يشترك فيها هذا الضابط وهى «تمشيط القرى وسلب مؤنها وحرقها وقتل فلاحيها.

ويرد الأهالى بالعنف نفسه لأن دائرة البشائع مفرغة وتنتهى دائما حيث بدأت.

ويستمر «بريجون» فى سرد «يوميات فرانسوا» فنقرأ التالى:

«مقتل كليبر(الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠) يجعل «فرانسوا» يفقد صوابه من شدة الغضب، فهو يجرى مع زملائه الى مكان الجريمة، ويقتل بالسيف أو يطعن بالسونكى كل من يعترض طريقه» (٢٨). وعندما ننتهى من قصص «فرانسوا» الدموية تلك، نعود الى كتابة «بريجون» نفسه ورأيه فى الأحداث التاريخية التى تلت جلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ وما قيل عنها.

يرد «بريجون» أولا على من قال ان المصريين كانوا يتمنون عودة الجيش الفرنسى بعد رحيله قائلا: «مع شديد احترامى للمسيو دى ليسبس، فالندم الذى تركته فرنسا لم يكن جماعيا، فالكثير من

المصريين والقوى المؤثرة فى البلد لم يكونوا راغبين فى عودة الفرنسيين وعلى رأسهم محمد على. وكان الفرنسيون من جهة أخرى غير قادرين بالمرة على العودة إلى مصر وترسيخ أقدامهم فيها». أما من تبقى من الجند الفرنسيين في مصر، فهم: «أفراد منعزلون لم يكونوا غير أنقاض الحملة، وغالبا ما كانوا مرتدين (عن دينهم) ذابوا بسرعة فائقة وسط الأهالى».

يقول مؤرخنا أيضا إن محمد على «جمع حوله مدربين أوربيين، أغلبهم من الفرنسيين، ولكنه لم يكن سعيدا بهم، حتى جاءت سنة ١٨١٥. ففى هذه السنة وصل ضابط فرنسى شاب هو الكولونيل سيف»، هذا اعتراف بأن مثل من سيصبح «سليمان باشا» لم يكن القاعدة فيمن خدم محمد على من الفرنسيين، وهذا الاعتراف يثبت عدم جدية القول بأن الفرنسيين هم سبب تحول مصر إلى دولة عصرية فى عهد محمد على.

نقرأ أيضا عن التفاصيل التى حولت الحملة الى اسطورة على أيدى فنانين لم تطأ أقدامهم أرض مصر، وهم الذين كلفوا بعد جلاء القوات الفرنسية بتمجيد «اللحظات العظيمة للحملة، وهذا الفن خاص بالبلاط الامبراطورى، وهو غاية فى المهارة وكله حركة متأججة ؛ يهدف أساسا إلى تعظيم نابليون بونابرت، ثم قواده من بعده». نقرأ كذلك كيف أن الأسطورة تبلورت فى عام ١٨٢٨ – أى بعد الحملة بثلاثة عقود ـ عندما نشرت الملحمة الشعرية «نابليون فى مصر» لمؤلفيها «برتليمى» و«ميرى»، ونقرأ عن نجاح هذه القصيدة التى أعيد نشرها عدة مرات.

بعد كل هذا الكلام الواضح الصريح، الذى ينم عن نقد لاذع لكل ما يمس الحملة، وأفعال جنودها، وتحويلها الى اسطورة، تكون مفاجأة الخاتمة. فبعد أربعمائة صفحة تكشف حقائق دامية وراء تلك الأسطورة التى فندها مؤرخنا تأتى الخاتمة: يتحدث «بريجون» عن الآثار الرائعة التى تركها الجيش، فعلى الرغم من كل ما سبق إلا أنه يؤكد أن عثمان جلال «موليير مصر» الذى ولد عام ١٨٢٨ وباعتراف «بريجون» نفسه، كتب مثلا مسرحيته بسبب مسرح كان «بعض الهواة» قد أسسوه أثناء الحملة، وكذلك أنشأ الخديو سعيد «المعهد المصرى» فى عام ١٨٥٩، أيضا بسبب ما رآه المصريون فى المعهد الفرنسى قبل ذلك بستين عاما! كما أن الصحافة المصرية فى عصر اسماعيل باشا، لم تكن الا نتيجة الوجود المؤقت للمطبعة الفرنسية في مصر.

ثم ينهى «بريجون» كلامه بالفقرة التالية: «إن التوازنات الجيو - سياسية تتغير بسرعة في منطقة البحر المتوسط، وإذا تضامنت كل من مصر وفرنسا، فيمكنهما عمل الكثير فى هذا المجال، وستسهم علاقاتهما الطيبة فى استقرار هذه المنطقة من العالم، فإن المشاركة فى الأفكار والمصالح مدينة بالكثير لجند بونابرت، فبغير إغارتهم على مصر، لما استطاعت مصر أن تجد دروب التاريخ بهذه السرعة، وبغير هذه الحملة الفريدة في نوعها، لفقدت فرنسا اسهاما ثقافيا رائعا. ولذا، علينا أن نستمر فى تكريم ذكرى بونابرت، وديسى، ومونج وديجنات» كلام سبق أن قرأناه عند مؤرخى الحملة القدامى.

وهكذا تأتى الخاتمة لتتوج التناقض الغريب لرؤية مؤرخنا، لقد حطم أسطورة الحملة الحضارية، ولكنه يأبى أن يعلن وفاتها على يديه، مؤكدا صحة المثل الفرنسى القائل بأن «الأساطير لاتموت بسهولة» وإن دلّ هذا التناقض على شىء، فإنما يدل على حالة البلبة التى يصل اليها من يرى الحقائق، مثل «بريجون» ولا يقبل أن يعترف بنتيجتها الحتمية فيكون التشويش هو كل ما يكسبه قارىء كتابه.

مرة أخرى، يقحم الحاضر متطلباته السياسية المفرضة على موضوعية مؤرخ الماضى السحيق، فكان لابد من طمس كل ما حدث فى مصر من تغييرات جذرية فى القرن التاسع عشر، حتى تبدو حملة بونابرت هى الحافز لتطوير بلد متخلف، مع أن هذا التغيير شمل فى الواقع العالم بأسره، ولم تحتج اليابان مثلا أن تتعلم من الاستعمار البونابرتى.

كما أن مؤرخنا تناسى تماما أن تنفيذ المشروع الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر قد جاء بما لاتشتهيه فرنسا، مع أنه نفذ على أيدى تلاميذ بونابرت وحسب منهجه. وكل هذا على الرغم من الاعتراف بكل ما اقترفه الجيش من «فظاعة» على حد قول الضابط «فرانسوا»، وكان هو نفسه أول من اقترفها. ولكن الجيل الجديد من المؤرخين الجدد لم يعد فى مقدروه اخفاء الحقائق أو نفيها، حتى إن كان رافضا ـ على المستوى الشخصى ـ النتيجة المنطقية، الحتمية، لما يسرده هو نفسه من أحداث تناقض رأيه الخاص. فمقارنة مجزرة الجنرال «لانوس» فى

دمنهور بأبشع الجرائم النازية، تعد فى ذاتها ثورة مدوية على كل مايقال عن الحضارة التى جلبها الفرنسيون الى مصر.

«باتريس بريه» : «بونابرت فى مصر»

ظهر فى عام ١٩٩٥ عدد من مجلة «لستوار» العلمية، وهى مجلة لايكتب فيها إلا المتخصصون، وكان هذا العدد عددا خاصا عن مصر، يمكن أن يترجم عنوانه «بأسرار مصر الغامضة» (٢٩). فلا تزال مصر، حتى يومنا هذا، بلد الغموض - والأسرار فى الوعى الغربى، وتعالج الدراسات التى نشرت فى هذا العدد القضايا المصرية، منذ الفراعنة حتى تاريخ جمال عبدالناصر، و«الصحوة الاسلامية» الحديثة. ويلاحظ أن موضوع الحرب والسلام مع إسرائيل، يكتبه استاذ اسرائيلى، لانقرأ معه وجهة نظر عربية.

أيا كان الأمر، فإن ما يهمنا فى هذا العدد - الذى يعتبر ما نشر به آخر ما توصل اليه المؤرخون فى فرنسا حتى كتابة هذه السطور (والله أعلم) - سلسلة دراسات «لباتريس بريه» عنوان إحداها «بونابرت فى مصر»، وينبىء تقديم المقال فى ذاته بما سنقابله من رؤية جديدة. فالكاتب يطرح اسئلة تخص أمورا كانت كما رأينا من المسلمات.

فهو يقول:«فى مايو من عام ١٧٩٨، ذهب بونابرت، قائد جيش الشرق العام، لغزو مصر، حتى يبعد (عن فرنسا) تهديد الانجليز ومعه علماء ومهندسون وفنانون، هل كانت تلك المغامرة حملة عسكرية استعمارية عادية؟ أم كانت غزوة ثقافية باهرة، أرست قواعد تحديث البلد، على الرغم من فشلها؟».

وسرعان ما تجيء الاجابة منذ الكلمات الأولى للمقال ذاته، فنقرأ التالي: «...» نزلنا على بلد لم يكن يفكر فينا، ننهب القرى، ونفقر الأهالي، ونغتصب النساء». هذا هو التقرير المرير الذى كتبه عالم نبات، ذهب إلى مصر مع بونابرت من أجل مهمة رائعة لدراسة النباتات. وكثير من العلماء والمهندسين والفنانين تبعوا، مثله، الجنرال الشعبى جدا، قائد جيش الشرق، لاكتشاف أرض مجهولة وحضارة غامضة، ليقوموا بمسح شامل لوطن الفنون والعلوم الأسطورى». نلاحظ فى الفقرة الأولى من المقال تلك المفارقة البشعة بين الهدف ونتيجته. فمرة أخرى نقرأ الرأى الصريح القاسى لشاهد عيان، لا مصلحة له فى طمس الحقيقة المؤلمة لهدف نبيل فى ذاته، جاء هذا الشاهد على أنه عضو بعثة علمية، حسب منهج فلسفة التنوير المتعطش لدراسة كل جديد، وبحب صادق للعلم المجرد، يؤمن أنه مفتاح تقدم البشرية واسعادها. فكان أول مايراه بعد شهر واحد من الوصول الى الاسكندرية النهب والخراب والاغتصاب.

ويناقش كاتب المقال رأى المصريين بعد ذلك: من اللافت للنظر انه لايستشهد إلا بآراء «محمود حسين» وفيلم المخرج يوسف شاهين عن الحملة، والمعروف أن «محمود حسين» كاتبان اختارا هذا الاسم المستعار لنشر كتبهما، وهما، مثل يوسف شاهين، يعبران عن آرائهما بالفرنسية. «باتريس بريه» لايعرف إذن ما كتبه بالعربية أمثال عبدالرحمن الرافعى وجلال كشك، وغيرهما كثيرون لايوافقون الفرنسيين على رأيهم فى الحملة.

يقدم باحثنا بعد ذلك آراء تعتبر غاية فى الجرأة مقارنة بما سبق أن عرفناه من كتابات المؤرخين القدامى، ونظرا لأن المقال - بطبيعة الحال - محدود في حجمه، فهو يؤرخ لفكرة الاستيلاء على مصر، بذكر أهم التفاصيل بسرعة فائقة. ولايفوت القارىء أن «بريه» لايشير أبدا الى الأهداف التحضيرية التي غلفت بها حكومة الادارة غزوتها الاستعمارية.

وبدون أية مواربة يقول مؤرخنا ببساطة شديدة انه بعد استيلاء الجيش الفرنسى على الاسكندرية كانت أول مقابلة للفرنسيين «بمدفعية مراد بك واسطوله الصغير قد أزاحت بعنف شديد الأسطول الفرنسي المحدود»، في شبراخيت على النيل فى الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨. وبهذه الأمانة العلمية، يستمر باحثنا فى عرضه قائلا: «ولكن استسلام القاهرة لم يعن استسلام باقى البلد». ويذكر «بريه» فى عرضه السريع، أهم الأحداث ولايخفى شيئا من مقاومة الأهالى، كان يبدو أن الأمن قد استتب، «ولكنه كان فى الحقيقة مزعزعا، فلم تمض اشهر ثلاثة على الاحتلال، حتى أثبت هذا بتمرد القاهرة، الذى جاء غير متوقعا بالمرة». وقد تكون هذه الجملة من أجدد ما قيل، إذ لم يلحظ أحد قبله أن ثورة القاهرة الأولى جاءت كرد فعل مباشر للاحتلال، مما يوحيه تعبير كاتبنا بقوله:«لم تمض اشهر ثلاثة»، اذن كانت الثورة زمنيا - فى نظر مؤرخنا - سريعة جدا، اذ لم تمض اشهر ثلاثة على نزول الجيش بر مصر، ونذكر مرة أخرى أن التاريخ لايحصى بالأيام ولا حتى بالشهور او السنين.



«معركة ووفاة القائد دوبليسى» (هزيمة أخرى للفرنسيين)

وعلى الرغم من انتشار الجيش حتى أسوان، وانتصار «ديسي» على مراد بك في معركتين، إلا أن ذلك لايمنع مؤرخنا من الاعتراف بأن الخطر كان محدقا في كل مكان، وأن معنويات الجند كانت في الحضيض: «كان متطوعو ١٧٩٢، ومجندو ١٧٩٣ قد أصبحوا جندا محترفين، اشداء، إلا أن مثلهم الجمهورى الأعلى أصبح موضع شك. فالجندى الفرنسي، الذى يواجه ثورات الفلاحين الذين جاء ليحررهم ، لا يستطيع تفهم علاقة هذه الغزوة بعدو إنجليزى غائب عن الساحة ، لن يكون تأمين السلام إلا أمرا مؤقتا أثناء سنوات الحملة الثلاث ، بسبب تحركات المماليك والحكومة العثمانية، أو بسبب سوء تفاهم، تسببه القوانين الإدارية التى تصطدم بالحضارة المصـرية» : من إيجابيات هذا المقطع الجديدة ، الاعتراف باديء ذى بدء ، بأن الغزوة لم تدم غير سنوات ثلاث ، أى مدة غاية فى القصر إذا ما نظر إليها من المنظور الزمنى الذى يتحكم فى أية رؤية تاريخية ؛ علاوة على الاعتراف بالدور الخطير الذى لعبه المماليك على الرغم من كل ما قيل عن هروبهم ، الذى كان – من منظور التكتيك المملوكى – خط دفاع بل وهجوم أيضا . كذلك ، الاعتراف «بالاصطدام بالحضارة المصرية» ، التى كان من حقها ألا تتفهم تشريعات تتنافى مع نظامها الخاص ويشرح لنا «باتريس بريه» كيف أن الإجراءات الخاصة بالنظافة والوقاية من الأمراض، كانت مثلا: «اغتصابا لخصوصيتهم وحرمة ديارهم»، كما أن «أمن المستعمر كان يجبر السكان على النفقة الباهظة لإضاءة الأزقة ليلاً» .

«كذلك، فإن الإدارة، قد أكثرت من الضرائب والوسائل البيروقراطية، فى بحثها الدءوب عن السيطرة الكاملة، وجشعها فى جمع المال»: يتقبل كاتبنا الوجه الآخر للحملة ، وهو الوجه الذى رآه المصريون ؛ فإذا ما قابلنا وجهة النظر المصرية ، نجد أن الجيش لم يكن فى أفضل صوره .

وكذلك يعرض مؤرخنا أيضا رؤية المصريين «لقيم التنوير والثورة ؛ فهى بالنسبة لهم عودة إلى مبادئ الجاهلية ، .... ، الفرنسيون الملحدون لا يصلون حتى لمرتبة الكفرة المسيحيين . وأيا كان، فهم أيضا يتصرفون كأناس غير متحضرين، .... ، تقول أغنية مصرية شعبية عنهم : الجند السكارى يطوفون المدينة بحثا عن النساء» . وبعد شرح وجهة النظر المصرية، يلخص «بريه» الرأى السائد «لدى النخب المثقفة والمهذبة فى مصر آنذاك، إذ كانت فرنسا فى نظرهم ، بلد التجار المحتقرين ، فأصبحت مع بونابرت، بلد سطوة تحترم ولكنها تبغض ، لأنها تذكرهم أيضا بالحروب الصليبية الكريهة ، وكانت لا تزال حية فى الذاكرة العامة للشرق» .

«ولكن الفرنسيين يحاولون بصدق فهم المجتمع المصرى ،....، وفى نظر المصريين ، يبدو كرم الفرنسيين ضعفا ، وحزمهم قسوة ، وميلهم إلى الانتقال من هذه الحال إلى الحال الأخرى ، دليل تقلب وعدم ثبات» .

يهمنا بعد ذلك معرفة ما يقوله «بريه» عن البعثة العلمية التى صاحبت جيش الشرق وهو يلحظ هدفها «النفعى» فيقول : «منذ الشهادات الأولى للمهندسين الجغرافيين جومار وفورييه ، يؤكد المؤرخون أن ثمة ثورة تقنية – واجتماعية – كانت فى الطريق عندما أجبرت فرنسا على ترك غزوة بونابرت. والسؤال لا يزال قائما ، على الرغم من أن أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع : فهل كان قصر مدة الاحتلال الفرنسى هو السبب الوحيد فى فشل تحديث مصر .. ؟» النتيجة التى يصل إليها مؤرخنا صريحة قاطعة ، والمفردات لا شك فى معناها : «فشل تحديث مصر ..» . وإذا ما دخل بعد ذلك فى التفاصيل ، تأكدت الفكرة أكثر وأكثر ، وقيل ما لم يذكر – على حد علمنا – إلا مرة واحدة من قبل ، وهو الحدث الذى يلخص حدود تعليم الفرنسيين للمصريين : «مهارة الصناع المصريين أدهشت المستعمر ، وسرعان ما أخذ العمال المصريون يقلدون المنتجات الفرنسية ، ولكن الأوساط المالية الفرنسية توصلت إلى قرار لا يسمح لغير العمالة الأوربية بالعمل فى مصنع النسيج المنشأ فى خريف ١٨٠٠» .

«كانت الإنجازات الفعلية مقصورة على احتياجات الاستعمار الفرنسى» ، ثم نقرأ الحقيقة الواقعية المنطقية الوحيدة لتفسير عدم اهتمام المشايخ بما يدور من أبحاث علمية : «من ناحية أخرى ، لم تكن مصر مستعدة (فى ذلك العصر) لاستقبال علوم أوربا وفنونها بسرعة» ، إنها حقيقة يراد بها باطل ، لأنه يتحدث بعد ذلك عن إطلاق المنطاد الذى «لم يلق إلا الاستهانة واللامبالاة من قبل القاهريين» ناسيا ، أو متناسيا

أن التجربة قد باءت بالفشل ، مما أثار سخرية الجميع ، وأولهم الجبرتي . ونقول الجبرتي لأن «بريه» نفسه يسترشد به . ولكن يبدو ، إما أنه يغالط في المعاني ، أو أنه لم يقرأ الجبرتي بالفعل . ومرة أخرى نسمع عن معجزتي الحملة وهما كتاب «وصف مصر» ، واكتشاف «حجر رشيد» اللذين أسسا علما جادا للمصريات.

ويعترف مؤرخنا ، بعد سرد المشروعات التي كانت مزمعة إقامتها ، أن المشروع الوحيد الذي نفذ هو «بناء التحصينات» كما أنه يعترف أن «المقاومات التي قابلتها الحملة كانت تنبيء بالحركات القومية التي سيصطدم بها نابليون بعد ذلك ، خاصة في أسبانيا وألمانيا..» ، وهذا اعتراف طال انتظارنا لقراءته بقلم مؤرخ فرنسي .. أو أي مؤرخ آخر .

ويعترف «باتريس بريه» أيضا ، بفضل محمد علي في إنجاح مشروع تحديث مصر، دون كلمة واحدة تعزو نجاح مشروعاته إلى أي تقليد لما كان يدعيه الفرنسيون من مشروعات تحضيرية لمصر . ثم ينهي «بريه» مقاله بقوله : «إن حملة بونابرت كانت المصادفة التاريخية التي سمحت بهذه النهضة المصرية..» . ومرة أخرى ، يجد القاريء الناقد الموضوعي نفسه في حالة من البلبلة للتفكك المنطقي للكلام ؛ فكيف يصل إلى هذه النتيجة وكلامه كله يؤكد عكسها تماما ؟ كان يمكن أن يكون لهذه النهاية عذر لو أن مؤرخنا تحدث عن تأثير مشروعات بونابرت على محمد علي ، ونقله أو تحقيقه لما بقي من نيات فرنسية على

الورق ، ولكنه نفى الفكرة بسرده السريع لما فعله محمد على ونجح فيه ، دون ذكر لبونابرت ؛ ولم يعلق «بريه» على هذا الأمر مؤكدا أن محمد على نجح حيث فشل بونابرت وجيشه وعلماؤه بسبب قصر مدة احتلالهم لمصر. كذلك، قال إن: «ثمة ثورة تقنية - واجتماعية - كانت فى الطريق» لولا جلاء القوات الفرنسية عن مصر ؛ ثم اعترف بعد ذلك مباشرة بأن: «أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع ..» ؛ فلم إذن ذكر قول «جومار» و «فورييه» ، وهما طبعا متحيزان لفكرة الحملة التحضرية على مصر وهما المشتركان فيها ؟ الغريب أن «بريه» يؤكد بعد ذلك حدود التأثير الفرنسى على العامة ، بسرده قصة رفض توظيف العمالة المصرية فى مصنع النسيج ، وهى قصة ذات مغزى كبير ودلالة سيئة على أبطالها .

يبدو أن «بريه» بعد أن توصل إلى الحقيقة العلمية واعترف بها، أجبر على التراجع : إن الاعتراف بالحق فضيلة، ولكن هناك حقائق يصعب البوح بها ، خاصة إذا ما كانت تجرح المشاعر القومية، ويكون البوح بها أصعب إن كانت تمس أسطورة منيرة، تدغدغ مشاعر الفخر القومى .

وإلا ، فكيف يفسر هذا التناقض فى نهاية المقال ؟ وما كانت الحال مع هنرى لورانس ؟

★★★

«هنرى لورانس» : «الحملة على مصر»

سبق أن أشرنا إلى أن رسالة «هنرى لورانس» (١٩٨٩) قد قالت كل ما يمكن أن يقال عن الحملة بروح علمية دقيقة ، استرشدت بما قاله كل من الفرنسيين والمصريين والأنجلو - ساكسونيين الكاتبين بالإنجليزية من بريطانيين وأمريكان . لذا ، فإن «لورانس» إذا ما تعرض للأحداث ، كان غاية فى الأمانة ، فاضحاً كل مساوىء الفرنسيين واحتلالهم الباغى. ولكنه ، عندما يصل إلى الخاتمة ، ليستخلص ما توصل إليه هو شخصيا من نتائج فكرية ، فإنه يؤكد المشروع الحضارى لبونابرت والحملة ! ولم يقدم دليلا واحدا على أن هذا المشروع الحضارى كانت له دلالة جدية واحدة ، اللهم إلا النيات المعلنة شفاهة ، الموروثة عن مثاليات ثورة ١٧٨٩ ، وفلسفة التنوير من قبلها وشعاراتها الجوفاء. ولكنه - فى ذلك - لم يستطع إقناعنا بشىء غير أن تلك النيات كانت تبريرا ذاتيا ، أو حلما يأسف مؤرخنا أنه لم يتم من أجل مجد الأمة الفرنسية وسيطرتها على المنطقة .

النتيجة نفسها نستخلصها من كتابه من «المملكة المستحيلة» (١٩٩٠) ، الذى يؤرخ فيه لمحاولات فرنسا ، ونابليون الثالث بالذات ، للسيطرة على المنطقة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ونجد فى هذا الكتاب الأخير المفارقة نفسها : الأمانة العلمية من جهة ... والخاتمة التى لا تجد فى الكتاب ما يبررها من جهة أخرى ؛ لذا ، كان استغرابنا للعنوان الذى أضيف على غلاف كتاب «الحملة على مصر» ، وهو عبارة عن جملتين : «بونابرت والإسلام» ، ثم «صدام

الحضارات» . فأين كانت الحضارات إن كان الجيش الغازى لم يقدم إلا العنف والاغتصاب والاستنزاف ، كما يصوره المؤرخ نفسه ؟. نعم ، لقد احترم بونابرت الإسلام وقال فيه مديحا لا شك فى صدقه، عندما كان يقيم للفرنسيين موضوعيا ما يراه فى الديانتين المسيحية والإسلامية . ولكن ، أيعنى ذلك أنه لم يكن يستعمل الإسلام أثناء وجوده فى مصر لأسباب سياسية مكيافيلية ، تماما كما فعل مع الدين الكاثوليكى عند عودته إلى فرنسا ؟ وهل تعارض هذا الاحترام الظاهر لدين الأغلبية الفرنسية مع إلقائه القبض على البابا فيما بعد ، عندما تطلبت سياسته التعسفية ذلك ؟ وهل كان بونابرت أثناء وجوده فى مصر يتعامل مع الإسلام، أم مع المسلمين، وهو يأمرهم بصلف الحاكم العسكرى المستعمر أن يستعملوا القرآن والأحاديث النبوية لصالحه ؟ ومنذ متى يقيّم التاريخ بالنيات فقط ؟ ألا يقول الفرنسيون إن «الجحيم قائم على أرض من النيات الحسنة» ؟

مع الأسف أن «لورانس» ، مثله فى ذلك مثل باقى المؤرخين الفرنسيين ، يطمس كلية دور المقاومة المصرية عندما أخذ يسرد أسباب فشل الحملة فى خاتمة كتابه ؛ فهو يغفل ذكر ما كان يعانيه الجند الفرنسيون من جراء المقاومة التى استماتت المصريون فيها رافضين الوجود الفرنسى وبطشه . وذلك على الرغم من أنه قرأ كل ما كتبه شهود الحملة ، وعلى الرغم - أيضا - من أنه قد أكد على انهيار الروح المعنوية لهـؤلاء الجند أنفسهم فى وقت كانت انتصارات الجيش الفرنسى مستمرة على امتداد معاركه مع العثمانيين ، إلى أن هزمه كل

من جيش بريطانيا ، وجهل «مينو» في الأشهر الأخيرة من الحملة ؛ فإلى أى شىء إذن يعزو «لورانس» تلك الحالة من الانهيار والإحباط والاكتئاب التى أصابت الجند ، وهم أسياد البلد المفتوح ؟ ألم تلك الحالة ناجمة عن ذلك التوتر المستمر الذى عاشوا تحت ضغطه نتيجة للمقاومة المصرية ، كما قرأنا فى مذكرات الكابتن «مواربى» ؟ ألم يسلم قائد الحملة في القاهرة بسرعة للإنجليز خوفا من قيام ثورة ثالثة ، كما يعترف الجميع ؟ .

ومرة أخرى نرى «لورانس» يتجاهل كلية - كما تجاهل غيره من المؤرخين الفرنسيين - فشل التجربة الجزائرية : لقد طبق «السان - سيمونيون» (تلاميذ نابليون الأول) ثم نابليون الثالث ، تعاليم بونابرت فى الجزائر ، وكنا ننتظر أن يستشهد كل من أرخ للحملة - أو حتى بعضهم - بما نجحت فيه فرنسا عندما احتلت الجزائر لأكثر من مائة عام ، كى يدللوا به على ما فقدته مصر بفشل الحملة عليها . ولكننا نجدهم يتحدثون بحزن شديد عما كان يمكن أن يحدث لولا فشل الحملة المزرى، طامسين بحياء شديد التجربة الفرنسية فى الجزائر ، ونتائجها السلبية على أهل البلد . ولنذكر ما كتبه المفكر الفرنسى الكبير « ألكسى دى توكفيل» فى تقريره عن استعمار الجزائز فى عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا، ... ، لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسا، وأكثر فوضى ، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٣٠) .

ولكننا نشهد لـ «لورانس» أنه اعترف «أن حملة مصر هى المحصلة المنطقية لسياسة التوسع الثورى ، ... ، وبما أن النضال يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى ، ومع وجود الاقتناع باستحالة الإنزال فى بسبب التفوق البحرى البريطانى، فإن حكومة «الإدارة» لا يمكنها أن تتصور خيارا آخر غير فرض حصار قارى أو الاضطلاع بعمل ضد الهند» ؛ فكان مشروع غزو مصر مشروعا لا يخرج عن نطاق السياسة التوسعية للثورة الفرنسية . غزو آخر إذن مثله مثل ما حدث فى أوربا من حيث التخفى وراء شعار «تحرير الشعوب» والحقيقة استعمارها لاستنزاف مواردها، حسب مبدأ «عصر الليمونة» الشهير .

ولكن كلام «لورانس» فى النتيجة النهائية التى يستخلصها من دراسته الوافية ، وتعليقاته الذاتية ، تسبب نوعا من البلبلة للقارىء المنطقى . فهو يقول مثلا : «كان هدف بونابرت من مجزرة يافا الاستيلاء بالإرهاب على باقى فلسطين ، وعلى عكا بالذات ، قبل كل شىء. وعلينا أن نضيف هنا أن استشراق بونابرت كان له مظاهر محيرة. فإذا كان بونابرت يقدم نفسه بإخلاص على أنه البطل الذى لا هدف له غير إرساء الحضارة ، فإننا نراه يؤكد ، فى الوقت ذاته أن الشرق لم يكن بالنسبة له إلا فرصة سانحة للتخلص من حضارة (أوربية) تضايقه . أكد بونابرت ذلك فى اعترافاته لمدام دى ريموزا . وقد عاد الفرنسيون فى مصر – تلقائياً – إلى سلوكيات عصر الإرهاب وحرب الفانديه ؛ فقد استخدموا منذ بداية الحملة سياسة قمع فيها من العنف ما لم يعتادوه فى الأراضى المحتلة فى أوربا . فمنذ بداية العصر الاستعمارى ، وحق

الشعوب لا يطبق بسهولة على الشرقيين ، وهو الحق نفسه الذى اعترف به فى أوربا للأوربيين : ألم يكن هؤلاء الشرقيون معتادين على عنف الطغيان ، وهل كانوا يعرفون شيئا آخر غير الإكراه ؟».

الكلام واضح وجد خطير لكنه يتسبب قطعا فى بلبلة القارىء الذى لا يفهم سببا يجعل «لورانس» يرى «أن استشراق بونابرت له مظاهر محيرة» : لقد سبق لـ «لورانس» نفسه أن كتب قبل ذلك بصفحات عديدة أن بونابرت يقول فى الحادى والثلاثين من يوليو ، أى قبل قيام ثورة القاهرة الأولى فى خطاب مرسل إلى «مينو» : «إن الأتراك لا يحكمون إلا بأعنف صرامة ؛ لذا ترانى أصدر كل يوم أمراً بقطع خمسة أو ستة رءوس فى شوارع القاهرة . لقد اضطررنا إلى مهادنتهم حتى الآن، لمحو سمعة الإرهاب التى سبقتنا؛ أما اليوم ، فعلى العكس من ذلك، لابد لنا من استخدام اللغة التى تلائم هذه الشعوب حتى تطيعنا ؛ والطاعة بالنسبة إليهم ، هى الخوف» .

لو أننا اعتبرنا بونابرت «بطلا لا يهدف إلا إلى إرساء الحضارة» كما يقدم نفسه، أى لو أننا صدقنا زعم بونابرت هذا ، لشعرنا فعلا بالحيرة، مثل «لورانس» . والغريب أن «لورانس» ، على الرغم من روحه النقدية المتيقظة ، قد صدق فعلا ادعاء بونابرت هذا ، وهو الذى اعترف مرارا بكل الفظائع التى اقترفها الجند فى مصر. ولكن، لو أننا وضعنا فى الميزان أفعال بونابرت، بل وأقواله التى يعترف «لورانس» نفسه

بهـا ، لفهمنا أن استشراق بونابرت غير محير، لأنه واضح وصريح : إنه استشراق المستعمر العنصرى بكل صلفه وقسوته . هنا ، تنتهى الحيرة ، لأن المنطق أصبح سليما، لا يشوبه أى تناقض أو مفارقة بين القول والتطبيق . ولكن ، يبدو أن «لورانس» يفضل المفارقة المحيرة على الاعتراف بالحقيقة ، وهى أن رسالة بونابرت التحضيرية لم تكن إلا ذرا للرماد فى العيون ، غلالة خادعة ، وظيفتها إقناع المثقفين بحسن نية لا يدل عليه شىء .

فـ «لورانس » إذن مثل «باتريس بريه» يتفوق على الجيل القديم باعترافه بالوقائع ، خاصة الاعتراف بأن للمصريين رأيا يحترم، لأنهما - لورانس وبريه - من الجيل الذى يعرف أن مضمون كلمة «الحضارة» لا يعنى فقط «الحضارة الغربية» : يعترف هذا الجيل الجديد أن هناك «حضارات» مختلفة فى العالم ، من حقها أن تطالب بالاعتراف بها واحترامها. ولكن مؤرخينا ، على الرغم من أمانتهما العلمية، لا يستطيعان الاعتراف بأن الحملة كانت فاشلة بل وسيئة أيضا، مثلها مثل أى حرب استعمارية استنزافية ؛ فلا يزال ذلك الأسى واضحا فى خاتمة كلامهما ، لفشل فرنسا يوما ما فى السيطرة على مصر، درة الشرق الأدنى ؛ فهما مازالا يتمسكان بفكرة أن الحملة ، وإن كانت فاشلة، إلا أنها كانت حاملة لشعلة الحضارة الفرنسية فى مصر القرن التاسع عشر ، وذلك على الرغم من كل ما يتعارض مع هذه الفكرة فى دراستيهما .

قد تكون حادثة مصنع النسيج الذى فكروا فى إنشائه فى مصر خير مثال للروح التى سادت أعضاء الحملة ، خاصة العلماء منهم ، و«لورانس» بالذات هو الذى فضحها : حدث ذلك فى عصر «مينو» الذى عرف بأنه أكثر الفرنسيين تحمسا لفكرة الاستعمار الاستيطانى لمصر بعد بونابرت ؛ وكان إيمانه هذا أحسن ميزاته فى نظر بونابرت، فـولآه - لذلك - الحكم على مصر، على الرغم من اعتراض باقى جنرالات الحملة . ويقول «لورانس»: «ويعلى مينو من شأن هذه المساواة بين الفرنسيين والمصريين، حتى فى المجال الاقتصادى. ففى أوائل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص أقمشة الثياب مسئولى الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع في مصر. يرى مينو فى ذلك، على الفور فرصة لتحويله إلى مركز لتعليم وتدريب المصريين على الطرق الحديثة . لكن المديرين، الذين يخشون منافستهم للصناعة الفرنسية فى المستقبل، يرفضون ذلك. ويؤكد «كونتيه» على الملأ أنه إن تم إنشاء هذا المشروع لن يعلم المصريين شيئا، وأنه لا يقبل الاشتراك فيه إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش، أما فى حالة الجلاء عن مصر، فلابد من إخراج المعدات أو تدميرها ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج» الجميع.

هكذا، يحطم «لوارنس» نفسه أسطورة العلماء الذين ساهموا فى تعليم المصريين، وفتحوا عالم المعرفة الحديثة للشعب المصرى، وطوروا مصر لنقلها من غياهب الجهل إلى نور العلم الحديث، والقرن التاسع عشر الصناعى.

نعم. خرج الجيش من مصر بعد ذلك ومعه المطبعة! ونشر كتاب «وصف مصر» الذى يقول عنه «باتريس بريه» فى مقاله السابق ذكره: «كانت نتيجة هذا الكتاب - إن لم يكن هدفه - إخفاء الفشل السياسى والحربى والاقتصادى للحملة»...

★★★

«كريستوفر هيرولد» : «بونابرت فى مصر»

بعد أن قرأنا كتابات المؤرخين الفرنسيين الجدد، فإنه يبدو منطقيا أن تكون الخاتمة الموضوعية لأحداث الحملة بقلم غير فرنسى. فالأمريكى «هيرولد» يسمى خاتمة دراسته عن «بونابرت فى مصر»: «أموات بلا جدوى»، عنوان قدم فى نصه المترجم «بأباطيل الموت». وهو يقول: «فى الثالث والعشرين من أكتوبر(١٨٠١)، عين (بونابرت) صهره الجنرال لوكلير قائداً أعلى على سانتو - دومنجو. وفى الثامن من نوفمبر وجه منشورا لسكان سانتو - دومنجو بأسلوب أتقنه فى مصر، فقال لهم: تجمعوا تحت لواء الجنرال (لوكلير)... وكل من يجرؤ على الخروج على دعوة القائد فهو خائن لوطنه وسيلتهمه غضب الجمهورية، كما تلتهم النار حقول قصبكم فى فصل الجفاف».

«وهكذا طويت صفحة عقيمة من تاريخ الاستعمار، لتفتح صفحة أخرى. وكانت فظائع الحملة الدومنيكية وأهوالها ذيلا محترما لفظائع الحملة المصرية وأهوالها، وفى وسعك أن تطبق الكلمات التى فاه بها نابليون فى سانت - هيلانة، على سبيل الرثاء، على المغامرتين كلتيهما

لتصدق عليهما جميعا: «إن حملة سانتو - دومنجو كانت حماقة كبرى ارتكبتها. ولو نجحت لما كان لها من نفع سوى إثراء أسر نواى ولاروشفوكو فوق ثرائها». وهذه الكلمات تجمل فى إيجاز ما أسفر عنه استعمار القرن التاسع عشر من نتائج».

ثم يستطرد «هيرولد» بعد ذلك تحليله للوقائع: «لقد كان مآل مصر إلى التغير، سواء ظهر بونابرت فى سمائها أو لم يظهر قط، وآيات الفن وروائعه فى الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف، حتى وإن لم يزحف ديزيه إلى الصعيد، وكانت الرموز الهيروغليفية حتما ستفك، حتى وإن لم يكتشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وكانت قناة السويس ستحفر، حتى وإن لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس. صحيح أن كل شر يحمل فى ثناياه بعض الخير عرضا، وليس معنى ذلك أن الشر دائما ضرورى لجلب الخير».

نرى «هيرولد» إذن يقول الكلام الذى يفرض نفسه منطقيا إذ يؤكد، فى عام ١٩٦٤ - وهو تاريخ نشر دراسته - أن النظرة المستحدثة للأمور، بعد انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية، لابد أن تضع الأمور فى نصابها الواقعى، ذاكرا أيضا فشل التجربة الفرنسية في الجزائر. وكان قد تساءل من قبل: «ما الذى حققته الحملة على مصر غير خسارة الأرواح، والخراب، والقسوة؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق إلى السلطة .... » (٣١).

★★★

بعد قراءتنا لما كتبه «المؤرخون الجدد» تتأكد لنا صحة النظرية

القائلة بأنه لولا اسم الجنرال بونابرت - الذى سيصبح نابليون الأول، قاهر أوربا كلها - لما اهتم أحد بهذه الحملة الفاشلة على بلد مجهول، ولطمس تاريخها، كما طمس تاريخ الحملة الفاشلة على «سان - دومينج». وقد كانت انجلترا نفسها لا تفطن، فى ذلك التاريخ، إلى أهمية مصر الجغرافية بالنسبة لمستعمرتها الغالية، الهند البعيدة. ونجد فى قراءتنا النقدية كذلك، ما يجعلنا نستغرب إصرارهم على ربط التطور الذى حدث لمصر فى عهد «محمد على» أو «اسماعيل باشا» بالحملة، فى نهاية كل جزء من كتاباتهم عن بونابرت فى مصر. ومما يعجب له، أن ذلك يأتى بعد اعترافهم الصريح بما ارتكبه بونابرت وجيشه من جور على الشعب المصرى، ودون ذكر لأى دليل يشير إلى تأثير الاحتلال الفرنسى - آنذاك - على الشعب المصرى، أو نظامه. كأن حلقة أسقطت فى التسلسل المنطقى لما يقدمونه من اعترافات بالفظائع التى اقترفها الجيش الفرنسى وما يسوقونه من أدلة على رفض المصريين للمحتل. وكأن الاعتراف بأن سنوات الحملة الثلاث القصيرة، لم تترك أثرا يذكر، يفوق قدرات المؤرخين، لما يدل عليه هذا الاعتراف من تحطيم أسطورة وجود الحضارة الفرنسية فى مصر. الغريب أنهم يعترفون بذلك أيضا، خاصة أن أسطورة نابليون بونابرت نفسها قد نسفت من أساسها، بعد أن فضح كل من «دوفريس» و «تولار» خفايا النظام الإمبراطورى، ووسائل الدعاية التى لجأ إليها الحزب البونابرتى، لتحويل الجنرال العبقرى والإمبراطور المنتصر، إلى نصف إله، إن لم يكن إلها كاملا.

لا نجد من يصل إلى النتيجة الحتمية لفضح حقائق الحملة، والاعتراف الصريح بأنها حدث مؤقت زائل، إلا «فوريه» و«ريشيه»، فى كتابهما عن «الثورة الفرنسية» إنهما يذكراننا بقصة شهيرة من الأدب الفرنسى، كانت من أهم أسباب انطلاق النقد العلمى فى تاريخ الفكر الفرنسى، وتأسيس تحكم العقل فى كل الأمور، العقل الذى كان من أهم دعائم فلسفة التنوير. إنها قصة «السنة الذهب»، لكاتبها «فونتنيل» (١٦٥٧ -١٧٥٧).

يحكى فيلسوفنا هذا أن شائعة انتشرت بين بعض علماء ألمانيا فى عام ١٥٩٣: قيل إن طفلا سقطت أسنانه اللبنية فنبتت له سنة جديدة من الذهب. وبدأ العلماء يكتبون قصة تلك السنة المعجزة فى آلاف من الصفحات ويتجادلون فى شأنها لعدة سنوات، إلى أن ذهب صائغ إلى الولد، ليرى تلك السنة الغريبة. فاكتشف المتخصص آنذاك أنها سنة عادية، ألصق عليها بمهارة شديدة، ورقة من رقائق الذهب الرفيعة... وينهى «فونتنيل» قصته الفلسفية قائلا: «إن المجادلات التاريخية أكثر عرضة لمثل هذا الخطأ، إننا نناقش ما قاله المؤرخون (على أنه صحيح)، ولكن ، ألا يمكن أن يكون هؤلاء المؤرخون عاطفيين، أو سذجا، أو جهلاء، أو مقصرين؟ من المفروض أن نجد مؤرخا (يتعامل مع الأحداث) كالمتفرج على كل شئ، غير مبال، ومجتهد فى الوقت نفسه». ويبدو أن «فوريه» و«ريشيه» قد توصلا إلى تلك الحالة المثلى عندما قالا بصراحة وهدوء تامين: «لا يبدو، وذلك فى كثير من النقاط، أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة، الذى طالما حدثنا عنه، لم تدم بصمته،...، لم تكن

سياسته إلا إجابات عملية لمشكلة قديمة جدا». ولذا فلا عجب إن كان محمد على قد توصل من بعده إلى النتائج العملية نفسها التى فكر فيها بونابرت، عندما أراد - محمد على - لمصر، دولة مركزية حديثة.

★★★

يبدو أن غير المتخصصين وحدهم هم الذين توصلوا إلى ما يبدو - والله أعلم - أنه النتيجة المنطقية الوحيدة لغزو مصر الفاشل، على يد جيش يدعى التحضير والتنوير وهو لا يبغى، فى الواقع، إلا الاستعمار. وكأن دارس الحملة الفرنسى لا يقوى على الصمود أمام سحر أسطورة، تجعل من أجداده جندا شهداء من أجل نشر الحضارة الرائعة لوطنهم فرنسا، ومن أجل الرسالة الإلهية التى خُولت إليهم : كان هذا بالضبط - كما سنرى فيما بعد - أساس فلسفة التعليم فى فرنسا، وكأن تأثيرها قد امتد حتى دراسى الحملة من الجيل الجديد.

فإذا قرأنا ما كتبه بعض الأساتذة الذين لم يتخصصوا فى دراسة الحملة، فاجأتنا موضوعيتهم فى تقديم نتائجها، كما حدث مع «فرانسوا فوريه»، الذى تخصص فى دراسة ثورة ١٧٨٩. فإذا ما قرأنا تقديم «جان - كلود فاتان» لآخر طبعة من كتاب «فيفان دينون» الشهير، وجدنا فرنسيا قرأ النص كاملا، بكل ما فيه من قسوة تنال من جند الحضارة، وتجريح لأسطورتهم الباهرة، مؤكدا على حقيقة تبدو جلية لمن يقرأ «دينون» دون إغفال لما يقوله عن أهل البلد ومقاومتهم، كما أسلفنا باستفاضة . «ففاتان» - على العكس من «لورانس» - يفهم من مذكرات

«دينون» الدور الخطير الذى لعبته المقاومة الشعبية المصرية، قائلا: «ترك بونابرت الشرق وسيفه منحن، لم يستطع فتح عكا، وترك البحر المتوسط فى أيدى الإنجليز بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبو قير ولم تتمكن فرقه العسكرية من المماليك أو المقاومات المحلية». كذلك «لم يكن العذاب حكرا على الغزاة وحدهم. ولكنه كان أيضا من نصيب سكان المدن والقرى» (٣٢). ثم يتحدث بعد ذلك عن دور «دينون» فى خلق أسطورة الحملة، عندما عاد إلى فرنسا، وهو مالا نستغربه، لشدة حب «دينون» لبونابرت وإعجابه بمشروعاته الاستعمارية.

وعندما يدرس «جلبير ديلانو» فترة الحملة على مصر، فى رسالته «الأخلاقيون والسياسيون المسلمون فى مصر القرن التاسع عشر» (٣٣)، نراه يقدم ملخصا للنصوص الثلاثة التى تحدث فيها الجبرتى عن الحملة، ملاحظا التحفظ التام لشيخنا أمام الدعاية الفرنسية، وأفكارها الغريبة، مع الاحترام الموضوعى للإنجازات العلمية للفرنسيين. كما أن «ديلانو» يتفهم رفض الجبرتى لكل ما هو سوقى عند بعض الفئات من «الجماعات الصوفية،..... من صخب وابتذال وهمجية»، مما يعنى أن كلام الجبرتى المحقر للثوار كان طبقيا وليس تحيزا للفرنسيين.

وينقل لنا «ديلانو» أيضا ما قاله الشرقاوى عن الفرنسيين، وما اقترفوه من نهب وسلب، ليس فقط عند المماليك الهاربين، ولكن أيضا بين أهل البلد، كما أنه يفضح قتلهم العلماء واغتصابهم النساء، ودخول

جيادهم الأزهر، ونهب كنوزه العلمية التى لا تقدر بثمن. كما أن كلام الشرقاوى فى «تحفة الناظرين» يوضح – على حد قول «ديلانو» – مسئولية العلماء الدائمة عند انفجار الأزمات المحلية ، ودورهم أثناء «حركات معارضة الأهالى للحكومة» طوال القرن الثامن عشر. مما يثبت «لديلانو» أن تكوين الدواوين فى عصر بونابرت لم يكن اختراعا جديدا.

وهو يعود ليؤكد هذه الفكرة من جديد فى مقال نشره فى كتاب «مصر اليوم....» (٣٤)، وكان، «ديلانو»، قد لفت نظر القارئ ، فى مقدمة دراسته السابقة، إلى الروابط بين مصر وتركيا فى ذلك العصر، «والمتخصصون فى دراسة الإمبراطورية العثمانية يميلون إلى إبراز أهمية تلك الروابط، وذلك عن حق».

وكذلك فإن «أندريه ريمون»، صاحب الدراسة المهمة عن «الصناع والتجار فى قاهرة القرن الثامن عشر»، يؤكد فى مقال له بعنوان «لا يوجد انحطاط عثمانى»، كيف كان لمصر، قبل الحملة «نظام سياسى وإدارى يعتبر حديثا فى عصره؛ وكان لها كذلك نشاط اقتصادى احتفظ لها بمكانتها كمركز قوة فى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها مزينة بروائع هندسية جديرة بماضيها العظيم. كانت لاتزال تزخر بإمكانات مادية وبشرية كبيرة: عندما ستنتهى الأزمة (أى الحملة الفرنسية)، ستكون هذه الإمكانات مسخرة لمشروعات محمد على العظيمة». ويكذِّب «ريمون» ما قاله علماء الحملة فى كتاب «وصف مصر» من أن عدد السكان آنذاك، كان مليونين ونصف المليون «فالرقم الذى يبدو الآن

معقولا حوالى أربعة ملايين،....، مما يشرح كيف استطاع محمد على أن ينطلق بمشروعات كبيرة لغزواته، والتصدى للإمبراطورية العثمانية، منذ عام ١٨٠٥» (٣٥) .

أما فى كتابه عن «القاهرة»، وهو يحكى تاريخ المدينة، يرصد «ريمون» أهمية «الديوانين، العالى والعادى، حيث كان يجتمع كبار المسئولين من ضباط وعلماء وأعيان ، ليقدموا النصح للباشا، ولكنهم كانوا أيضا يتصدون للتصرفات التعسفية أو الاستبدادية» (٣٦): أمر لا نظن أن بونابرت كان ليسمح به فى الديوان الذى علم به المصريين الديمقراطية فقد كان يمنع أعضاءه من الخروج حتى يستجيبوا لطلباته، كما روى لنا الجبرتي تفاصيل انعقاده، وكأن الأعضاء سجناء ورهائن «لطاغية شرقى»، كما يحلو للفرنسيين تسمية مثل هذا السلوك... ! بل كيف يجرءون وهو «مندوب ماهوميه» أى النبى محمد (صلعم)؟

إن كان بونابرت قد جاء ليخرج مصر من ظلمات الجهل وخزعبلات الغيب، فكيف كان يقول لأعضاء الديوان «الديمقراطى» : «أليس حقا أن فى كتبكم،...، ما ينص على أن إنسانا ساميا عليكم سيصل من الغرب، منوطا بإكمال رسالة النبى؟ ،.......، أليس حقا،.....، أنه مكتوب أن هذا الإنسان، مندوب «ماهوميه»، هو أنا؟» (٣٧).

★★★

وبعد، هل نصدق أن عمالقة من العالم الخارجي، نزلوا على مصر لبناء الأهرامات؟ هل نصدق أن إلها من فرنسا، نزل على مصر، ومكث فيها سنة وشهرين، فأعادها إلى الحياة، بعد أن عاشت قرونا في غفوة لا تختلف عن الموت؟

ولكن، ألا يجدر بنا، قبل أن نستمع إلى هذا «الجنون» أن نستعمل «العقل»، ونتساءل: «من يقول هذا الكلام الغريب؟».

★★★

الخاتمة

الموضوعية العلمية فى الغرب

«.. ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن ، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ..»

(حنا آرندت)

سبق لنا أن رأينا – فى الجزء الأول من هذه الدراسة ، «عصر الأساطير» – كيف دخلت فرنسا ، منذ عام ١٧٨٩ ، عصراً من التهويمات النرجسية التى لم تلبث أن حولتها إلى وقائع أسطورية . تم ذلك منذ انعقد «مجلس طبقات الأمة» لأول مرة ؛ ذلك المجلس الذى طور نفسه إلى «جمعية وطنية» ، تصدر القوانين باسم الشعب . ذهب مرشحون عن القاعدة للمرة الأولى فى تاريخ فرنسا لمحاولة إصلاح أمور دولة لم تعد قوانينها تناسب عصرا انتشرت فيه أفكار فلسفة التنوير التى بهرت أوربا بتطبيقها فى إنجلترا ثم الولايات المتحدة الجديدة فى شمال أمريكا . ومنذ اللحظات الأولى لذلك العصر ، تقمص الفرنسيون دور الريادة العالمية التى قرروها هم ، وتخيلوا أنفسهم معلمين للبشرية، بل ومثلا أعلى لها. كما قرروا أن كل من يرفض هذا التتويج لهم ولأفكارهم، عدو لابد من إبادته. فكانت الحرب الأهلية داخل البلد ، ومجازر المعارضين ، بل وإعدام بعضهم البعض بتهمة الخيانة العظمى، و«الثورة – المضادة» . وعلى الرغم من أن الأزمة الاقتصادية كانت هى الدافع الأول لاجتماع «مجلس الطبقات» إلا أنها لم تجد حلاً ، فكان ذلك سببا آخر للاستيلاء على الأراضى المجاورة ، ثم إعلان الحرب على البلاد المتاخمة لفرنسا ، بحجة تحرير شعوبها من طغيان ملوكهم . وهكذا بدأت الحروب التوسعية ، واستنزاف كنوز «الجمهوريات الأخوات» تتحول إلى سمة من سمات تلك السنوات العنيفة . كما أنها كانت ترضى الغرور القومى بإعلاء اسم «جمهورية فرنسا» على باقى البلاد .

وتضخم الإحساس بالجو الأسطورى السائد آنذاك ، عندما جاءت أخبار معارك الجنرال بونابرت فى إيطاليا ، منتصرا على الجيش النمساوى ، أقوى جيوش ذلك العصر ولما كانت الثورة قد فقدت زهوها آنذاك فإن اسم بونابرت حلّ محلها على مذبح القومية الفرنسية . ولكن إنجلترا - العدو المتبقى - محصنة ببحار واقية ، ومن الصعب النيل منها ، فكانت فكرة الاستيلاء على مصر لضرب مصالحها ؛ ولم تكن تلك الفكرة جديدة ، فقد طرحت منذ عصر الملكية ، لأن فرنسا أرادت أن تعوض بمصر مستعمراتها المفقودة فى أمريكا ، تعوضها بجزء من ممتلكات «الرجل المريض» ، تركيا . وكما كانت الحال فى الحروب التوسعية فى أوربا ، فإن الثورة قد شنت حربا توسعية هنا أيضا باسم نشر مبادىء الثورة، تلك المبادىء التى لم يبق منها إلا شعار منقوص ؛ فقد أسقطت منه كلمة «الأخوة» فى عام ١٧٩٤ ، وأصبح الشعار الرسمى للدولة «الحرية والمساواة» دون «الأخوة» !

ثارت الشعوب «المحررة» فى أوربا على محرريها ، لأن هؤلاء المحررين لم يطبقوا أيا من تلك المبادىء «الأخوية» التى كانوا ينادون بها . وبزغ، فى تلك الأثناء ، نجم بونابرت ، تخدمه انتصاراته طبعا ، وإن كانت الدعايات التى روجها فريقه ، الذى تفوق فى رسم صورته كنصف إله، قد خدمته أكثر، خاصة أن العصر كان مشحوناً بالأساطير؛ فزادت بذلك الأساطير أسطورة أخرى . وتحول الفرنسيون، من عبدة لعبقرية الثورة ورجالاتها، إلى عبدة لإله أوحد، هو «المنقذ» بونابرت، الذى لم يهزم، حتى فى مصر : أنقذ بونابرت فرنسا بالفعل من حالة الفوضى

والانهيار التي كانت قد وصلت إليها ، بعد عشر سنوات من الأزمات المتلاحقة، والأيام «الثورية التاريخية» الدامية . تركزت، بعد ذلك، كل السلطات في يد «القنصل الأول بونابرت» ، الذي أصبح الحاكم بأمره، القاتل لكل الحريات . ولكنه كان قد أصبح أيضا «الإمبراطور نابليون» الذي احتل دول أوروبا كلها : دفعت فرنسا ثمن انتصاراته بكل فخر، مضحية بكل الحريات التي كانت قد اكتسبتها، إلى أن بدأت تدرك أن قبيلة بونابرت تدير أوربا لحسابها الخاص ، وقد أصبح كل عضو فيها ملكا على بلد يستنزف كنوزه لمصالحه الشخصية . ومن أجل تدعيم أركان عرشه قام «الجنرال الجمهوري» ، الإمبراطور المستحدث ، بعقد علاقات مصاهرة ونسب مع أعرق العائلات الملكية في أوربا، وأصبح هدفه الأول توطيد عرش ابنه، وهو الذي نبت من ثورة، كان هدفها تحطيم العروش . وتضخم غرور الرجل طبعا ، حتى فقد عقله الجبار قدرته على التقييم الواقعي للأمور فوقع فيما اعترف به هو نفسه كخطيئة كبرى ، الحملة على أسبانيا .

كان الجيش الفرنسي قد دخل مدريد بحجة تصفية الخلافات بين أعضاء العائلة المالكة ، فثار الشعب على المحتل الأجنبي ثورة عارمة . وما كان من الجيش الفرنسي إلا أن رد بوحشية على تلك الثورة، وحشية خلدها الفنان الأسباني «جويا» في لوحتيه الشهيرتين «الثاني» و «الثالث من مايو» ، وكانت الإعدامات في الثاني والثالث من مايو ١٨٠٨ قد وصلت إلى ذروتها ، فهرب ملك أسبانيا وترك عاصمته مدريد للجيش الفرنسي الغازي ، وتــوج «جوزيف» أخو نابليون ملكا على أسبانيا

فى شهر يونيو ، ولكنه هرب بعد شهر واحد أمام انتصارات المقاومة ضده : لقد أنزل الإنجليز قواتهم لمساندة الأسبان فكان ما كان . واضطر نابليون إلى الذهاب بنفسه لإنقاذ الموقف ، بعد أن أمن ظهره ؛ استطاع أن يسترد مدريد فى شهر ديسمبر ، وإعادة العرش لأخيه . وتستمر المقاومة والحرب مع الإنجليز على أرض أسبانيا ، إلى أن أجبر الإنجليز فرنسا على الانسحاب والجلاء بعد ذلك بسنوات خمس ، أى فى ١٨١٢ . ولو قرأنا تفاصيل «الحملة على أسبانيا» ، لعجبنا للشبه الكبير بينها ومثيلتها على مصر فما الذى قاله المؤرخون عنها ؟

★★★

يعتبر «جان تولار» - بادىء ذى بدء - أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن الحملة على أسبانيا فى كتابه عن «نابليون» .

فهو يرى أن نابليون لم يستول على مدريد إلا لتأكيد سيطرته العائلية على ما اعتبره «ميراث العرش الفرنسى» . كذلك كان لما قيل عن ثراء أسبانيا ومستعمراتها وزنه فى قرار الاستيلاء على البلد . كما أن نابليون كان يعتقد أن هذا البلد «المتخلف الجاهل» سيرحب به وبمبادىء الثورة الفرنسية . وعلى الرغم من تعاطف الطبقة المستنيرة - كما يقال عما حدث فى مصر - إلا أن الكنيسة والشعب قد رفضا الحكم الفرنسى رفضا مطلقا ، ويسوق «تولار» أسماء قواد الثورة دليلا على طبقة الرافضين للحكم الفرنسى والثائرين عليه ، وهى كلها أسماء من عامة الشعب، وقد انضم إليها من النبلاء والأعيان من رفض أن تأتى الإصلاحات من الخارج .

نلاحظ أولا تذمر الجند الفرنسيين من حرب لم تقنع ضرورتها حتى المستفيدين منها في فرنسا نفسها ؛ كما نلاحظ كذلك قول «تولار» : «كانت حرباً جديدة يكتشفها الفرنسيون ، فاجأتهم بكم الكراهية التى أثاروها عند الأسبان» ... وكأن التاريخ يعيد نفسه ، بعد أن «فاجأت» ثورتا القاهرة الجند الفرنسيين ، وكان تذمر الجيش منذ الأيام الأولى لاحتلاله مصر . ومن أوائل ضحايا تلك الحرب القومية الدينية فى أسبانيا ، فرقة المماليك الذين كان الفرنسيون قد اصطحبوهم عند جلائهم عن مصر . وتدخل الإنجليز بالمساعدة الفعلية ، واستمرت المقاومة بمسـاندة جيوشهم من جهة ، ومساندة الكنيسة ضد «الفرنسيين الملاحدة» من جهة أخرى ، إلى أن خرج الفرنسيون مهزومين فى ١٨١٢ .

ويعزو «تولار» الهزيمة إلى: «الظروف الطبيعية ، وصعوبات التموين في بلد فقير لم يكن يستطيع حتى أن يغذى شعبه فى الأيام العادية» ، وأيضا إلى: «حرب العصابات» التى يقودها شعب متطرف ألهبته الدعاية الدينية المعادية للأجانب» ضد الفرق المنعزلة أو القوافل» : كلام يذكرنا بالاتهامات المستمرة التى كانت تعزو مقاومة المصريين إلى تطرفهم الدينى ضد «الكفرة» فقط . كما يذكرنا الحديث عن سوء الأحوال الاقتصادية بما حدث فى مصر بالضبط» من خيبة أمل الفرنسيين ، أمام الموارد المحدودة ، وقسوة الطبيعة الصحراوية فى الصيف . كذلك ، فإن المقاومة الأسبانية الشعبية المتفرقة ضد جيش «اعتاد المعارك النظامية ،...» ضد عدو واحد» ، تذكرنا بما تكبده

الفرنسيون من هجمات «العرب» البدو ، وثورات الفلاحين ، وسياسية الكر والفر التى انتهجها المماليك فى مصر العليا .

والأهم من ذلك كله ، أن نابليون الذى لا يهزم ، هزم جيشه فى أسبانيا حتى اضطر أخوه إلى الفرار ، ولذا فقد اعتبرت «الحملة على أسبانيا» «هزيمة نابليون الأولى» . هكذا يسميها كل من تحدث عنها أو عن نابليون ، وهكذا تحدث هو نفسه عنها ؛ والجميع يعزو إليها انهيار جيشه فى روسيا بعد ذلك ، وهزيمته النهائية أمام التحالف الأوربى . وعلى الرغم من أن نابليون نفسه قد أكد ، أثناء نفيه فى «سانت - هيلانة» ، أنه لولا هزيمته أمام عكا ، لكانت الحال غير الحال ، إلا أنه لم يقل يوما «هزيمته فى مصر» ؛ وبالتالى فإن أحداً لم يذكر أن أولى هزائمه كانت فى مصر ، حتى من اعترف بفشل الحملة على مصر فشلا مطلقا .

وعلى الرغم من أن «تولار» نفسه قد سمى المقاومات ضد نابليون - وأعنفها فى نظره المقاومة الروسية - «الحرب القومية ، وهى التى تختلط فيها الوطنية بالتطرف الدينى، وتلقى بشعب كامل ضد المعتدى» ، إلا أن «تولار»، مع ذلك ، لن يدرج المقاومة المصرية بين مقاومات الشعوب المحتلة مع أنه - أثناء حديثه عن الحملة على أسبانيا مثلا - يستعمل تعبيرات تنطبق تماما على ما حدث للحملة فى مصر . فهو يقول مثلا : «التدخل (فى أسبانيا) وليد مبادرة من نابليون نفسه ، حتى إن كان «تاليران» و «مورا» قد شجعاه بصورة ما . كان هناك هذا الخطأ الأول : كتابات الرحالة وتقارير الدبلوماسيين الذين جعلوه يظن أنه سيكون

المنقذ الذى جاء ليحيى أسبانيا المتهالكة» : فمن ذا الذى يجهل أن «تاليران» هو الذى تقدم، مع بونابرت ، بمشروع غزو مصر، مؤكدا أن المصريين سيستقبلون الجيش الفرنسى «بالأحضان» ، وأن مصر ستستعيد أمجادها السابقة على يد الفرنسيين؟! ومن ذا يجهل تأثير تقارير القنصل الفرنسى فى القاهرة «ماجالون» ، التى أكدت كلها سهولة غزو مصر ، وتلك الصورة المتهالكة التى وجدها بونابرت لمصر فى كتب الرحالة «فولنيه»؟. كلام «تولار» عن أسبانيا ينطبق إذن على مصر أيضا كما أن «تولار» يبرز تأكيد نابليون على أهمية غزو أسبانيا «لإدخال أفكار ١٧٨٩ الجديدة ، على بلد يئن تحت وطأة حكم متخلف» : نفس ما قيل عن مصر ، وحكم المماليك فيها .

وعن حركات التحرر التى تفجرت بعد ذلك فى ألمانيا والنمسا، خاصة فى «التيرول» ، يقول «تولار» أيضا : «كما حدث فى أسبانيا فإن الظروف كانت مهيئة لحرب عصابات فى بلد جبلى متخلف يقع تحت تأثير الرهبان ومعاد للأجانب» .

ولا يختلف هذا عما قيل عن التطرف المسلم ضد «الكفرة» ودور الأزهر فى إلهاب مشاعر المصريين، وإن كان يقال هنا عن «التيرول» البلد المسيحى الكاثوليكى. وكان «تولار» قد لاحظ منذ البداية أثر حرب العصابات على جيش نابليون الذى «لن يجد لها خط دفاع» مناسب .. فى أسبانيا .. لكنه لن يذكر كلمة واحدة عما لاقاه الجيش الفرنسى فى مصر العليا أو السفلى من ثورات الفلاحين .

نجد الكلام نفسه عند «دوفريس» فى كتابه عن «نابليون» : «يصطدم نابليون، للمرة الأولى، بمقاومة قومية وحرب لا تخضع لتكتيكه ،....، امتدت الثورة إلى البرتغال حيث نزل إنجليز ويلسلى («ولينجتون» المستقبل) وأجبروا الفرنسيين على الاستسلام . كانت تلك أولى الهزائم النابليونية » ، مع أن الأنجليز أيضا كانوا وراء هزيمة بونابرت أمام عكا ثم رحيل الفرنسيين فى النهاية عن مصر ، ناهيك عن تدمير الأسطول الفرنسي فـى أبـو قيـر فـى الأول من أغسطـس ١٧٩٨، وكان ذلك - باعتراف الجميع - نذير فشل الحملة مادام الجيش أصبح سجين غزوته .

كذلك نرى «ريمون آرون» يؤكد أنه: «أثناء حروب الإمبراطورية، هاجم الفلاحون الجند الفرنسيين مرتين ، فى أسبانيا وفى روسيا، سواء أكان السبب فى ذلك ضرائب الجيش الغازى التى لا تحتمل فى هذه البلاد وهى على شفا المجاعة، أو أن رد الفعل البدائى للوطنية الكارهة للغازى، قد لعب دوره هناك» (١) ... وهل كان الأمر مختلفا فى مصر؟ ولم لم يذكر؟ ألأن مؤرخنا يتحدث عن حروب نابليـون الإمبراطـور ، وليس عن حروب بونابرت الجنرال ؟!

قد يكون سبب هذا التجاهل، أن أسبانيا كانت بداية النهاية بالنسبة للإمبراطور نابليون، بينما كانت أسطورة الحملة هى بداية البداية للجنرال بونابرت، الذى استولى على الحكم فى فرنسا وهو متوج بانتصار زائف فى بلاد ألف ليلة وليلة ، والمماليك والأهرامات : ولكـن،

ألم يُعترف بزيف أسطورة بونابرت وزيف أسطورة نابليون ؟ وعُرف كذلك زيف أسطورة الحملة ؟

★★★

بسبب غزو أسبانيا «هزيمة نابليون الأولى» كما يقولون ، جاءت الهزائم الأخرى بعد ذلك ، وكان أبشعها طبعا فى روسيا . وجاءت آخر هزيمة عام ١٨١٥، وقد ترك نابليون فرنسا فى حالة من الوهن ، مكنت الأعداء منها، وقد فقدت من الأراضى أكثر مما كانت الثورة قد استولت عليه قبل حكمه.

ولكن الحكم الملكى الذى عاد إلى فرنسا بعد نفى نابليون، خيب كل الآمال، فبدأ الندم على «أيام نابليون المجيدة» وعاد الحنين لعصر كانت فرنسا تحكم فيه كل أوربا ، عادت أسطورة الثورة التى منحت الحريات والمساواة، وأسطورة الرجل الذى أذل أوربا بصفته «إمبراطورا للفرنسيين»، وانتشرت حروبه وانتصاراته من مصر إلى روسيا: كان اسم مصر ذلك البلد المسلم البعيد الغامض وحده يثير الإيحاءات التهويمية، من قصص الفراعنة إلى سحر ألف ليله وليلة، ألا يكفى نابليون مجدا أنه حارب هناك «المماليك» ذلك الاسم الأسطورى الآخر ؟

وعلى الرغم من كل ما نشر عما حدث فى مصر من فظائع، إلا أن الجمهور كان لا يقرأ إلا ما يرضى غروره الوطنى، وحنينه لأيام كان جند فرنسا يفتحون فيها كل البلاد وحتى النائية منها باسم فرنسا وكانت السياسة الداخلية لفرنسا القرن التاسع عشر صاخبة مدوية، بسبب التيارات المتناحرة التى أنتجت أربع ثورات، وخمسة نظم سياسية

مختلفة. فكانت المؤلفات الحزبية والدراسات التاريخية تهدف أساسا إلى خدمة تيار سياسي بعينه ليعضد من فرص فريق ضد فريق آخر إلى أن جاء انتصار الجمهوريين حوالي عام ١٨٨٠، وازدهرت السياسة الاستعمارية للجمهورية الثالثة وهكذا فإن الأفكار السائدة آنذاك قد خدمت أسطورة نابليون «بطل الحضارة»، غازي أوربا وإفريقيا وآسيا، وسياسته الحكيمة في مصر كأحسن لواء لما أصبح عصر استعمار باسم تصدير «الحضارة» الى الشعوب الجاهلة.

وأصبحت أسطورة الثورة الكبرى، ملهمة الجمهورية الثالثة، بل أمها التي تمدها بالشرعية، أصبحت هي التاريخ الرسمي للدولة كما أصبحت انتصارات نابليون مفخرة الذكرى القومية؛ فكلاهما أحسن دليل على امتياز الحضارة الفرنسية وضرورة فرضها، ولو بالقوة على دول العالم، وما أكثر الدول الضعيفة في القارات الأخرى. من هنا كان ذكر الفشل الذي حاق بالجيش الفرنسي في مصر – والله أعلم – ذكرى بذيئة لابد من إيجاد حل لها، فكانت أسطورة نجاح «المشروع الحضاري» وانبهار المصريين به خاصة أن الخديو إسماعيل أراد لمصر أن تكون جزءا من أوربا، ففتح الباب على مصراعيه للنفوذ الثقافي الفرنسي وإرسالياته التعليمية لذا فقد قرر المؤرخون أن ذلك لم يكن إلا ميراث الحملة ونتيجة مرور بونابرت على مصر لمدة عام واحد، حتى إن جاء ذلك بعد قطيعة دامت ستين عاما.

وعندما جاء الاحتلال الإنجليزي، توجه المثقفون العرب إلى فرنسا، بصفتها غريم عدوهم.

كلام مضى عليه أكثر من قرن، ويبدو كأنه من غياهب الدهر، خاصة أن الحرب العالمية الثانية غيرت كل المفاهيم التى كانت سائدة فى أوربا من قبل. فقد أصبحت أوربا قوة ثانوية بعد أن كانت مهيمنة على العالم بجيوشها ومفاهيمها وعليائها. وهزمت الولايات المتحدة اليابان فى آسيا، وتسيدت على العالم الغربى. لقد فقدت أوربا هيبتها كما فقدت مستعمراتها، التى احتلتها باسم «الحضارة» وجاء إلى الدنيا جيل جديد يسخر من ادعاء آبائه وأجداده فرض «حضارة» تتسم بالعنف والدموية على حضارات تعلّم هذا الجيل احترامها بعد أن بهر بجمال إنجازاتها وسمو قيمها. خاصة أن الحرب كانت قد شنت ضد «بربرية النازية وهمجيتها»، وباسم «حرية الإنسان» الذى اضطهد فى المستعمرات واستنزف، كما فعلت الجيوش الهتلرية فى أوربا المحتلة؛ وكما حطمت حرب فيتنام المرآة التى كان الرجل الأمريكى الأبيض يرى فيها نبل كل تصرفاته وسمو قيمه، أصبحت كل أساطير «الأمه الفرنسية» محض خيالات خدعت الجيل الجديد فى طفولته، عندما كانوا يعلمونه تقديسها فى حياته المدرسية.

إنه جيل عرف، من الواقع اليومى، التعذيب الوحشى لشعوب حاربت من أجل حريتها فى الهند الصينية والجزائر ومع اكتشاف الحقائق البذيئة، كانت أزمة هوية الغرب الأوربى، والبحث عن دور آخر غير دوره السابق، كحام للحضارة فى العالم، عندما كان هو نفسه، وفى الوقت ذاته يحطم الحضارات الأخرى.

ووسط هذا الدمار كله، بقيت واحه منيرة، هي قصة الأشهر القليلة التي اعترف فيها شعب جاهل متخلف بسمو الحضارة الفرنسية إنها قصة الحملة على مصر، حتى عندما يعترف المؤرخ بما لا يمكن إنكاره؛ وكأنهم يقولون - بل قالها «جورج سبيلمان» بالفعل - نحن لا ننكر كل هذا الواقع المرير ولكن بقي الهدف السامي .... الذي لم يتحقق!

وبالتالي، فإذا ما ذكرت هزائم نابليون بونابرت، تناسوا أولى هزائمه وهي حملته على مصر، التي باءت بالفشل في كل الميادين باعترافهم. لذا فقد تشبثوا بذكرى «المعهد الفرنسي» وإنجازاته، التي لا يذكرونها ... لعدم وجودها، وروعة كتاب «وصف مصر» وكأنه الإنجيل أو القرآن، وحجر رشيد، الذي كان يمكن أن يكتشف دون حملة عسكرية تهدف في واقعها إلى استنزاف البلد لصالح الفرنسيين؛ وبذلك تأتي الخاتمة في تناقض تام مع ماسبقها من سرد ووصف للأحداث: يجد القارئ نفسه حيالها مبلبل الفكر، شارد الذهن، محاولا إيجاد منطق سليم يربط بين ما قيل وما استخلص منه، وكأن جند الجيش الفرنسي من أنصاف الآلهة، فكان مرورهم السريع لنيف وثلاث سنوات يعادل في تأثيره بل يفوق دخول المسيحية إلى مصر أو الفتح العربي، أو الغزو العثماني؛ وأين الاحتلال البريطاني ؟.

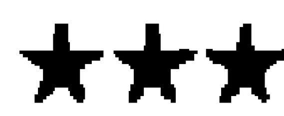
وإذا ما تحدث المؤرخون - الجدد والسابقون عليهم - عن الانتفاضات الوطنية في البلاد التي استعمرتها فرنسا الثورة وفرنسا الإمبراطورية، طمسوا ذكر آلاف من ضحايا المقاومة الشعبية في مصر، وكأن هؤلاء لا يدخلون في حساب شهداء الحرية لأنهم ليسوا من شعوب

أوربا. فقد كان يؤرخ للمقاومة الشعبية ضد الحكم الفرنسى منذ قيام ثورة الأسبان، وأصبح يؤرخ لها الآن منذ أن رفض الإيطاليون والسويسريون حكم فرنسا الجمهورى .... دون ذكر للمصريين. وقد يكون ذلك موقفا منطقيا لو أنهم اعتبروا - مثلنا - أن المرور الفرنسى على مصر كان عابرا، وأن إسقاط ذكره لن يؤثر على فهم تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، ولكنهم مؤمنون أن هذا الحدث كان الفاتحة بالنسبة لمصر الحديثة. حتى «المؤرخين الجدد» - ماعدا «فرنسوا فوريه» - يصلون كلهم إلى هذه النتيجة الغريبة؛ غريبة، خاصة إذا ما تذكرنا أن الفرنسيين يعتزون جدا بقولهم «نحن فى بلد ديكارت» صاحب مبدأ ترجيح العقل والمنطق فى كل الأمور. كان أمرا طبيعيا حين كان المؤرخ الاستعمارى يتحدث عن جند الحملة مسميا إياهم: «جندنا» وقائلا عنهم: «نحن»، ولكننا نجد ذلك أيضا عند «المؤرخين الجدد» الذين يتحدثون عن «جنود الحملة»، أو «فرنسيى ذلك العصر»، معترفين إذن بالمسافة التى تبعدهم ذهنيا وزمنيا عن أجداد ضاعت علاقتهم بهم بسبب تغير الأحوال وتطور العقليات وهم بالفعل يتحدثون عنهم بعقلية نقدية قاسية فاضحين مساوئهم وتخريبهم للبلاد.

***

لا مناص لنا إذن من الرجوع إلى ما قالته الفيلسوفة «حنا آرندت» فى كتابها عن «أزمة الثقافة»؛ إنها تؤكد أن: «... ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ...» (٢) ... كلام يثير فينا ذكرى دراسة

أمريكية (٣)، تثبت - وياللعجب - أن الأجناس الأخرى غير البيضاء، تعرف هي أيضا مشاعر الحب! اكتشاف عجيب فقد كان الظن السائد أن حضارة الغرب وأوربا بالذات بثقافتها هي الوحيدة التي تعرف هذا الإحساس الجميل: هكذا! مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة أسطورة أخرى غير أسطورة حملة بونابرت على مصر وهي أسطورة الموضوعية العلمية في الغرب.



قبل أن نقرأ ما قاله الدارسون الفرنسيون أنفسهم عن هذه الفكرة، فكرة «موضوعية العلم» وعلم التاريخ بالذات، نود أن ننوه إلى أن كلمة «موضوعية» في اللغتين العربية والفرنسية مشتقة من الجذر نفسه: فمن «يضع شيئا» أمامه، لابد أن ينظر إليه بعين مجردة، بحيث يرى الجميع المعنى نفسه، فلا يمكن مثلا أن توضع مائدة يراها البعض كرسيا والبعض الآخر مائدة. إن الناظرين إلى «الشئ الموضوع» أمامهم لابد أن يتفقوا كلهم على صحة رؤية هذا الشئ نفسه، وكلمة «شئ» هي بالضبط الكلمة الفرنسية المشتقة منها كلمة «موضوعية» العربية. فهل ينظر كل العلماء بالعين نفسها إلى الشئ المدروس ؟.. المفروض أن يكون الأمر كذلك، والمفروض عادة ليس القاعدة مع الأسف الشديد. فمصر جغرافيا مثلا تقع في افريقيا ولكن البعض ينظر إليها على أنها جزء من أوربا، لأنهم أرادوا لها ثقافة هي الثقافة الأوربية. فالشئ يختلف إذا تدخل الفكر في النظر إلى أموره، وإذا كانت الأمور تاريخية، فمن الطبيعي أن يختلف فكر المؤرخ عن فكر زميله في الدراسة. ويجوز

لمؤرخين أن يحكما على الأشياء من منظورين مختلفين، لأن فكر أحدهما منبثق عن زاوية غير الزاوية التي ينبثق عنها فكر زميله. ومادامت الرؤية كالفكر ذاتية بالضرورة فمن الجائز إذن اختلاف الأحكام باختلاف الفكر من شخص إلى آخر ومن مؤرخ إلى آخر.

ولكن القضية تصطدم أيضا بعنصر آخر هو المصلحة وراء الدراسة وكما أسلفنا، وحسب كلام «فونتنيل» في قصته عن «السنة الذهب»، قد تكون النية سليمة ولكن التعجل أو الجهل يجعلان الدارس مخطئا في تقييمه للأمور، كما قال «فونتنيل»، فالدراسات التاريخية بالذات معرضة أكثر من غيرها لهذا النوع من الخطأ خاصة لو أننا فطنا إلى أن دراسة التاريخ ما هي، في الواقع، إلا دراسة سياسة الماضي. وبالنسبة للسياسة بالذات، فقد عبرت «حنا آرندت» عن مكنونها الواقعي الدفين قائلة: «إن ما أقوله أمر مسلم به فالجميع يعرف دون أدنى شك، أن الحقيقة والسياسة. لا تتفقان وحسب معلوماتي، فلا يوجد من اعتبر الأمانة صفة من الصفات السياسية، فالكذب كان يعتبر دائما الأداة الضرورية الشرعية لوظيفة السياسي أو الديماجوجي ناهيك عن وظيفة رجل الدولة»، كلام لن يعترض عليه «ماكيافيل» طبعا (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ذلك المفكر الإيطالي الداهية «الذي اتهم الفرنسيين بتحويل كل هزائمهم إلى انتصارات (٤)، واعتبر هذا الداء سمه من سمات الفرنسيين منذ عصره! لذا فقد كان نقد التاريخ الفرنسي جزءا من نقد «الموضوعية العلمية» في الغرب.

★★★

إن المجال الوحيد الذى يمكن أن نحصر فيه «الموضوعية العلمية» فى حالتها المطلقة، هو مجال العلوم الانسانية، دون نزاع، وميدان الدراسات التاريخية على وجه التحديد، فإن كل من يتعرض للواقع، سواء كان هدفه عملاً فنياً أو دراسية أكاديمية ، لابد أن يعتمد على تلك الدراسات ، خاصة أنها لم تعد تهتم فقط بأكابر الشخصيات، أو ما يسمى «بالحدث التاريخى» بل اتسع نطاقها ليشمل كل ما يخص الإنسان - بل والحيوان ، والطبيعة فى كل مظاهرها - وأصبح ذلك كله مجال دراسة للمؤرخ. إن ما يسمى بالتأريخ أصبح حاليا دراسة الحضارة لبلد ما، بكل فروعها، سواء كانت تلك الفروع ثقافية أو اقتصادية أو حربية.. إلخ. لذا فقد أصبحت مسئولية المؤرخ عظيمة، إذ أنه لا يقدم أحداثا بعينها، بقدر ما هو مسئول عن تقديم حضارة بأكملها. من هنا جاء سؤال «ما فائدة المؤرخين؟»، سؤال تولت مجلة «لستوار» تلخيص الإجابة عليه، كما نشر أيضا فى مجلة علمية أخرى، وكانت هذه هى الإجابة: «للمؤرخ وظيفة اجتماعية بالنسبة لمعاصريه واجبه أن ينير لهم الماضى حتى يكون فهمهم للحاضر أعمق، هذه مسئولية ليست بالبسيطة، فالمؤرخ، ، حسب تعريف إيريك هوبسباوم، «محطم الأساطير»، فعليه نقل علم سيكون «الإدراك التاريخى لليوم وذاكرة الغد». على المؤرخ إذن ألا يقتنع بأكثر المسلمات شيوعا، بل عليه أن يزعج» (٥) قراءه، لأنه طبعا سيغير كل ما يقتنعون به من مسلمات سابقة . فمسئوليته إذن غاية فى الخطورة لأنها تشكل الوعى القومى للشعوب.

وظيفة تحطيم الأساطير جد شاقة، فالقول الفرنسى «إن للأساطير حياة طويلة» قول حكيم. وقد عرفنا، من دراستنا السابقة، كيف يمكن أن تعمى المسلمات الكاذبة بصر أحسن العقول تفهما. ولكن الأساطير صعبة التحطيم لأنها تدخل عقولنا منذ الصغر، لذا كانت المشكلة التى قال فيها المؤرخ «فيليب جوتار»: «إن التاريخ العلمى ضعيف إذا ما قورن بالتاريخ الأسطورى. فالأساطير لها فعالية قوية لأنها تخاطب الخيال ،.... إنها تقوم بالفعل بالدور البدائى لذكرى الماضى بصورة أفضل من التاريخ النقدى للمتخصصين: إن وظيفة ذكرى الماضى هى الحفاظ على تماسك الجماعة» الإنسانية . وهو يرى أن الانفعال الغاضب لا فائدة منه: «من الأفضل دراسة منهجية منظمة لأساطير كثير من التركيبات التاريخية، بما فيها من تظن نفسها دقيقة. لأن خطر الأسطورة التاريخية ليس فى ذاتها، ولكن فى إنكار طبيعتها الأسطورية ، وفى التبريرات المطروحة بوسائل علمية» (٦).

وكان المجهود جد شاق بالنسبة لجيل وجد نفسه يفند اساطير الماضى، وما أكثرها فى التاريخ الفرنسى وجاءت الدراسات عديدة عندما بدأ تيار إعادة النظر فى تأريخ بلد تغير وضعه بين ليلة وضحاها: «فمنذ ١٩٧٠، بدأت الزوابع فى سماء كانت صافية (لسنوات عديدة). كيف يدرس تاريخ يدخل فى حسبانه المكان المتوسط لفرنسا فى العالم؟» (٧) بعد أن فقدت مكانتها السابقة كقوة عظمى؟ ويرى مؤرخ آخر القضية نفسها من منظور آخر: «إن الجيل المولود فى الستينات لم

يعد يحتاج إلى أسطورة تجمع شمله: أزمة الهوية التى سببتها الحرب العالمية الثانية لم تعد مشكلته» (٨).

كما يرى «فرانسوا فوريه» أن تدريس التاريخ، بعد ١٩٤٥، لم يعد يتناسب مع ما كان يدرس منذ عام ١٨٨٥ «بسبب نهاية هيمنة أوربا على العالم» (٩). ويقول «مارك فررو» إن: «التاريخ التقليدى ،...، كان هشا: إنه يقدم لشباب فرنسيى ١٩٥٨ حرباً عالمية ثانية «متناسيا» الحديث عن المتعاونين (مع الألمان)، وحكومة فيشى وبيتان» (١٠). وهى كلها من سنوات يعتبرها الفرنسيون «سنوات عار»، لأنها تثبت أن النازيين فى فرنسا كانوا على وئام تام مع عامة الجمهور والحكومة. والنتيجة لن نستغربها ، إذا ما حاول دارس آخر معرفة رأى الفرنسيين فى أحداث الحرب العالمية الثانية.

فهو يلاحظ، فى عام ١٩٨٤، أى بعد حوالى خمسين عاما من الأحداث ، أن الفرنسيين يذكرون الماضى من خلال بعض الصور «العاطفية»، التى تجعل من الجنرال «دى جول» المنتصر الحقيقى على الألمان، وإجحاف الدور الأمريكى فى تحرير فرنسا من الحكم النازى واستعماره، معلقا بقوله: «فهم يجعلون من رغباتهم حقائق تاريخية» (١١).

ويعلق مؤرخ آخر على ظاهرة الأساطير الكاذبة كاتبا: «إن الحقيقة، مرة أخرى، كما نستطيع إعادة بنائها، لا تتطابق مع الأسطورة» (١٢). الأسطورة هى مايحلو لشعب أن يرى فيه نفسه، أما الحقائق فهى عادة ما تكون مؤلمة.

وقد عبر الأمريكيون عن تلك المشكلة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما فى اليابان، فرفضوا الاعتراف بواقع الحدث البشع، قائلين: «يكتشف الآن أن التاريخ كان كاذبا . وإن كان ذلك صحيحا، فهذه جريمة. ولكننا، نحن الأمريكان، لا نتخيل لأنفسنا تاريخا دمويا» (١٣).. وما العمل إن كانت تلك هى الحقيقة؟.

ولكن، هل بقى للحقيقة مكان بعد ذلك ، فى تاريخ يتلون حسب رغبات كل شعب فى تجميل صورته لنفسه وأمام الآخرين؟.

وأين بالذات تحسم هذه القضية؟ فمن هنا جاءت قوة الأساطير وصعوبة دحضها. وعادة ما تبدأ هذه الأساطير من الكتب المدرسية نفسها.

فمعرفتنا بالتاريخ تبدأ من المدرسة، ومؤلفو الكتب المدرسية هم طبعا المتخصصون، الذين سرعان ما تنسى أسماؤهم ، ولكن دروسهم تغرس فى ذاكرة الأطفال إلى الأبد.

وندر من استطاع بعد ذلك أن يتخلص من الانطباعات التى تأثر بها وهو طفل يكرر دون أى تفكير أو نقد، كل ما يقال له من خير أو شر، وهو كالرخام البكر، إذا ما حفر عليه شىء، فلن تمحيه بعد ذلك العقود أو حتى القرون.

وقد درس «مارك فيررو» فى كتابه الشهير «كيف يحكى التاريخ للأطفال»، هذه النقوش المضللة.

إنه يبدأ بهذه الحقيقة: «إن الصورة التي نعيش معها، عن أنفسنا وعن الآخرين ، هى الصورة التي لقنت لنا أثناء طفولتنا» (١٤). وفى مقدمته، يذكر «فيررو» المفكر الايطالي «بنيدتو كروتشي» الذى قال: «فى بداية القرن (العشرين) يطرح التاريخ مشاكل الحاضر أكثر مما يطرح مشاكل العصر الذى يفترض أنه يدرسه». ثم ينقد «فيررو» التاريخ الأوربى الذى لايهتم بالبلدان إلا إذا دخلت فى نطاق الاهتمام الأوربى. «فكان الغرب يعتبر أن الشعوب التى لم تمتزج بالحضارة الغربية، لا تاريخ لها»، ولا يدخلها فى سرده إلا عند «اكتشاف» الأوربيين لها ومن السهل طبعا بعد ذلك ، اعتبار كل ما سبق هذا الاكتشاف ملغياً، كما حدث مع دراسى الحملة على مصر، الذين لم يفكروا لحظة واحدة أن مصر، قبل مجيء الفرنسيين ، كان لها تاريخها وحضارتها وثقافتها (١٥): هذا تعليقنا نحن طبعا!.

ويلفت نظرنا ، فى كتابه، ما يقال بالذات ، عن نظرة التاريخ الأوربى، أو بالأصح التاريخ الفرنسي، إلى مصر: «فالشعوب الأخرى لا تشترك فى السرد التاريخى إلا بصفتها عابر سبيل، عندما كانت أوربا تتنزه فى بلادها. فمصر مثلا، نعرفها فقط قبل أن تولد (ولم نفهم ماذا يعنى بالضبط بهذا الوصف) ، ثم وهى تحت الحكم الروماني، ثم أثناء الحروب الصليبية ، أو بونابرت ، ومحمد على، وناصر ،...، إن تاريخ هذه البلاد لا يعد تاريخا إلا عندما يلتقى بتاريخنا».

★★★

صدق «فيررو» فى مقدمته ، عندما فضح أهمية السيطرة على الخطاب التاريخى . فهو يقول: «السيطرة على الماضى تدعم السيطرة على الحاضر، وهى تأكيد لشرعية السلطات والتساؤلات. فالقوى المسيطرة - كالدول والكنائس والأحزاب السياسية أو المصالح الخاصة - هى التى تمتلك، أو تسيطر بطريقة ما ، على وسائل الإعلام أو أدوات الاستنساخ، من الكتب المدرسية إلى القصص المصورة (للأطفال) ، والأفلام وبرامج التليفزيون ،....، وأى من الأمم أو الجماعات الإنسانية ستقدر على السيطرة غداً على تاريخها؟».. وتأكيداً لهذا التشاؤم ، نذكر فيلما أمريكيا، عرض منذ بضع سنوات فى دور العرض بمصر. وكان جمهور الشباب فى القاعة يصفق لمهارات البطل الأمريكى، الذى يحارب ، فى شوارع القاهرة، الجيش الألمانى ، فى الأربعينات، وقد كست الأعلام النازية كل مبانى القاهرة ! وما خفى كان أعظم (١٦). ومما لاشك فيه أن هؤلاء الشباب قد خرجوا من الحفل مقتنعين تمام الاقتناع، أن النازية كانت مسيطرة على مصر... فقد شاهدوها بأعينهم! ويزداد التشاؤم إذا أخذنا فى الاعتبار أيضا ما يبث فى البيوت من خلال المسلسلات التليفزيونية المغرضة. ناهيك عما يقتحم عقولنا من خلال الانترنت، مؤكدا أن عمالقة من العالم الخارجى وبنى إسرائيل، هم الذين بنوا الأهرامات!! ...

★★★

نعم ... ومع شديد احترامنا للفيلسوفة «حنا آرندت» فقد جانبها الصواب فى مقولتها عن «الموضوعية العلمية» التى لم يهم بحبها إلا

الغرب فما قاله «فرانسوا فوريه» كان أصدق عندما أكد أن «كتابة التاريخ لم تكن بريئة فى يوم ما» (١٧)، وقد يكون عرضنا، لما كتب عن الحملة على مصر خير دليل على ذلك.

وفى دراسة أسماها «ميلاد التاريخ»، قدم «فوريه» الدليل القاطع على مقولته تلك. فهو أيضا مثل «فيررو» يدرس الخطاب التاريخى الذى يطرح على التلاميذ فى فرنسا. إنه يعرض علينا كيف أن التعليم ينتهج سياسة كل حكم يطيح بسابقه فتكون مقررات التاريخ هى أول شاهد على تغير سياسة الدولة ، والحقيقة أن دراسة مناهج التاريخ فى العالم كله - حسب قوله - وفى فرنسا بالذات، تشير إلى تغييرات جوهرية فى النظرة إلى ماضى الوطن وتسلسل الأحداث، من منطلق فلسفة خاصة لكل حكم وخير دليل يقدمه «فوريه» على ذلك تطور صورة الثورة الفرنسية، كما تناولها المؤرخون وتلاميذ المدارس الحكومية، على مدى مائتى عام.

كان تدريس مادة التاريخ فى القرن التاسع عشر قد أخذ أهمية لم يعرفها من قبل. إذا كان التعليم فى القرون السابقة يهتم أساسا بكلاسيكيات الأدبيات اليونانية والرومانية ؛ وقد رأينا بالفعل تأثير هذا التدريس على رجالات ثورة ١٧٨٩. بينما أخذ تدريس العهد الحديث أهمية جديدة، عندما بدأ المؤرخون يتبارون فى إثبات وجهات نظرهم، إبان الأحداث التى حولت فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر، من ملكية دامت حوالى ألف عام، إلى حكم جمهورى يؤكد أنه الشعب، ولا يحقق إلا إرادة الشعب. خاصة أن محاولة العودة إلى الماضى، وحكم عائلة

«البوربون» مرة أخرى، قد تسبب فى قيام ثورتين، فأصبحت ثورة ١٧٨٩ بآمالها وأحلامها، آمال وأحلام كل من صدم من حكم «البوربون» الذى اعتبر نفسه إحياء لماض عفى عليه الزمن.

من هنا، كانت أهمية منهج تدريس التاريخ بعد ثورة ١٨٧١. إنها العودة إلى قيم الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩، عندما اعتبر الحكم الفرنسى الجمهورى نفسه معبرا عن الشعب، ولكنه رأى نفسه أيضا منبرا للديمقراطية العالمية. ويؤكد «فوريه»، مسترسلا فى سرده، أن فرنسا كما يقدمونها هى: «حاملة التقدم من خلال الدولة القومية، وتاريخ فرنسا أحسن مثل على هذا، بدليل تاريخها خلال عهد الملكية المطلقة فى الماضى، والثورة الفرنسية أخيرا». من هنا، كانت ضرورة تعليم الشعب مبادئ معينة، فى المدارس التى تتولاها الحكومة، حسب منهج جمهورى معين، أسماه «فوريه»: «علم تربية المواطن ....، أصبح الهدف من تدريس التاريخ واضحا خاصة أن المدرسة علمانية، إجبارية، مجانية: كان واجب هذه المدرسة وهدفها، خلق مواطن مقتنع بواجباته، وجندى يحب سلاحه». فكانت فتوحات فرنسا الاستعمارية ...

عرفت الأجيال المتلاحقة بعد ذلك صورة فرنسا من خلال الكتب المدرسية التى تركت بصمتها على العقول الفرنسية حتى عهد قريب، لأنهم تعلموا فيها، منذ نعومة أظفارهم، أن: «فرنسا هى أكثر الأوطان عدالة وحرية وإنسانية» (١٨) ... كما عرفت تلك الأجيال أن جند فرنسا لا يحاربون الشعوب المتأخرة إلا لإهدائها الرخاء والحضارة.

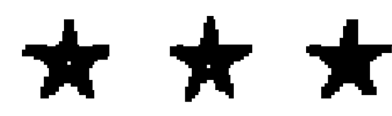
وكان بونابرت طبعا - والقول هنا لنا - أول من فكر فى إهداء هذا الكنز إلى الشعوب المتخلفة، عندما غزا مصر كانت السياسة التعليمية للجمهورية الثالثة هى وسيلتها لإرسال الفرنسيين لاستعمار إفريقيا وآسيا ... فكانت أسطورة الحملة التحضيرية على مصر، أولى غزوات تحضير الشعوب الجاهلة. فإذا عرف السبب ...



إن تدريس مادة التاريخ يعتبر من أهم، إن لم يكن أهم عنصر فى تكوين الشخصية القومية لأى شعب. والمعروف أن ألمانيا النازية، مثلا، عندما أرادت قهر الروح البولندية بعد غزو البلاد مباشرة فى ١٩٣٩، فإنها قد ألغت تعليم اللغة البولندية، ومادتى التاريخ والجغرافيا من المدارس وذلك حتى يفقد التلاميذ هويتهم نهائيا، ويتحولوا إلى أداة طيعة للحكم النازى. تماما كما كانت الحكومة الفرنسية تفعل فى مستعمراتها، حيث كانت تدرس اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها .... فقط؛ حتى أن التلاميذ، عربا أو أفارقة أو آسيويين، كانوا يرددون الجملة الشهيرة «أجدادنا الغال» ... إلى أن فقدوا أى انتماء لأجدادهم الأصلاء.

كذلك تلعب السينما - والتليفزيون - دورا خطيرا فى تشكيل الوعى العام فى القرن العشرين. وأفلام «فرانك كابرا» مثلا فى الولايات المتحدة، معروفة لدورها الخطير فى هذا الصدد، فبسببها آمن الشعب الأمريكى بالصورة الجميلة للرجل «الأمريكى الأبيض الخير الحر» التى يراها فى تلك المرآة الباهرة، وجاءت حرب فيتنام لتتحطم المرآة، ويمر

الجمهور بأزمة طاحنة أمام واقع أليم يفضحه التليفزيون، واقع لا علاقة له بما كان يتخيله هذا الجمهور عن نفسه. كذلك كانت الأزمة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء القنبلة الذرية على «هيروشيما» اليابانية ، ومع الاعتراف بما أصبح يذكر على أنه جريمة وصلت بشاعتها إلى حد اللاتبرير. وأمام ثورة الرأى العام، لم تلق الأزمة حلاً غير إلغاء احتفال يفضح «جريمة بشعة ضد الإنسانية»، كان الأمريكيون لا يعترفون بمثلها إلا على أيدى أعدائهم ، من ألمان ويابانيين فى الحرب العالمية الثانية .



وبعد ...

انهارت صورة الأمريكى الطيب، كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية: إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة. واستمر جيل «تحطيم الأساطير» ، فأتى على أسطورة «الثورة الكبرى» ورسالتها السلمية العالمية.

كذلك ، أصبح الحديث عن نابليون يعترف ـ دون أدنى شك ـ بأن الأسطورة كانت كاذبة. والدليل، مثلا، اكتشاف أن سجن «الباستيل»، عندما اقتحم فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩، لم يكن به سوى خمسة سجناء .. بينما كان عدد السجناء الذين خلفهم نابليون عندما انهار حكمه، فى ١٨١٤، خمسة وعشرين ألفا! أصبح هذا الكلام من المسلمات ، حتى ان إعلانا عن مزاد طرحت فيه خطابات للإمبراطور

الشهير فى باريس، يقول عنها إن بها ما يكشف «جوانب مخفية (عن شخصية نابليون) أو كانت الأسطورة قد أخفتها بعناية فائقة..» (١٩).

★ ★ ★

فإن كانت أسطورة الرجل قد انهارت، ألم يحن بعد أن تفضح أيضا أسطورة الحملة الحضارية على مصر، هزيمة بونابرت الأولى، والتى كانت السبب الأول فى استعمار الإنجليز لمصر فى ١٨٨٢؟

وتنهار أيضا مقولة «حنا آرندت» عن الغرب، المغرم الوحيد بالموضوعية . خاصة أنها اعترفت بأن السياسة لا تعيش إلا بالكذب: ألم يقل المؤرخ «فرانسوا فوريه» إن: «التاريخ أمر سياسى قبل كل شيء»؟ (٢٠). فنصل إلى نتيجة أخيرة: أن التاريخ - عندهم - هو السياسة الكاذبة. والله أعلم.

«وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»
صدق الله العظيم

الهوامش والمراجع الأجنبية

الفصل الأول

شاهد من أهلها

١- Vivant Denon : Voyage dans la Basse et la Haute - Egypte

Présentation de Jean Claude Vatin, Le Caire IFAO, 1989

٢ - «كريستوفر هيرولد»

النص المترجم : ص ١٣٣.

وتعليق «لورانس» فى كتابه يؤكد هذا الوصف: النص المترجم ص ١٤٩.

٣ - Jean - Marie Carré: Voyageurs et écri - vains français en Egypte; Le Caire- IFAO,1965.

الجزء الأول : ص ٢٥٢.

٤ - François Bernoyer : Avec Bonaparte en Egypte et en Syrie

19 lettres inétites (....) retrouvées et présentées par Christian Tortel
Collection Le temps retrouvé , éditions Curanda,1981

«فرانسوا برنوابيه»: «مع بونابرت فى مصر وسوريا».

٥ - «تولار»: «نابليون» ص ٩٧.

٦- Joseph - Marie Moiret

Mémoires sur l'Expédition d' Egypte
Pierre Bellond, 1984.

هذا ما يقوله ناشرها فى مقدمتها للنص.

٧ - عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ ص ٢٥.

٨ - مما يؤكد حقيقة هذا الكلام وواقعيته ، ما كان يقوله الفرنسيون الذين استسلموا للقوات البريطانية. لذا، فإن المؤرخ «ماكيزى» يعزو سرعة استسلام الجيش الفرنسى لعلم القواد بالمعنويات المنهارة للقوات الفرنسية، ورفضها الاستمرار فى المحاربة من أجل قضية فاشلة. وكان «القاسم المشترك لكل هؤلاء الأسرى، خوفهم من أهل البلد، الذين أثيروا من المصادرات وسوء المعاملة، ورعب (الجند الفرنسية) من العادات القاسية للأتراك».

Piers Mackesy: British Victory in Egypt, 1801
The end of Napoleon conquest- Routledge - London and New York - 1995.

«بيرس ماكينزى»: «النصر البريطانى فى مصر، ١٨٠١ – نهاية غزوة نابليون». ص ١٨٥ وص ٢٢٣.

٩ – Kléber en Egypte: 1798- 1800

Kléber et Bonaparte : 1798-1799

Présentation et notes par Henry Laurens.

IFAO - 1988- 2 volumes

«كليبر في مصر : ١٧٩٨ – ١٨٠٠»

«كليبر وبونابرت (١٧٩٨ – ١٧٩٩)»

الجزءان الأولان ظهرا أولا.

١٠ – إحدى العملات الفضية الفرنسية فى ذلك العصر.

١١ – Kléber en Egypte -1798 -1800

Kléber commandant en chef - 1799- 1800

Volumes III et I–IFAO - 1995–Le Caire

الجزءان الثالث والرابع.

١٢ – فى مقدمة الجزء الثالث من كتاب «كليبر فى مصر» (ص٢) نجد شرحا يصف هذه العملة المسماة هنا «باتاك» «Pataque»، منقولا عن كتاب «وصف مصر» فى جزئه الخاص بالعملات المستعملة فى مصر فى ذلك العصر: كانت تعادل «الثالير» أو «التالر أو «الطالر» كما نقرأ فى «تاريخ النقود الإسلامية» (تأليف العلامة السيد موسى الحسينى المازندرانى الطبعة الثالثة – دار العلوم – بيروت – ١٩٨٨)، وهى «نقد

ألمانى الأصل من الفضة» ، ولم نجد ما يقارب أو يشابه كلمة «pataque» . اللهم إلا إذا كانت هذه الكلمة تحريفا فرنسيا لكلمة «بندقى» ، وهى العملة الذهبية التى كثيرا ما كان الجبرتى يستعمل اسمها والله أعلم.

هوامش الفصل الثانى

١٣ - Edward William Lane: Manners and Customs of Modern Egyptians Livres de France. The Hague and London- Cairo, Egypt. 1989

١٤ - Clot Bey : Aperçu général sur l'Egypte F. Masson, 1840, 2 volumes

«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر» .

دار الموقف العربي، ١٩٨١، ٢ أجزاء - انظر ملحق ٥.

١٥ - Gérard de Nerval: Oeuvres Complétes: le Voyage en Orient, Gallimard 1984 , 2 volumes.

١٦ - Gustave Flaubert: Lettres d'Orient, Bordeaux - L'horizon chimérique, 1990

«جوستاف فلوبير»: «خطابات من الشرق»، ص ٦٩.

١٧- «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين».

وهو على هامش كتاب «لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن عبد المغنى بن على الإسحاقى المنوفى نفعنا الله به آمين

ص ص ٢٤٥-٢٤٧ نشكر السيد المستشار الدكتور وليم سليمان الذى أرشدنا الى تلك الصفحات .

١٨- رفاعة رافع الطهطاوى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢ ص ٦٣ انظر ملحق ٦.

١٩- يمكن الرجوع الى أكثر الكتب تفصيلا عن الشيخ حسن العطار، وهو كتاب «بيتر جران»الأمريكى، السابق ذكره .

٢٠- لم تكن ذاكرة المصريين قاصرة حتى يشرح هذا التجاهل للحملة . فالجبرتى تحدث عن ذكرى الصليبيين؛ ونقولا ترك الذى كتب فى الحقبة نفسها، وعلى الرغم من تعاطفة الشديد مع الفرنسيين وانبهاره بقدرتهم القتالية، يقول: «وأهل مصر لم يقبلوا هذا الجنس (الفرنسى) بالكلية لأنه أولا ضد ديانتهم، ثانياً ضد لغتهم، ثالثاً ضد كسمهم، رابعاً وجود عداوة قديمة بين أهل مصر والفرنساوية من عهد السلطان بيبرس والسلطان لويس الفرنساوى حين وصل الى المنصورة، وهنالك عساكره انكسرت، وعساكر الاسلام انتصرت ،...، فجال فى خاطر أهل هذه المدينة ان يقوموا على العسكر الفرنساوية ويقتلوهم فكان الأمـر ...» (ص٢٤).

فذكرى الحروب الصليبية كانت لاتزال حية . ولنقولا ترك كلمة بليغة فى رغبة الفرنسيين كسب ود أهل البلد وسبب فشلهم فى ذلك : «فما أمكنهم إلا المساواة والمواساة، وكانوا «يقدموا» لأهل البلد كل محبة لكى «يجلبوهم» على محبتهم ولكن هذا شئ ضد الطبيعة...» (ص٣٠) : شئ

«طبيعى» فهمه نقولا ترك ولم يفهمه الفرنسيون الذين كانوا هم أيضا يكرهون كل من هاجم وطنهم واستباحه .

مذكرات نقولا ترك - مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٥٠.

٢١- دار الجيل - بيروت، ثلاثة. أنظر ملحق٢.

٢٢- فمثلا استبعدنا كلية مذكرات كثيرة، على أهميتها، لأن عبد الرحمن الرافعي كان قد استعملها باستفاضة فى الجزء الأول من كتابه الرائع عن «مصر المجاهدة فى العصر الحديث» - دار الهلال -١٩٨٩.

هوامش الفصل الثالث

«المؤرخون الجدد»

٢٣- «فوريه» و«ريشيه»: «الثورة الفرنسية» . ص٢٨٧.

٢٤- François Furet : La Révolution, 2vol. Hach - ette- Pluriel, 1988.

«فرانسوا فوريه» : «الثورة». الجزء الأول: ص ٣٥١ .

٢٥ - Roger Dufraisse : Napoléon, "que sais je" Presses unversitaires de France, 1987.

٢٦ - "Napoleone Buanaporte"

«نابليونى بيونابرتى» وليس «نابليون بونابرت» كما أسمى نفسه بعد ذلك، عندما فرنس اسمه الإيطالى عام ١٧٩٥. مما جعل «شاتوبريان» مصرا على تسميته بهذا الاسم الإيطالى، ليؤكد عدم شرعيته لحكم فرنسا، كما أسلفناه .

٢٧- Joél Brégeon : L'Egypte Francaise, au jour le jour 1798-1801 Perrin, 1991

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية ١٧٩٨ - ١٨٠١» .

٢٨ - Journal du capitaine François dit le Droma daire Egypte, Tallandier 1823.

«يوميات الكابتن فرانسوا الشهير بجمل مصر»

وقد استعان بهذه اليوميات، من ضمن من استعان بها من كتاب المذكرات المعاصرين للحملة، وذلك منذ عام ١٩٢٩ ، عبدالرحمن الرافعي في جزءى مؤلفه عن «تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم في مصر»، دار المعارف، ١٩٨١.

٢٩-«لستوار»: L'histoire: Les mystéres de l'Egypte

عدد رقم ١٩٠ - يوليو - أغسطس ١٩٩٥.

"Bonaparte en Egypte", Patrice Bret

المقال ص ص ١٠٠ - ١٠٥.

٣٠ - نقلا عن مقال «مارك ميشيه» في «لستوار» عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ - ص ٢٥ كما أسلفنا.

٣١ - «هيرولد» مترجما ص ص ٥٣٠ - ٥٣١.

٣٢ - «دينون» ص ٢١ وص ٢٣.

٣٣ - - Gilbert Delanoue : Moralistes et Politiciens musulmans dans l'Egypte du XIX siécle: 1798 - 1882

جزءان - IFAO, le Caire, 1982

الجزء الأول: ص ٢٢ وص ٧٦.

٣٤ - مقال «القومية المصرية» في كتاب:

L'Egypte d'aujourd' hui- Permanence et changements 1805 - 1976.
Editions du CNRS, 1977.

«مصر اليوم - الاستمرارية والمتغيرات، ١٨٠٥-١٩٧٦» ص ١٣١.

٣٥- ILn'y a pas de decadence ottomane

في «ليستوار» ، عدد ١٩٠ - يوليو أغسطس ١٩٩٠.

٣٦ -André Raymond, Le Caire,Fayard 1993

ص ١٩٧

٣٧ - ترجمتنا للنص الفرنسي.

«لورانس» : ص ٢٢٠.

والمترجم : ص ٣٩٦ .

هوامش الخاتمة

١ - - Raymond Aron : Dimensions de la Conscience historique.

ابعاد الوعى التاريخى» ، ص ٢٥٠.

٢ -- Hannah Arendt: La crise de la culture, folio- esais1972.

«أزمة الثقافة» ، ص ٣٣٥.

٣- مجلة «نيوزويك» الأمريكية ، Newsweek .

١٨ يناير ١٩٩٢ - ص ٤٦ .

٤ - باعتراف «فرانسوا بوت» ، جريدة «لى موند» ١٦ ديسمبر ١٩٩٥ .

٥ - ملخص دون اسم كاتبه - مجلة «لستوار» - عدد ١٨٨ مايو ١٩٩٥ - ص ٨٨ .

٦ - «لستوار» عدد ٩٤ - عام ١٩٨٦ - ص ٩ .

٧ - «چان - بيير ريبو» .

«لستوار» - عدد ٢٠٢ - سبتمبر ١٩٩٦ ص ٥٠ .

٨ - «روبير فرانك» .

«لستوار» عدد ٦٧ - ١٩٨٤ - ص ص ٦٢ - ٦٩ .

٩ - «فوريه» : «ورشة التاريخ» ص ٣٩ .

١٠ - Marc Ferro : Comment on raconte l'Histoire aux enfants a travers le monde entier- Payot 1981.

«مارك فيررو» : «كيف يحكى التاريخ للأطفال فى العالم كله» ص ص ١٣٠ - ١٤٠ .

١١ - «روبير فرانك» .

١٢ - «أندريه كاسبى» .

«لستوار» - عدد ١٨١ - أكتوبر ١٩٩٤ - ص ٨ .

١٣ - جريدة «لوموند».

٢٤ مارس ١٩٩٥ .

١٤ - يمهد هذا الكلام للكتاب وهو منشور على الغلاف سبق أن أشرنا فى بداية دراستنا هذه ، إلى الصعوبة التى لقيتها كاتبة هذه السطور ، فى التخلص مما درس لها فى المدرسة الفرنسية ، من أن الحملة على مصر كانت حملة ثقافية أكثر منها حملة حربية ، وأن مصر محمد على ليست إلا نتيجة حتمية لوجود الجند الفرنسيين مع بونابرت . انظر ملحق ١ .

١٥ - يعجب الأستاذ «روبير مانتران» ، فى دراسة عن «الجديد فى التنوير» ، كيف أهمل المتخصصون دراسة التواكب الزمنى للتجديد والإصلاحات فى كل من مصر وتركيا ، التى وصلت إلى حد التنافس بينهما ، ولا نعجب طبعا لهذا التجاهل من قبل الدارسين الغربيين ، بعد

ما قرأناه من كتابات المتخصصين ، فهذا التنافس يعنى أن مصر لم تكن بحاجة إلى حملة بونابرت لتدخل الإصلاحات على نظامها ، مثلها فى ذلك مثل تركيا وهو ما لابد للمؤرخين المغرضين تجاهله طبعا ، دراسة «مانتران» منشورة فى كتاب «المرآة المصرية» ، ص ١٨١ .

Robert Mantran: Le Miroir egyptien ; Marseille, Jeanne Laffitte,1984.

١٦- فيلم «غزاة الكنز المفقود» للمخرج «ستيفن سبيلبرج» ، يحكى البحث عما سرقه الفراعنة من كنز دينى يهودى من المعبد فى إسرائيل، كنز موجود فى مصر وتريده أيضا ألمانيا النازية . وبعد استمرار العرض لمدة ثلاثة أسابيع ، فى ديسمبر ١٩٨٢ ، أصدر مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية ، قرارا بوقف عرضه !!

١٧ - François Furet : L 'atelier de l' histoire ; Champs Flammarion,1982.

«ورشة التاريخ» : ص ١١٥.

١٨ - دراسة عنوانها «ميلاد التاريخ» منشورة مع مجموعة أخرى من الدراسات فى المرجع نفسه ص ٣٢٠ .

١٩ - جريدة «لوموند» ٩ مايو ١٩٩٧ Le Monde .

٢٠ - «فوريه» : «ورشة التاريخ» : ص ٣٨.

الملاحق

ملحق ١ : «تاريخ مصر الحديث»

للجزء الأول

ما الذى كانت المدارس الفرنسية بمصر ، تدرسه لتلاميذها قبل أن تغلقها حكومة الثورة ، بعد سنة ٥٦ ؟ لقد لقنتنا تلك المدارس – وكنت من تلميذاتها – اللغة الفرنسية وكأننا من الفرنسيين ، وكنا نحصل على الشهادات الفرنسية ، من «كفاءة» و «بكالوريا» مصدقة من السفارة الفرنسية ، بعد أن تجىء إلى مصر بعثة من الأساتذة الفرنسيين ليمتحنونا فى نهاية كل عام دراسى .

والكتاب الذى نقدمه الآن ، كان مقررا على ما يعادل ، الآن ، السنة الثانية الثانوية وكانت سنة مهمة جدا ، إذ كانت الجزء الأول مما يعادل «الثانوية العامة» .

وقد قرر هذا الكتاب – المطبوع سنة ١٩٤٨ – لتدريس حقبة «الثورة والإمبراطورية» والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، لمؤلفيه «ماليه» و «إيزاك» .

ويعد هذ الكتاب من أهم ما درس فى المدارس الفرنسية ، ويرد ذكره كثيرا عند كبار المؤرخين لكونه من تأليف «ماليه وإيزاك» اللذين

كونا الوعى القومى لأجيال من التلاميذ الفرنسيين ، ويكفى ذكر اسم مؤلفيه ، ليعرف القارئ من فوره ما يعنيه ذكرهما. والمؤلفان من المدرسة «الجمهورية المتحدة ، » التابعة للحكومة العلمانية ، وهى من مروجي أفكار ثورة ١٧٨٩ ، التى عاشت فى حرب دءوب مع تعاليم المدارس الخاصة ، التابعة للكنيسة .

أيا كان ، فالمؤلفان لا ينتميان إلى هؤلاء المعجبين بنابليون ، ولا يريان فيه المنقذ الذى حافظ على مبادئ ثورة ١٧٨٩ ، أو أنه كان امتدادا لها.

ولذا ، فلا غضاضة عندهما أن يقولا ببساطة شديدة إن الحملة قد انتهت بالفشل .

وفي الجزء الخاص بتاريخ بونابرت تؤكد ثلاث صفحات تخص الحملة على مصر - أهمية مصر بالنسبة لبونابرت ، الذى عاش عمره يحلم بالسيطرة عليها . وهى لا تتحدث عن مصر ، إلا بسبب وجود بونابرت فيها ، وأهمية هذا الجنرال فى تاريخ فرنسا . ولذا ، لن يعرف التلميذ الفرنسي ما الذى حدث للجيش الذى تركه قائده وهو في «موقف بلا منفذ». ولا تتحدث هذه الصفحات الثلاث ، إلا عن المعارك مع الأتراك والانجليز ، ولا تذكر المصريين ولو بكلمة ، وكأنه لا وجود لهم ، وكأن مصر بلد بلا سكان .

وكان هذا الكتاب ، المطبوع سنة ١٩٤٨ ، لونه أخضر ، وعلى غلافه هلال أحمر مكتوب بداخله : «طبعة خاصة بمصر». سبب ذلك أن جزءا خاصا قد أضيف فى نهاية الكتاب ، عن «تاريخ مصر» يتحدث عن

«محمد على وبدايـات مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩» بقلم «شارل بوتاس ، أستاذ بجامعة باريس» . ✽

ما يهمنا هنا ، طبعا هو ما يخص الحملة ، وكيف كان تاريخها يلقن للتلاميذ المصريين فى تلك المدارس ، التى كان يذهب إليها - أيام الملكية - أولاد علية القوم أو من يتشبه بهم، الذين يتخرجون فيها وهم لا يتحدثون حتى العربية ، وإن فعلوا ، فيكون لما بذله الآباء من مجهود ذاتى بعيدا عن المدرسة . وقد شكلت الفتيات الغالبية الساحقة من تلاميذ تلك المدارس الفرنسية - من مدارس علمانية ومدارس رهبان أو راهبات - وهن الفتيات اللاتى يصبحن بعد ذلك أمهات ، يلقن أولادهن ما تعلمنه فى شبابهن ولم يقرأن غيره من كتب علمية .

والحق إن المصريين قد أثبتوا أنهم تلاميذ نجباء ، لا ينسون الدرس، ويعيدونه بعد ذلك بأحسن ما ينتظره المدرس . والمثل أمامنا واضح إذا ما تعمقنا مثلا فى قصص المنفلوطى، المترجم منها، والآخر فهى كلها مستوحاة من القصص المدرسية فى الفصول الثانوية للمدارس الفرنسية، والتى كان يقصها على الشيخ الأزهرى أصدقاؤه من تلاميذ المدارس الفرنسية القدامى وهذا أحسن دليل على أن تعاليم هذه المدارس لا تنسى ، حتى إذا ما كبر التلميذ وأصبح رجلا ناضجا . فهو لا يقرأ ما ينشر من كتب أجنبية حديثة ، وإنما يعيش يجتر ما تعلمه فى شبابه .

ونعود إلى كتابنا ، الذى يحكى تاريخ مصر منذ عهد محمد على، لكنه ، ويا للعجب ، يبدأ بعام ١٧٩٨ ، وبالحملة على مصر، أى قبل حتى

أن يطأ محمد على بقدمه أرض مصر ؛ وذلك على الرغم من أن تأريخ بداية «مصر الحديثة» يبدأ بمحمد على وكان سبب ذلك معروفا لدينا ونحن تلاميذ ، إذ كان معروفا أن محمد على هو الجد الأكبر للملك فاروق ، الحاكم على مصر آنذاك ؛ فلم يكن من اللياقة - أو الدبلوماسية بلغة الكبار البالغين - أن يقول الفرنسيون علانية وعلى غلاف الكتاب إن دوره كان ثانويا فى تحديث مصر، وإن كان قد قيل ذلك صراحة فى داخله ، وقد تكون آخر فقرة تتحدث عن الحملة ، ملخصا شديد البلاغة لفلسفة الكتاب ؛ إذ تقول الخاتمة إن الفوضى عمت مصر بعد رحيل الفرنسيين «ولكن سكان القاهرة تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى ، فحفزهم ذلك على التحرك ، وأعطاهم قوة المبادرة ، فوجدوا فى شخص محمد على ، القائد الجديد للألبان ، الأداة ، المنشودة ...» (ص ٥٦) .

وهكذا فإن الشعب المصرى ومحمد على كليهما ، مدين للاحتلال الفرنسى ، بما أنجز بعد ذلك ، وتؤكد المدرسة المركسية هذا الكلام فى تحليلها للحدث ، (دون الرجوع إلى «سنوات الأمان» المضحكة) متناسية تماما ، مثلها فى ذلك مثل المؤرخ الفرنسى ، تاريخ مصر السابق على الحملة والذى يدل على أن مصر لم تكن فى حاجة إلى من «يحركها» وخير دليل على ذلك سرعة مقاومة الغازى الفرنسى قبل حتى أن يتحرك المماليك أنفسهم لصد الهجوم المقبل على القاهرة، ناهيك عما كان يحدث من قبل .

ولكن ، كيف وصلنا إلى هذه النتيجة ، التى يؤكدها بثقة شديدة الكتاب المدرسى الفرنسى ؟

★★★

يقدم الكتاب - بادىء ذى بدء - الموضوع بإيجاز شديد قبل الإفاضة فى التفاصيل (على طريقة كتب التاريخ المدرسية الفرنسية)، ويبدأ أول ما يبدأ بقوله إن: «الحملة الفرنسية ، على قصر مدتها (١٧٩٨ - ١٨٠١) أساس التحول المصرى ، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على». وهكذا ، فقد وضعت اللبنة الأولى ، لما يجب أن يلقن للمصريين ، فلولا الحملة ، ما عرف محمد على ما الذى يستطيع أن يفعله لتحديث مصر ، فتكون حتمية هذه الخاتمة : لولا الاحتلال ، ما تحرك شعب القاهرة لوضع محمد على فى مركز السلطة التى سمحت له، بعد ذلك ـ وبفضل النموذج الفرنسى ـ بتحويل مصر إلى دولة حديثة، وما كان ينبغى ، وهو جد الملك الحاكم ، أن يقال إن فرنسا بنفسها هى التى أتمت هذا التحول ، حتى إن كان يقال ذلك بين السطور تارة ، وبشكل صريح تارة أخرى .

ثم ندخل فى التفاصيل . ويتحدث الجزء الأول عن :

«الحملة الفرنسية» : «هدفها» :

«نزل الجيش الفرنسى على أرض مصر فى أول يوليو سنة ١٧٩٨ ....» وتركها فى سبتمبر من سنة ١٨٠١ . لم يدم الاحتلال الفرنسى إذن إلا ثلاث سنوات وبعض الأشهر ، ومع ذلك ، فقد كان هذا الاحتلال بداية تحول كامل ، بدل مقاطعة تركية تسودها الفوضى ، إلى دولة قومية حديثة» .

«وسبب هذا التأثير أن الحملة فى هدفها ، لم تكن مجرد عملية حربية. فقد كان «لحكومة الإدارة» كثير من التقارير والشهادات المرئية، التي جعلتها تقرر بناء مركز استعماري خصب ، يعيد إلى الزراعة والصناعة ازدهارهما ، ويعيد للتجارة الطريق القديم فى السويس ، ويثرى العلاقات مع إيران ، والجزيرة العربية والهند ، حتى يمكن اكتشاف إفريقيا ، فينتشر إشعاع مصر على الشرق بأكمله ، وقد أعيدت مصر إلى قوتها السابقة بعد أن أصبحت مرتبطة بفرنسا» . (نلاحظ طبعا غياب أى إشارة إلى العداء مع إنجلترا وكيفية ضرب طريق الهند ، وفقدان فرنسا كل مستعمراتها الأخرى قبل ذلك . وكأن الهدف الوحيد من الحملة هو تحويل مصر إلى منارة فى الشرق). ونعود إلى ترجمتنا للنص الفرنسي: «من أجل هذا الهدف انضمت إلى الجند ، وتحت قيادة الضابط المهندس «كافاريللي» ، فرقة مكونة من ١٦٧ عالما، ومهندسا، واقتصاديا، وكاتبا ، وفنانا ، بعضهم من المشاهير مثل «مونج» و «برتوليه»، وبعضهم صغار السن جدا مثل «جومار» وهو مهندس فى الحادية والعشرين من عمره ، أو «آميديه جوبير» ، وهو مترجم فى العشرين من عمره ، ومعهم مكتبة مراجع بها ٥٥٠ كتابا ، وأدوات علمية من كل نوع ، ومطبعتان ، إحداهما فرنسية والأخرى عربية ، كان كل هذا الرتل ، من الضباط والمدنيين ، متحمسا وعطاء، تحركه الرغبة فى معرفة موسوعية عالمية ، وإيمان لا يقهر فى قوة «التنوير» تستهويه المغامرة ، وكله وفاء لهذه الحرب الصليبية من أجل الحضارة» .

أول ما يلفت النظر طبعا فى هذا الكلام ، أن الحملة ، فى أول صورة لها ، بل وفي تقديمها الوحيد ، تبدو كأنها بعثة استكشاف لا غــير ، فالجند لا يذكرون إلا بكلمة واحدة ، ولا يذكر حتى عددهم ؛ وللعلم، كانوا حوالى خمسة وثلاثين ألف جندى وبحار مقابل مائة وسبعة وستين عالما . لا يذكر عدد الجند ، بل حتى إننا لا ندرك وجودهم ، فسرعان ما يمكن نسيان كلمة «جند» الوحيدة ، مقابل عشرة أسطر ، تقدم بإفاضة بالغة ، فرقة العلماء ومميزاتهم المحببة إلى النفس ، من شباب وإيمان وعطاء سخي للآخرين ، ولا يفوتنا طبعا ملاحظة استعمال كلمة «حرب صليبية من أجل الحضارة» وهى تدل قبل كل شىء على الإيمان الأعمى، إن لم يكن التعصب من أجل شىء يعادل الايمان الديني والغريب أن هذا الإيمان الذى ، طالما حاربته فلسفة التنوير، يحل محله هنا إيمان من نوع آخر ، هو الإيمان، «بالحضارة» وها نحن نراها تحل محل الديانة المسيحية فى «حرب صليبية» أخرى، وذلك باعترافهم هم أنفسهم ، وما أدل استعمال المفردات بما فى باطن الأمور من حقيقة مخفاة .

ثم ننتقل إلى الجزء التالى وهو عن :

«سياسة بونابرت» :

«ومنذ البداية ، عبر بونابرت فى بياناته إلى أهالى الإسكندرية والقاهرة ، عن السياسة التى ظل وفيا لها على الرغم من الظروف: تحرير الأهالى من الاستغلال الطاغي للمماليك وأعوانهم ؛ تقديس العادات والديانة الإسلامية ؛ تثبيت النظام والعدل . وقد فرض نظاما

صارما على الجند لاحترام المساجد والطقوس القرآنية والممتلكات والنساء ، وكانت طريقته المستمرة هى الاستعانة بالمشايخ والعلماء . لقد اختار أميرا للحج ، وهو رئيس الحجاج ، وضمن سلامة قوافل مكة، واحتفل بكل مناسبات الإسلام . وسرعان ما خلقت السماحة المتبادلة والروح المرحة بين السكان والمحتلين ، نظام حياة مقبول لدى الجميع.

وقد قسمت مصر السفلى والعليا إلى ١٦ إقليما ، على رأس كل منها جنرال حاكم يعاونه ديوان من سبعة أعيان ، وأمين صندوق من الأهالى مسئول عن جباية الضريبة ، ومعه مفوض فرنسى . وفى القاهرة ، كان الديوان مكونا من تسعة مشايخ يجتمعون كل يوم، ومجلس من ١٨٠ نائبا من كل الأقاليم - ثلاثة رجال قانون، وثلاثة تجار، وشيخ بلد ، وفلاح . وقائد من البدو ، لكل إقليم - كانوا يبدون للقائد الأعلى نصائح الحكماء ويعبرون عن شكاوى الشعب ، أما سكرتير هذه المجالس، فكان الشيخ الكهل «محمد المدهى» (المهدى) ، وكان ذكاؤه وكفاءته مساعدين للتعاون المصرى الفرنسى، كما شجع فيما بعد على صعود محمد على . أما فى القرى الصغيرة ، فكان ضابط فرنسى يراقب شيخ البلد والقضاة، دون يجردهم من سلطاتهم. وبالنسبة للمالية، فقد حوفظ على نظام ضرائب العقارات القديم ، بعد تنظيم جبايتها؛ وحوفظ أيضا على العمالة القبطية ، وعلى رأسها موظفون فرنسيون؛ كما كان هناك بعض الضرائب على التسجيل أو نقل الملكية ، وبعد ذلك بعض الضرائب الطارئة على مجموعة أو أخرى من الأغنياء .

وحتى فى الجيش الذى لم يكن يستطيع الاستزادة بإمدادات تأتى إليه من فرنسا ، فقد أدخلت عناصر من الأهالى : كان هناك شباب المماليك والفرقة القبطية ، والفرقة اليونانية، وفرق من المشاة تركب الجمال، من أهل الصعيد ومن السود . كأنها تجربة مبكرة لنظام الحماية التى طبقتها فرنسا بعد ذلك على بعض المستعمرات الأخرى فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد امتد الاحتلال إلى مصر العليا الذى استولى عليها «ديسى» بعد حرب دامت ستة أشهر، ثم نظمها «ديسى» بطريقة جعلته يستحق لقب «السلطان العادل» كما أسماه الأهالى. لقد امتد الاحتلال إلى ما بعد أسوان بقليل ، ووصل إلى البحر الأحمر عند ميناء القصير» .

هذه إذن سياسة بونابرت التى أعلنها وظل وفيا لها على الرغم من الظروف ، كما يقول الكتاب . ما أجملها – وكم نفهم مؤيدى الحملة عندما يدرس لهم هذا الكلام ، وما جاء بعده من نيات طيبة ، وحسن المعاشرة. ولكن المشكلة طبعا هى أن طريق الجحيم محفوف بالنيات الطيبة، ولا ينطبق هذا الكلام فقط على ما أسموه هنا «بسياسة بونابرت». ويعجب دارس تاريخ الحملة لمثل هذه التهويمات – بطبيعة الحال – فهو الذى يعرف التطبيق الفعلى «لسياسة بونابرت»، والتفاصيل التى لازمت ذلك العصر. ويعجب القارىء أيضا لكاتب هذه السطور: هل كان يجهل ما كتب عما حدث بالفعل فى مصر ؟ بل وكيف يشوه التاريخ لدرجة أنه يتحدث عن «الحياة المشتركة» بهذه الألفاظ المغالطة مثل «السماحة المتبادلة والروح المرحة» ، فى علاقات عرفنا أنها كانت دائما

علاقات حرب وكراهية ؟ وكيف تناسى مثلا ثورتى القاهرة ، إن كان يجهل ما حدث فى الأقاليم ؟ ولكننا سنرى كيف يتحدث عنهما بعد ذلك، وكأنهما حدثان عارضان لا أهمية لهما ولا دلالة، بعد أن أكد لنا قبل ذلك أن «الروح المرحة» كانت هى السمة الأساسية فى العلاقة بين الغازى والمهزوم . ثم تجىء «حكاية الديوان» تلك الأسطورة الكاذبة التى صدقها المصريون قبل أن يصدقها الفرنسيون ، وكأن بونابرت ؟إن لا يرى فى أى مجلس نيابى، غير أداة للاستماع إلى أوامره ، ثم تطبيقها ، سواء كان ذلك فى مصر أو فرنسا. ولكن المديح فى الشيخ المهدى ، الذى أسموه «المدهى»، يدل على الفور أن المرجع فى هذا الكلام ، هو ما عبر عنه نابليون نفسه من أحلام يقظة عندما كان فى منفاه ، «سانت هيلانة» فى نهاية حياته: أثبت بكلامه آنذاك أنه ، وبعد مرور خمس عشرة سنة صاخبة، من الحروب والانتصارات والهزائم ، لم يعد يرى إلا ما كان مفروضا أن يحدث، حتى يترك للجمهور الفرنسى صورة محسنة من حكمه الدكتاتورى المدمر المستبد، ويبدو كذلك وجود الضباط الفرنسيين فى نصنا المدرسى كمراقبين على رأس كل نشاط مدنى ، أمرا هينا وطبيعيا بل ومستحبا للجميع .

كذلك فإننا نعجب – وما أكثر العجائب - للحياء الشديد الذى يتحدث به المؤلف عن جباية الضرائب خاصة من «بعض الأغنياء» ونرى ، فى هذا النص أيضا ، تأكيداً لأسطورة «ديسى ، السلطان العادل» ، الذى لم نسمع عن عدله قط ، إلا فى النصوص الفرنسية ، والذى لم يتحكم بالفعل يوماً فى مصر العليا ، مما يشرح المفاوضات التى قامت بها بعد

ذلك السلطات الفرنسية مع مراد بك ، الذى لم يهزم ، ولم يطرد يوما من الصعيد .

أما الجزء الخاص «بالإنجازات الاقتصادية» الذى نقرؤه بعد ذلك ، فهو يحكى عن الاحتياجات الفرنسية ، وقد أجبرها الحصار الإنجليزى على البحث بكل الوسائل عن الاكتفاء الذاتى ولن نقف إلا عند جملة واحدة فى أول الأمر : «... وكانت الحراسة الجيدة تضمن أمان الفلاحين مما ساعد على إنجاز عملهم ، هم والصناع» : لن نعلق على هذا الكلام، ويكفينا ما نقرؤه عن العلاقة «الآمنة» بين الفلاحين و «الحراسة الجيدة» ولكن مما لا شك فيه أن الكتاب على صواب عندما يذكر جهل المصريين «بطواحين الهواء التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر» ، وقد تكون هذه المعلومة هى المعلومة الصحيحة الوحيدة فى كل ما سرده «أستاذ جامعة باريس» فى مؤلفه هذا .

ومن يعرف تاريخ الحملة بالتفصيل ، يعجب إذ يقرأ : «وكان لابد من إنتاج كل ما يحتاجه الجيش والشعب من أدوات مصنعة ...» : جاءت الجملة غامضة مبتورة ؛ فنحن نتخيل ما كان يحتاجه الجيش بعد الحصار الإنجليزى، ولكن ... الشعب ؟! فلا تفاصيل توضح الجملة، ولا أسماء تشير إلى نوعية هذه «الأدوات المصنعة»، وكان من أهمها ملابس للجند ، وبارود لمدافعهم ، ناهيك عن النبيذ الذى لا يستطيع الفرنسى أن يعيش بدونه . والحقيقة أن الفرنسيين عاشوا - كما تقول الوثائق - بما كان المصريون يصنعونه لأنفسهم ، فاستعانوا بهم وبإنتاجهم، وإن كانوا قد طوروا بعضه ليلائمهم ؛ وانتهى هذا التطوير مع رحيلهم، لأن الشعب

المصرى كانت له احتياجات أخرى . ولكن، كان لابد من الإيحاء بأن المصريين عرفوا بفضل المهارة الفرنسية، ما كانوا يجهلونه قبل مجيئهم، فكانت الجملة التالية : « وخلق كونتيه ، ... ، عشرات الورش فى القاهرة، وملحقات لها فى بولاق والجيزة، وفى جزيرة الروضة ...» ؛ ومن يعرف تفاصيل إنتاج هذه الورش ، يعرف أنها كانت كلها مخصصة للاستهلاك الحربى الفرنسى . وكانت الظروف تحتم عليهم ذلك ، وعرفوا كيف يتصرفون ، ولكن لماذا الادعاء بأن ذلك كان ايضا لسد احتياجات «الشعب» ؟.

ثم يتحدث الكتاب بعد ذلك عن «الإنجاز الثقافى» ويقول بادىء ذى بدء :

«إن أكثر الإنجازات ابتكارا وخصوبة ، كان فى مجال الثقافة وكان العمل كله يدار فى «معهد مصر» ، الذى أنشىء فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد قسم إلى أفرع للرياضيات ، والفيزياء ، والاقتصاد السياسى ، والفنون والآداب ، وله سكرتير دائم هو جوزيف فورييه : كانت الاجتماعات تعقد فى قصرين فخمين من قصور البكوات الفارين ، وكانت له ندوات قراءة ، ومناقشات تستمر فى الحدائق ، كان بونابرت يشترك فيها ، وكان المثقفون المصريون يستقبلون بسرور، (ثم تأتى هنا ترجمة لما قال الجبرتى فى هذا الصدد)، ولكن عندما عرض على الشيوخ بعض تجارب الفيزياء والكيمياء ، لم يبد هؤلاء أى نوع من الاهتمام ، مما عجب الفرنسيون له» : أما هذا النشاط الثقافى ، فلم نر منه إلا نشاطا فرنسيا بحتا ، عرض بعضا من تجاربه على المصريين، وكان هذا العرض من اختصاص لجنة وظيفتها استقبال المصريين،

والقيام بدور المرشد لهم ، كما يحدث للجمهور عادة فى فرنسا. ولم يشترك المصريون طبعا فى أية مناقشة كما يوحى الكلام بذلك، وكيف كان لهؤلاء أن يشتركوا فى مناقشات لا يفهمون لغتها من جهة، وتتحدث عن علوم لا دراية لهم بها من جهة أخرى ؟ وقصة ما قام به العلماء الفرنسيون من تجارب كيميائية أمام الشيوخ ، قصة غاية فى الطرافة ، لم تحك هنا طبعا ، وهى أن العلماء الفرنسيين جعلوا ـ ذات مرة ـ المواد تتنافر، فأحدثت دويا هائلا ؛ غير أن أحدا من الشيوخ لم يتحرك، أو يهتز، وكأنهم فهموا أن الهدف هو إخافتهم وعندما رأى بونابرت الذى كان حاضرا ، أن الشيوخ لم يعجبوا حتى لما رأوه وسمعوه من دوى، مما يدل على أنهم ليسوا مثل الهنود الحمر ، ثار بونابرت ثورة عظيمة لعدم مبالاة العلماء الفقهاء ، بما كان مفروضا أن يرعبهم ، أو على الأقل، يبهرهم . وهذه القصة – أو بالأصح ثورة بونابرت – أحسن دليل على أن عرض ما كان لدى الفرنسيين من أدوات، أو استعراض بعض تجاربهم الباهرة، لم يكن هدفها تعليم أو «تنوير» المصريين، بقدر ما كان وسيلة للسيطرة على عقولهم، بأن يثبتوا لهم أنهم جهلاء ؛ وبالتالى، فالسلطة لابد أن تكون مع العلماء الأجانب، ولو أن الهدف كان التعليم، لأقاموا مدرسة لشباب المصريين، كما أقاموا فرقة من الأقباط فى الجيش الفرنسى . ونعود إلى ما يقوله الكتاب المخصص لتلاميذ مصر بالذات :

«وكانت هناك لجنة العلوم والفنون ، التى أخذت فى دراسة متحمسة للبلد فى كل مظاهره من حياة سابقة أو حاضرة . كان أعضاؤها

يذهبون فى مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثة من العلماء ، وأحيانا فرادى ، وعلى الرغم من الحرارة الشديدة والمخاطر العديدة ، إلا أنهم انتشروا فى مصر كلها، يسجلون ويكتبون كل الخصوصيات العلمية والجغرافية والعرقية والأثرية التى يقابلونها . كانت مصر القديمة تبهر كل الرجال من علماء وغيرهم ..

وفى رشيد، فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٩ ، اكتشف المواطن بوشار، حجرا عليه حفر بثلاث لغات، سمحت فيما بعد لشامبليون أن يفك رموز اللغة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ . وكانت هناك مطبعتان إحداهما خاصة والأخرى قومية (هكذا) ، تحت إدارة ج.ج. مارسيل، كانتا تنشران الدراسات والنتائج المصورة ، وجريدة لى كورييه ديجبت ومجلة لا ديكاد إيجيبسيان » .

لم يقولوا طبعا إن كل هذا الإنتاج كان باللغة الفرنسية، و لا أنهم أخذوا معهم المطبعتين عند رحيلهم، مما جعل كثيرا من المصريين يظن أن مطابع محمد على، بعد ذلك، كانت امتدادا للمطابع الفرنسية.

ولكن الكتاب أخذ يقص علينا حزن الفرنسيين عندما أراد الإنجليز أن يستولوا ، بعد انتصارهم ، على كل إنتاجهم العلمى . فكانت هذه الفقرة التى أظنها قد تسببت فيما بعد ، فى بناء أسطورة كتاب «وصف مصر» :

«وقد كتب جيوفرا سنت – هيلار إلى كوفييه فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٩٩ قائلا : «آه يا صديقى ! لقد جمعنا وثائق أجمل كتاب يمكن أن تنتجه أمة . وعندما سنبكى على المصير المجهول لكل هؤلاء المحاربين الشجعان ، الذين سقطوا فى مصر بعد كل هذه

المعارك المجيدة ، سيكون عزاؤنا الوحيد في وجود مثل هذا العمل الثمين» . وهذا الكتاب هو كتاب وصف مصر العملاق ، الذى نشر تحت رئاسة جومار ، فى تسعة أجزاء ، بها تسعمائة لوحة وأربعة آلاف رسم، ظهرت على خمس مراحل ، من عام ١٨٠٨ إلى عام ١٨٢٥ » .

وهكذا ، جاءت هذه الجملة ، لأحد العلماء ، تمجيدا لعمله هو وزملائه إلى أقصى درجة ، حتى أنه يرى أن عملهم هذا يعوض وفاة الآلاف من الضحايا .

وننتقل بعد ذلك إلى الجزء الذى يقيم النتائج :

«النتائج» :

«مثل هذا النشاط الخلاق ، كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى» هكذا ! وكأن أهل مصر فى ذلك العصر ، كانوا شاهدين لهذا النشاط الذى يدور بين جدران المعهد ، أو على أوراق الباحثين . والحقيقة ، التى رأيناها فى صفحات «دينون» التى عرضت على القارىء تقول إن من شاهد هذا النشاط ، هم الفلاحون الذين يحاربون الفرنسيين أو يقاسون من ظلمهم . ونلاحظ بالمناسبة ، أن الكتاب لم يتحدث حتى الآن، عن ثورتى القاهرة – وقد تكونان من تأثير النشاط الفرنسى على خمول المصريين أيضا !– وكذلك لم يتحدث عن المقاومة المستميتة فى أعالى مصر وفى الدلتا ؛ فهو لم يذكر حتى الآن إلا الإنجازات العلمية والمدنية للعلماء ، وكأنهم حضروا وحدهم فى رحلة استكشاف علمى ، لا يحرسهم مثلا إلا قلة من الجند ، قلة لم نسمع عنها كلمة واحدة حتى الآن، غير أن أفرادها كانوا يعيشون فى وفاق تام و «روح مرحة» مع

الشعب المصرى ، الذى تقبلهم برحابة غريبة . ولكن هذا الصمت ما كان يمكن له أن يدوم ، فالحقائق أقوى من أى تعتيم . وإن كنا نبدى إعجابنا بالدقة فى اختيار الصياغة التى تغلف هذه الحقائق ، حتى يقتنع التلميذ أن الأمور كانت تسير وفق مبدأ «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» . وهكذا، سنرى كيف كان أجدادنا مخطئين فى رفضهم - المحدود جداً كما سنلاحظ - الاندماج مع هؤلاء الأغراب . ونعود إلى النص نفسه حتى لا تفوتنا كلمة واحدة منه:

«مثل هذا النشاط الخلاق كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى ..»

وتكون المفاجأة : إنه سيتحدث فعلا عن ثورتى القاهرة . إنهما فعلا نتيجة النشاط الفرنسي، وليس بسبب حب المصريين لحريتهم أو لرفضهم لأى استعمار أجنبى . والدارس لصياغة الحديث هنا ، يعجب لطريقة تقديم ما سيأتى من الحديث عن هاتين الثورتين . فالحديث يبدأ وكأن ما سيحدث خيرا، فهو تحريك الخمول بفضل النشاط العلمى للفرنسيين . ثم مرة أخرى ، الحياء الشديد فى اختيار المفردات ، التى تمهد لحدث يدل بشكل قاطع ، على أن كل ما سبق كاذب فى حقيقته . ولنر كيف تقدم الأحداث الرافضة للوجود الفرنسى فى أعنف صورها .

«بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل صدمت العادات والمعتقدات»

لاحظ الانتقاء الموفق للكلمات : «بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل ..» فالفرنسيون لا يمكنهم أن يخطئوا فى الجوهر ، وكم كانت قليلة تلك الأخطاء ؛ ولم تكن جسيمة ، بل حمقاء !

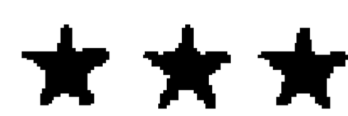
«بعض هذه الأخطاء ، مثل تحطيم الأبواب التى كانت تغلق الشوارع ليلا ، أو ارتداء الوشاح ذى الألوان الثلاثة (وشاح الثورة الفرنسية) الذى أجبر عليه الأعيان (ومن المؤكد أن هذا الحدث بالذات محض كذب وافتراء إذ رفض المشايخ بشدة ارتداءه مما أثار ثورة بونابرت، ولكنه أذعن لرفضهم، بعد ذلك) وقطع العلاقات مع السلطان الذى كذب السياسة المسلمة لبونابرت ، وجاءت بعض المصالح التى أضيرت، معاكسة لمحاولات الاندماج، مما ترتب عليه قيام ثورتين دمويتين فى القاهرة ، وإن كانتا محصورتين بصورة ضيقة جدا فى بعض الجماعات، (ونكرر هنا إعجابنا بالصياغة ، وانتقاء المفردات لتفريغ الحدث من مضمونه)؛ ثورتان قامت إحداهما فى اليوم الثانى لإعلان الحرب على تركيا، أى فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وقامت الأخرى عند تقدم الجيش التركى نحو العاصمة فى إبريل سنة ١٨٠٠ ، وقد أكدتا أن ثمة شعور عدوانى يظل قائما» .

وتبدو المفارقة هنا صارخة ، بعد الذى قرأناه عن الجو المرح الذى يسود العلاقات المصرية الفرنسية من جهة ، وأن الثورتين محصورتان فى حدود ضيقة جدا ، من جهة أخرى . أيا كان ، فقد حدثت «أخطاء حمقاء» مما يفسر التغير فى العلاقات «الودية المرحة» . ولكننا ، وبعد هذا الاعتراف لن نجد سطرا واحدا يبين كيف رد الجيش - الذى لم يذكر عدده حتى الآن - على هاتين الثورتين ؛ كما ساعدت الصياغة الماكرة على ربط الدولة العثمانية بالثورتين ، فبرىء الشعب المصرى

منهما ، وكأنه كان مغلوبا على أمره فيهما ، وقد تأكد ذلك بالفعل فيما يخص الثورة الثانية بالذات .

ونعود إلى النص المذكور: «أيا كان فثمة نوع من الروح الانهزامية زعزعت الجيش بعد رحيل بونابرت ، وذهب الأمر إلى حد التمرد فى حامية العريش فى ديسمبر ١٧٩٩ . استمر كليبر أولا ، دون حماس شديد ؛ ومن بعده مينو ، ولكن بإيمان قوى ، بمشروع «السلطان الكبير» (أى بونابرت كما كان المصريون المعجبون به يسمونه - على حد قول الفرنسيين) ، وقد حطمت اتفاقية التسليم فى ١٨٠١ هذا المشروع، ولكنه ترك آثارا لا تمحـى» : وفى الكتاب خط تحت هذه الكلمات الأخيرة .

«لقد أدمج مصر فى الفكر الفرنسى ؛ وجعل مصر على اتصال بالحضارة الغربية ، لقد جعل مصر تتعرف على هويتها؛ كما أنه لفت نظر رجل ذى ذكـاء لماح ، كان إذاك ضائعا فى صفوف الضباط الأتراك ، وهو محمد على » .



ننتقل بعد ذلك إلى تاريخ محمد على ، ونذكر مرة أخرى أنه كان جد الملك الحاكم آنذاك ، ولابد من احترامه بل وتمجيده .

وما كان ينبغى للكتاب الفرنسى طبعا أن يشذ عن هذه الروح ، لكنه أثبت قبل ذلك ، أنه لولا الجيش الفرنسى- وكأن الحملة بعثة استكشاف علمية بحتة - ولولا بونابرت ، ما جاء محمد على ، ولا عرف ماذا يفعل .

ولكن حملات محمد على العسكرية كانت ذات طابع خاص ، يختلف عن

الحملات الفرنسية ، فنحن نقرأ : «ومع الأسف أن هذه الحملات كانت تسير حسب المنهج التركي من عنف ، وقتل وحرائق وسلب ونهب» (ص ٦٥) . ويجدر بنا أن نقول هنا كلمة حق ، لا دفاعا عن الأتراك ، وقد قاسى المصريون الكثير من قسوتهم ، ولكن من أجل الحقيقة التاريخية الموضوعية ، ولولا الملامة ، لظن القارىء أن مؤلف هذا الكتاب المدرسى - المتجنى على «المنهج التركى» فى حملات ذلك العصر- لم يقرأ صفحة واحدة من تاريخ الجيوش الأوربية أنذاك ، بل عن تاريخ الجيوش الفرنسية نفسها .. وفى داخل فرنسا نفسها أيضا ، أثناء الحرب الأهلية ، المسماة بحرب «الفانديه»، وفى المقاطعات الرافضة للحكم المركزى .

ولو أننا استثنينا هذه السطور العنصرية ، وتجاهلنا ما فيها من غمز ولمز ضد كل ما هو شرقى كعادة أغلب الكتاب الغربيين عندما يتحدثون عن الشرق ، ورجعنا إلى قراءة تحاول جهدها أن تكون موضوعية ، لدهشنا لما نراه يبسط أمامنا .

المفاجأة ... المفاجأة الكاملة ، خاصة إذا ما رجعنا إلى ما انتهى إليه الجزء الخاص بالحملة ، وسبق تقديمه ، عن: «سكان القاهرة الذين تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى»، وأن: «الحملة الفرنسية، ... ، أساس التحول المصرى، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على» ، فالصفحات التى تتحدث عن محمد على وإنجازاته ، تبدو كأنها بقلم شخص آخر غير الذى خط السطور السابقة ، وعرض علينا تلك الأفكار. فما من كلمة تشير إلى الوجود

الفرنسي السابق ، وما تركه لمحمد على ، سواء كميراث أو كنموذج يحتذى به . على العكس تماما . وكأنه ، شأن كل من يتحدث عن آثار الحملة ، عندما ينتقل من الشعارات الإنشائية ، مثل: «أدماج مصر فى الفكر الفرنسى»، أو: «الآثار التى لا تمحى» أو: «النشاط الخلاق الذى يقلب الخمول المصرى» ، عندما ينتقل من هذه الشعارات كى يرينا تلك الآثار رأى العين ، والقلم فى يده والصفحة تنتظر البرهان ... لايجد شيئا ملموسا يتحدث عنه ، بعد تأكيده على أن الحملة قد تركت لمحمد على مثلا يحتذى به . وإذا به يناقض نفسه !

فجأة ، نجد نظرة موضوعية غير مألوفة فى أحكامها ، إذ نقرأ هذا المقطع الذى يبدو غريبا بعد ما قرأناه : «لم يكن (لمحمد على) خطة منظمة ، وكذلك لم يكن ينقل من الخارج : ولذا ، كان عمله ناجحا ، فقد كان ينبع من الواقع ، كما تحكمت فيه الظروف ، ولإنجازاته تشابه كبير مع ما فعله بونابرت ، والسبب هو أن المشاكل نفسها قد قابلته ، ولم يكن لتلك المشاكل إلا نفس الحلول» (ص٦٨) . وبعد هذا الاعتراف الخطير ، نقرأ فى الصفحة التالية : «وعلى الرغم من أنه كان مصلحا جسورا ، إلا أنه لم يمس القانون الأخلاقى أو الدينى ؛ فقد أبقى على القرآن كشرع اجتماعى وقانونى . ولم يجعل من المجتمع والدولة حكما علمانيا. وكان يحترم سلطة علماء الأزهر إلى أبعد حد ..» (ص٦٩). ويدحض هذا الاعتراف كل ما قيل عن تأثير الفكر الفرنسى على المصريين ، وهاهو أول دليل أمامنا ، فتشريعات بونابرت إذن ، ومينو على وجه الخصوص ، التى نسخت عن القانون الفرنسى ، لم تستمر

بعد رحيل جنود الحملة ، بل ولم يحاكها محمد على ، ولكن الأسطورة لا تموت بسهولة ، كما يقول المثل الفرنسى ، فعلى الرغم من ذلك كله ، نقرأ : «إن محمد علي لم يعد إلى المؤسسة الفرنسية بشأن المجالس النيابية» ؛ أى علي الرغم من أن تلك المجالس كانت، كما رأينا ، دائما تحت إمرة ضابط فرنسى ، أيا كان حجمها ، فالمؤلف يصر على أنها كانت مجالس نيابية تمثل الشعب المصرى ، وكان على محمد على أن يقلدها ! مع أن بقية الجملة تؤكد أن محمد على لم يختلف عن الفرنسيين ، أو عمن سبقهم من حكام المماليك، عندما كان – على حد قول المؤلف – «يجتمع عند الضرورة، وعند عرض المسائل المهمة ، بديوان المتخصصين أو الأعيان» (ص٧٠). وكما قرأنا فى كتب فرنسية كثيرة ، أن تشريعات مينو ، خاصة فى مجال القضاء ، قد غيرت وجه مصر ، إلا أن كاتبنا يعترف أن محمد علي: «احتفظ بالمحاكم التقليدية، وبرئيسها «القاضى» (أى قاضى القضاة) ، كما احتفظ الحرفيون بمشايخهم ..» .

ولكننا نلاحظ بعد ذلك – والأمر هين – أن هناك تركيزا كبيرا على أسماء كل من استأجرهم محمد علي من الفرنسيين، لخلق دولة حديـثة، مثل المهندس «لينان دى بلفون» أو «موجل» .

ونحـن نعرف طبعا ما قام به كلوت بك و«الكولونيل سيف» من خدمات ، وهما فى خدمة محمد علي ؛ كما يؤكد الكتاب أن محمد على أرسل مائة وأربعة عشر طالبا إلى فرنسا . ونحن نعرف أنه أرسل ، أول ما أرسل طلبته ، إلى إيطاليا ، إذ لم تكن فرنسا هى المتحكمة الوحيدة فى تصدير العلم إلى مصر . أيا كان فبعد أن شرحت سياسة محمد

على وإنجـازاته ، وما قامت به الحكومة الفرنسية من مساندة له ، تجىء خاتمة هذا الجزء من الكتاب ، على ما كنا نتـوقعه طبعا. وكل هذا الجزء الـذى نترجمه تحته خط فى الكتاب حتى يدرك التلميذ أهمية الكلام، إذ يؤكد : «أن إرادته القـوية أعادت، دون أدنى شك ، خلق مصر ؛ لقد فعل ما هو أفضل من إعـادة تشكيل الأجساد ، لقد أيقظ روحا» (ص٨٨) . «لقد ترك محمد على أسرة حاكمة ، وبرنامجا وتقاليد. لقد كان شرفا لفرنسا أنها فهمت ذلك ، ونصحته وساعدته» (ص٨٩) .

ونحن لسنا بصدد مناقشة هذا الكلام الأخير فى بحثنا هذا ، إنما جملة الكلام أن ما نقرؤه هنا منطقى بل منتظر فى مصر ١٩٤٨ ، عندما كان المجتمع الراقى لا يتحدث العربية ، وكانت الفرنسية هى لغة علية القوم ، وكان الاحتلال إنجليزيا ، وبالتالى ، كان الصديق الأجنبى هو فرنسا .

وعلى عادة كتب التاريخ هذه ، ففى نهاية كل فصل ، ببليوغرافيا لأهم الكتب التى عالجت الموضوع المطروح . ولن نعجب إذا وجدنا مذكرات «فيفان دينون» التى ترجمنا منها صفحات كثيرة ، نجدها لأهميتها ، تتبوء المركز الأول فى أسماء أهم المذكرات التى كتبها أفراد عاصروا الحملة، بل واشتركوا فيها . وندرك ، بداهة، بعد ما قرأناه عن «الروح المرحة» التى كانت تسود العلاقة بين المحتلين والشعب المصرى أن مؤلفنا فى قراءته لتلك المذكرات الشهيرة ، أسقط من حسابه كلية الصفحات التى تشرح لنا باستفاضة ، نوعية العلاقة الحقيقية التى كانت تربط بين الحاكم والمحكوم .

ومن بعد أن يدلنا هذا الكتاب على أهم الكتب التى تناولت الموضوع، فإنه ينشر بعض المقتطفات من كتب قد يهتم بها من أراد الاستزاده.

فبعد دراسته «لمحمد على وبداية مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩»، نجده يقدم لنا - مثلا - صفحة من كتاب «جيرار دى نرفال» الشهير، «رحلة إلى الشرق» تصف «عودة الحجاج إلى القاهرة»؛ ثم صفحتين عن «السان - سيمونيين»، سنعود إليهما؛ ثم نصف صفحة عن رأى أحد المسافرين الفرنسيين الذين قابلوا «محمد على وهو فى الثالثة والسبعين» من عمره؛ ثم «رأى أحد الإنجليز فى محمد على»، وهو تقرير من القنصل الإنجليزى فى ذلك العهد.

أما الصفحتان السابق ذكرهما فهما عن «السان - سيمونيين وبناء قناطر الدلتا» وهما مأخوذتان عن كتاب ظهر فى باريس سنة ١٩٣٠ بعنوان «السان - سيمونيون ١٨٢٧ - ١٨٣٧» لمؤلفه «هـ .ر.دالمانيي»؛ ويتحدث جزؤه الثانى عشر عن رحلتهم إلى مصر وأعمالهم فيها.

ونجد فيما تم اختياره ليقدم للتلاميذ، بعض الأسطر أظنها غاية فى الأهمية بالنسبة لنا فهى تقص علينا كيف اجتمع المهندسون الفرنسيون «السان سيمونيون» فى ليلة الخامس عشر من أغسطس ١٨٢٤، ليحتفلوا بعيد ميلاد نابليون.

والمعروف أنهم من أشد المعجبين به، بل كانوا يقدسونه، ونلاحظ طبعا أنهم يقدسون «نابليون» أى الإمبراطور، وليس «بونابرت الجنرال الجمهورى» الذى كان يحارب باسم مبادئ الثورة الفرنسية.

اجتمعوا إذن فى ذكرى ميلاده، ودعوا بعض المسئولين من الحكام وكان من بينهم «سليمان باشا» أى «الكولونيل الفرنسى سيف» سابقا، الذى كان من ضباط الجيش الإمبراطورى أثناء حكم نابليون، وقد سرحه الحكم الملكى فى فرنسا بعد ذلك طبعا، فبحث عن عمل له فى مصر.

ولنعد إلى النص الذى يقول: إن الفرقة جاءت لتحتفل بعيد ميلاد نابليون «فى القناطر حيث المكان الذى اختاره الرجل العظيم (يقصد نابليون) كمركز لمقادير مصر المستقبلية ...» (ص٩١). وفى الصفحة التالية أخذ يسرد ما قيل أثناء الاحتفال، وعدد زجاجات النبيذ التى شربت وأصنافها ويعلق الكاتب قائلا: «ان واحدا فقط من بين الأتراك قد سكر أما الباقون، فقد نالوا نصيبهم، وأثبتوا أنه يمكن التفاهم معهم». ثم نتعرف على أسماء من شربت بأسمائهم الأنخاب، وكان من بينهم السيدة مريم العذراء (عليها السلام)، فعيدها هى أيضا فى الخامس عشر من أغسطس «وفى وسط العشاء، قدم سليمان نخب نابليون وقدم فى النهاية أيضا نخب محمد على. مغزى كلمتى النخبين أن محمد على كان المنفذ لوصية نابليون لأن نابليون كان قد ترك بصمته على مصر بيده القوية، بينما استولى محمد على عليها ليحمى مصالحها التى كان نابليون قد أعدها ....». وينتقل الوصف بعد ذلك إلى الاحتفال بوضع حجر الاساس في مدرسة المهندسخانة ونرى مرة أخرى: «سليمان يطبع على البلاط حرف نون كبير، وبعد وضع

الحجر، ينقش على سطحه نون - ميم عين، أى نابليون - محمد على...» (ص٩٢) وهكذا نرى كيف كانت أسطورة محمد على المنفذ لتوجيهات بونابرت تنسج على يد سليمان باشا و «السان - سيمونيين»، الذين لم يعاصروا الحملة، وكان من أهم أهدافهم تمجيد اسم نابليون، الإمبراطور الاستعمارى، فيكون لوجودهم شرعية مستمدة من تاريخ مصر، وقد مر أكثر من ربع قرن على وجود بونابرت بمصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمحمد على ونحن نرى الآراء تتضارب وتتناقض، وكأن الحياء وحده هو الذى يمنع مؤلفه من الإفصاح عما يراه من فضل للحملة على محمد على، بعد أن أكد فضائلها على «الخمول المصرى» والسبب طبعا كما سبق أن قلنا الدبلوماسية التى كانت تمنع الفرنسيين من الإقلال من شأن محمد على ومن فضله هو على مصر.

ولكن تاريخ مصر الحديثة بدأ بسنة وصولهم إلى مصر ١٧٩٨ ... وكم من تلميذ نجيب يعيد هذا الدرس ويكرره إلى اليوم، حتى بعد أن اعترف المؤرخون الفرنسيون المحدثون أنفسهم بخطأ هذه النظرة التى تلقب «برؤية الحقبة الاستعمارية» .

ملحق٢ : الجبرتى

للجزء الأول

ترجمة «كاردان» لحوليات الجبرتى التى نشرت سنة ١٨٢٨، هى التى عرفها - إن قرأها - أغلب من كتب عن بونابرت والحملة، قبل الترجمة الجديدة المنشورة فى ١٩٧٩. وكانت الترجمة القديمة غير دقيقة فى ترجمتها - وهذا أضعف ما يقال! - للأسباب السياسية التى جعلت «كاردان» يقدمها لجمهوره الفرنسى آنذاك، كما سبق أن ذكرنا.

والصفحات التالية للجبرتى لخصت باقتضاب شديد، وقد ألغى كل وصف يعبر عن جمال المبانى المهدمة، فهى صفحات لا تشرف الوجود الفرنسى فى مصر بالطبع، لما أزالوه من روائع تدل على عظمة التراث المعمارى لقاهرة الماضى.

وبديهى، من الكلام الذى سنقرؤه، أن الفرنسيين لم يكن لهم إلا هدف واحد، هو حماية القوات المحتلة المستعمرة، وتأمين حياتهم من غضب الأهالى، من هذا المنطلق، كان ما بنوه لأغراضهم الدفاعية. وقد أهمل، كل من قرأ الجبرتى، هذه الصفحات على أهميتها لما تفضح من تخريب للقاهرة أثناء الوجود الفرنسى، كما أهمل ما قيل فى أول الكتاب عن سرقتهم لكل الكتب القيمة الموجودة بالقاهرة. لذا رأينا أهمية عرضها على القارئ، مادمنا نحاول معرفة ما خفى أو أخفى عن الحملة الفرنسية على مصر.

يقول الجبرتي :

«وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها، فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي؛ فهدموا تلك الاخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الاركان الشبيهة بالأهرام والمنارة العظيمة ذات الهلالين. واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقي ذلك كله خرابا متصلا واحدا، وبقي سور المدينة الأصلي ظاهراً مكشوفا فعمروه ورموا ما تشعث منه وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء، ورفعوا بنيانه في العلو وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظاما وأبوابا داخلة وخارجة وأخشابا مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلا ونهارا ثم سدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق وأنشأوا عدة قلاع فوق التلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والذخيرة وصهاريج الماء وذلك من حد باب النصر الى باب الوزير وناحية الصوة طولا فمهدوا أعالي التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مزالق وانحدارات لسهولة الصعود والهبوط بقياسات وتحريرات هندسية على زوايا قائمة ومنفرجة وبنوا تلك القلاع بمقادير بين أبعادها وهدموا أبنية رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة الكبيرة وما بذلك

من المدارس القديمة المشيدة والقبات المرتفعة وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها وكانت فى غاية من الحسن وجعلوها قلعة ونبشوا مابها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدا بجمع من الناس ودفنوها داخل التكية المجاورة لباب المدرج وجعلوا تلك المدرسة قلعة أيضا بعد أن هدموا منارتها أيضا وكذلك هدموا مدرسة القانبية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة الناصرية خارج باب البرقية، وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصرى الملاصق له قلعة بعد أن هدموا منارته وقبابه وسدوا أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سهور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سوراً بذاتها ولم يبقوا منها الا قوصرة واحدة من ناحية الطبى جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والغفر والعسكر الملازمين الاقامة بها ولقبض المكس من الخارج والداخل وسدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفل مقفص أيضا وعليه خرنخية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا.

وأما ما أنشأوه وعمروه من الابراج والقلاع والحصون بناحية ثغر الاسكندرية ورشيد ودمياط وبلاد الصعيد فشيء كثير جدا وذلك كله في زمن قليل.

ومنها تخريب دور الازبكية وردم رصيفاتها بالاتربة وتبديل اوضاعها وهدم خطة قنطرة الموسكي وما جاورها من اول القنطرة المقابلة للحمام إلى البوابة المعروفة بالعتبة الزرقاء حيث جامع أزبك وما كان في ضمن ذلك من الدور والحوانيت والوكائل وكوم الشيخ سلامة فيسلك المار من على القنطرة فى رحبة متسعة تنتهى الى رحبة الجامع الازبكى وهدموا بيت الصابونجي ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهى الى قنطرة الدكة وفي متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر إلى جهة اليسار عند بيت الالفي حيث سكن سارى عسكر ممتد ذلك الجسر إلى قنطرة المغربي ومنها يمتد إلى بولاق على خط مستقيم إلى ساحل البحر حيث موردة التبن والشون وزرعوا بحافتيه السيسبان والأشجار وكذلك برصيفات الأزبكية وهدموا المسجد المجاور لقنطرة الدكة مع ما جاوره من الابنية والغيطان وعملوا هناك بوابة وكرنكا وعسكراً ملازمين الاقامة والوقوف ليلاً ونهاراً وذلك عند مسكن بليار قائمقام وهى دار جرجس الجوهرى وما جاوره وكان فى عزمهم ايصال ما انتهوا إلى هدمه بقنطرة الموسكي إلى سور باب البرقية ويهدمون من حد حمام الموسكي حتى يتصل المهدوم بناحية الاشرفية ثم إلى خان الخليلي إلى اسطبل الطارمة المعروفة الآن بالشنواني إلى ناحية كفر الطماعين إلى البرقية ويجعلون ذلك طريقاً واحدا متسعا وبحافتيه الحوانيت والخانات وبها أعمدة وأشجار وتكاعيب وتعاريش وبساتين من أولها إلى آخرها

من حد باب البرقية إلى بولاق فلما انتهوا فى الهدم إلى قنطرة الموسكى تركوا الهدم ونادوا بالمهلة ثلاثة أشهر وشرعوا فى أبنية حوائط بحافتى القنطرة ومعاطف ومزالق إلى حارة الافرنج وحارة النباقة وذلك بالحجر النحت المتقن الوضع وكذلك عمروا قناطر الخليج المتهدمة داخل مصر وخارجها على ذلك الشكل مثل قنطرة السد والقنطرة التى بين أراضى الناصرية وطريق مصر القديمة وقنطرة الليمون وقنطرة قد بدار وقنطرة الأوز وغير ذلك ثم فاجأهم حادث الطاعون ووصول القادمين فتركوا ذلك واشتغلوا بأمور التحصين وسيأتى تتمة ذلك ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الامراء التى كانت بها وأخذوا اخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر وفيها يقول ابو سعيد الاندلسي وقد ذكر القاهرة وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ويسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب..

وتخرب ايضا جامع الرويعى وجعلوه خمارة وبعض جامع عثمان كتخدا القزد على الذى بالقرب من رصيف الخشاب وجامع خير بك حديد الذى بدرب الحمام بقرب بركة الفيل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى وهدموا جامع عبدالرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح حتى لم يبق له الا بعض الجدران وجعلوا جامع أزبك سوقا لبيع أقلام المكوس.

ومنها أنهم غيروا معالم المقياس وبدلوا اوضاعه وهدموا قبته العالية والقصر البديع الشاهق والقاعة التى بها عامود المقياس وبنوها على شكل آخر لا بأس به لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية الى الآن ورفعوا قاعدة العامود العليا ذراعا وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الاربع قراريط الذراع.

ومنها انهم هدموا مساطب الحوانيت التى بالشوارع ورفعوا احجارها مظهرين ان القصد بذلك توسيع الازقة لمرور العربات الكبيرة التى ينقلون عليها المتاع واحتياجات البناء من الاحجار والجبس والجير وغيره والمعنى الخفى الشافى خوفا من التترس بها عند حدوث الفتن كما تقدم وكانوا وصلوا فى هدم المساطب الى باب زويلة ومن الجهة الاخرى إلى عطفة مرجوش فهدموا مساطب خط قناطر السباع والصليبة ودرب الجماميز وباب سعادة وباب الخلق الى آخر باب الشعرية ولو طال الحال لهدموا مساطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين الى آخر باب النصر وباب الفتوح. فحصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران في الشقوق وبعض الزوايا والجوامع والرباع التى درجها خارج عن سمت حائط البناء لما هدموا درجه وبسطته بقى باب مدخله معلقا فكانوا يتوصدون اليه بدرج من الخشب مصنوع يضعونه وقت الحاجة ويرفعونه بعدها وذلك عمل كثير...» ..

عبدالرحمن الجبرتى

الجزء الثانى

ص ص ٤٣٢ - ٤٣٦

ملحق ٣ : «المارسييز»

عندما أعلنت الدولة أن «الوطن فى خطر» فتح باب التطوع وجاء المتطوعون من كل أنحاء فرنسا ، وفى الثلاثين من يوليو سنة ١٧٩٢ وصلت الى باريس كتيبة من خمسمائة من أهل ميناء «مرسيليا» ينشدون ما أصبح ، بعد أقل من ثلاثة أشهر ، نشيد كل من ينتمى الى الثورة ، وهو الذى أصبح فيما بعد ، وحتى يومنا هذا النشيد الوطنى للجمهورية الفرنسية .

ونعتذر لركاكة الترجمة التالية ، والسبب أننا حاولنا ، جاهدين الحفاظ على المعاني الأصلية للكلمات التي وجد فيها شعب ذلك العصر ، أحسن تعبير عن مشاعره .

«نشيد أهل مرسيليا»

«هيا بنى الوطن ، لقد جاء يوم المجد
فقد رفع لواء الطغيان الدامي ضدنا .
أتسمعون زئير الجند الشرسين فى الحقول ،
قادمين لذبح أبنائنا ، ورفيقاتنا ، حتى فى أحضاننا ؟

★★★

الى السلاح يامواطنين نظموا كتائبكم
فلنسر ، فلنسر ، ولندع الدم النجس يروى أخاديدنا !
يا حبنا المقدس للوطن ، قد واسند أذرعتنا المنتقمة !
يا أيتها الحرية ، الحرية الحبيبة، حاربى مع المدافعين عنك !

تحت راياتنا ، النصر يلبي نغماتك الحازمة !
فليرى أعداؤك المحتضرون انتصارك ومجدنا

★★★

سندخل في الدرب عندما يتركه شيوخنا
سنجد فيه رمادهم وآثار فضائلهم !
لا نبغي الحياة بعدهم بل نشاركهم توابيتهم
وسيكون لنا الكبرياء السامى ، أن ننتقم لهم أو أن نسير على خطاهم»

ملحق ٤ : «بلزاك «طبيب الأرياف»
الجزء الأول

قد تكون أوقع صورة لما كانت عليه عقلية جند الحملة ، ما كتبه «بلزاك» فى قصته الشهيرة «طبيب الأرياف» على لسان أحد الجنود ، وهذه الصفحات من أشهر ما كتب فى الأدب الفرنسي ، لواقعيتها ، ولما ترسمه لنا من تقاليد عصرها ، إذ كان الفلاحون يجتمعون أنذاك فى ليالى الشتاء الطويلة ، ويقص كل منهم قصة على الآخرين ، سواء كانت تجربة شخصية أو قصة خيالية ، وفى «طبيب الأرياف» يطلب المجتمعون من جندى سابق فى جيش نابليون ، أن يقص عليهم قصة الامبراطور . وكان الجندى قد عاد الى قريته بعد تسريحه من الجيش فى عهد الملكية التى عادت الى فرنسا بعد هزيمة نابليون ، عاد وذكرياته تحول عهد

نابليون بل ونابليون نفسه الى اسطورة ، يسردها مرارا على جمهور من أقرانه الفلاحين ، مما جعل الجيل الجديد الذى يسمع هذا الكلام الباهر يتشبع بتلك الرؤية الاسطورية لعصر لم يعرف عنه إلا انتصارات وحبا جنونيا كان الجند السابقون يكنونه لمن أسموه «بالعريف الصغير» . وإن كان ثمة شيء يدلنا على عقلية هذا الجيش الذى سافر مع بونابرت الى مصر ، وعاش فيها لينشر مبادىء الثورة والتنوير ، فهى تلك الصفحات التى نترجمها كاملة ليتعرف القارىء على نوعية الجند الذين عاشوا فى مصر لسنوات ثلاث . ولن نأخذ منها - نظرا لطولها - الا مايصور لنا كيف كانوا يرون نابليون والحملة على مصر .

يقول الجندى بعد أن طلب منه سُمّاره من الفلاحين أن يقص عليهم «قصة الامبراطور» :

«لقد ولد نابليون - كما تعرفون يا أصدقائى - فى كورسيكا وهى جزيرة فرنسية تدفئها شمس ايطاليا ، حيث يغلى فيها كل شىء وكأنها فى لهب مستمر ، وحيث يقتلون بعضهم البعض ابنا عن أب ، دون أى مناسبة ، فتلك هى حالهم ، ولكى تدركوا غرابة الأمر ، فان أم نابليون التى كانت أجمل نساء عصرها ، كانت فى الوقت نفسه حاذقة أيضا فقد فكرت فى أن تنذره للرب حتى ينجو من كل مخاطر طفولته وحياته ، ذلك لأنها رأت فى المنام أن العالم قد اشتعل فى يوم ميلاده .. كانت نبوءة» .

«وبعد فإنها قد طلبت من الرب أن يحميه ، على أن يعيد نابليون الدين المقدس الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت الى الحضيض .. وقد كان» .

«والآن تنبهوا جيدا لما أقوله وخبرونى بالله عليكم إن كان ذلك طبيعيا ؛ من المؤكد ، بل مما لاشك فيه أن الرجل الذى توصل الى عقد مثل هذا الميثاق السرى ، سيكون قادرا هو وحده ، على العبور سالما من خلال صفوف الآخرين ومن البنادق التى كانت تبيدنا كالذباب ، وكل هذا ينحني احتراما له ، وعندى أنا شخصيا برهان على ذلك رأيته فى معركة إيلوه» .

«إنى مازلت أراه يصعد مرتفعا آخذا منظاره ، وينظر الى المعركة قائلا : «كل شيء على مايرام» ، فاذا بأحد هؤلاء المتملقين نوى القبعات المريشة ، الذين يضايقونه بصفة دائمة حتى وهو يأكل ، كما قيل لى ، قد ظن من نفسه ذكيا فأخذ مكان الامبراطور عندما رحل . لقد نسف وانتهى الريش» .

«أنتم تعرفون طبعا أن نابليون قد احتفظ بسره لنفسه ، لهذا السبب تساقط كل من كانوا يرافقونه حتى أصدقاؤه المقربون ، كانوا يتساقطون كالذباب «ديروك» «بيسيار» و«لان» رجال أقوياء كأعواد الفولاذ التى كان نابليون يطوعها لخدمته» .

«المهم الدليل على أنه ابن الرب ، إنه وجد ليكون أبا للجنود وأنه لم يُر قط ملازما أو نقيبا . هكذا . أصبح القائد العام مباشرة كان يبدو كأنه لايتعدى الرابعة والعشرين من عمره ، ومع ذلك كان كالقائد العجوز

منذ أن استولى على مدينة «تولون» حيث برهن فيها للآخرين أنهم لايعرفون شيئا عن استخدام المدافع» .

«وفجأة وجدنا هذا النحيف قائدا لجيش ايطاليا ذلك الجيش الذى كان يعانى من نقص فى الخبز ، والذخيرة ، والأحذية والملابس وهو جيش مسكين عار كالديدان» .

«... وتحقق السلام هل يستطيع بشر أن يفعل ذلك ؟ ، بالطبع لا لقد كان الرب يساعده إن هذا لأمر أكيد» .

«كان نابليون يتضاعــف كما تتضاعف الخبزات الخمس فى الانجيل . يقود المعركة نهارا ، يعد لها ليلا حتى أن الحراس كانوا يرونه دائما يذهب ويجىء ، لاينام ولا يأكل ، ونتيجة لهذا فقد اتخذوه أبا لهم ، بعدما تعرفوا على معجزاته ، والى الأمام» .

«إلا أن الآخرين فى باريس ، عندما رأوا ذلك قالوا هذا شيخ يبدو كأنه يأخذ تعليماته من السماء ، وله قدرة خارقة على الاستيلاء على فرنسا ، يجب أن نطلقه على آسيا وأمريكا لعله يكتفى بذلك» .

«لقد كتبَ له ذلك مثلما كتب على السيد المسيح ... حدث أنه تلقى أمرا بالتوقف فى مصر وذلك هُو التشابه بينه وبين ابن الرب ، وليس ذلك بكل شىء ، فقد جمع صفوة رجاله الذين جعلهم كالشياطين وقال لهم : أصدقائى الآن لقد أعطونا مصر لنمضغها ولكننا سنبتلعها فى فترة وجيزة مثلما فعلنا فى ايطاليا وسيصبح الجنود البسطاء أمراء وسيمتلكون أراضى ، فإلى الأمام . قال الجنود : الى الأمام يا أولاد» .

«وها نحن فى تولون فى الطريق الى مصر حينذاك كانت كل سفن

الانجليز الحربية فى البحر ، ولكن عندما أبحرنا ، قال لنا نابليون : إنهم لن يرونا ويستحسن أن تعلموا منذ هذه اللحظة ، أن قائدكم يمتلك نجمة حظ فى السماء تقودنا وتحمينا» .

«وقد حدث ماقيل بالفعل . وأثناء عبورنا البحر ، استولينا على مالطة مثلما يستولى على برتقالة يروى بها ظمأه للانتصار فقد كان رجلا لايستطيع أن يحيا دون أن يفعل شيئا. حسنا ها نحن فى مصر وهناك الأمر مختلف» .

«وللعلم فإن المصريين بشر اعتادوا منذ أن أصبح العالم عالما ، أن يكون ملوكهم عمالقة ، وجيوشهم فى كثرة النمل ، لأنها بلد الجان والتماسيح حيث بنوا اهرامات كبيرة ، مثل جبالنا ، وقد أوحى اليهم خيالهم بأن يضعوا فيها ملوكهم ، ليحتفظوا بهم طازجين ، فهذا الأمر «كان يروق لهم» .

«وعند نزولنا قال لنا العريف الصغير «نابليون» : يا أولادى إن البلاد التى ستغزونها لديها عدة آلهة يجب أن تحترموها لأن الفرنسى لابد أن يكون صديقا للجميع ، وأن يهزم الناس دون أن يكدرهم ، ضعوا فى عقولكم ألا تلمسوا شيئا لأننا سنحصل على كل شىء فى النهاية هيا تقدموا فالأمر على مايرام» .

«حسنا . أما هؤلاء القوم ، فقد تنبأوا بحضور نابليون تحت اسم «كبير بونابرديس» وهى كلمة تعنى فى لهجتهم السلطان الذى يطلق النار ، أصبحوا يخافون منه وكأنه الشيطان . عندئذ لجأ سلطان تركيا وآسيا وافريقيا الى السحر ، فأرسل لنا جنيا اسمه «مودى» يُظن أنه

هبط من السماء على حصان أبيض، كان مثــل سيــده لا يتأثــر بالقنابل (...)، لقد كانت سلطات العرب والمماليك هى التى تريد إقناع جندها أن «مودى» يستطيع ان يدفع عنهم الموت أثناء القتال بحجة انه ملاك مبعوث ليحارب نابليون ويسترد خاتم سليمــان، أحـد ممتلكــاتهم التى سرقها القائد على حد قولهم» .

«وعلى الرغم من ذلك، فقد جعلناهم يجزون على أسنانهم . بالله عليكم، خبرونى، من أين علموا بعهد نابليون السرى؟ هل كان ذلك أمرا طبيعياً؟ لقد كان من المؤكد في ذهنهم ان نابليون يقود الشياطين وينتقل كالعصفور فى لمح البصر من مكان إلى آخر، وقد كان فى واقع الأمر موجودا فى كل مكان . وأخيراً، جاء ليخطف منهم ملكة كانت كالبدر فى جماله، قدم لها كل الكنوز وماساً كبيراً فى حجم بيض الحمام . بينما رفض المملوك الذى كانت زوجته، مع ان له غيرها، رفض هذه الصفقة رفضاً باتاً . وفي هذه الحالة، لم تكن الأمور لتستتب إلا بعد معارك كثيرة» .

«وهذا بالفعل ما حدث . فقد أصبح الضرب للجميع . عندئذ، اصطففنا فى الإسكندرية والجيزة وأمام الأهرامات . واضطررنا الى السير تحت أشعة الشمس وعلى الرمال، حيث كان هناك بعض اشخاص مستعدين لرؤية تخيلات، فقد كانوا يرون مياهاً لا نستطيع الشرب منها، وظلالاً تجعلنا نتصبب عرقاً . ولكننا التهمنا المماليك كعادتنا دائماً، وكان الكل يرضخ لإرادة نابليون الذى غزا أعالى مصر وأسفلها، وكذلك بلاد العرب حتى وصل فى النهاية إلى عواصم الممالك

التى لم يعد لها وجود، حيث توجد آلاف التماثيل، وخمسمائة عفريت، ثم كان هناك شئ غريب . وعدد لا حصر له من الأبراص . بلد رائع حيث يستطيع كل إنسان أخذ بعض القراريط من أرضها اذا أسعده ذلك . بينما كان نابليون مهتماً بالشئون الداخلية حيث كان يريد إنجاز أشياء رائعة، أحرق له الإنجليز أسطوله فى معركة أبو قير، لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يخترعون لإعاقتنا . لكن نابليون، الذى كان يحظى باحترام الشرق والغرب، والذى كان البابا يدعوه بابنه، وابن عم «ماهوميه» يدعوه بوالده العزيز، كان نابليون يريد ان ينتقم من إنجلترا ويأخذ منهم الهند بدلاً من أسطوله . كان على وشك ان يقودنا الى آسيا عن طريق البحر الأحمر فى بلاد لا يوجد بها إلا الماس والذهب، وذلك حتى يدفع مرتبات الجنود، وحيث توجد قصور يستريح فيها . عندئذ، كان مودى يدبر أمره مع الطاعون، فبعث به الينا ليوقف إنتصاراتنا» .

«انتباه ! عندئذ صار الجميع فى هذا الغرض الذى لا يرجع منه أحد مترجلاً . لم يستطع الجندى ان يأخذ عكا حيث دخلنا ثلاث مرات بعناد حربى شجاع . ولكن الطاعون كان الأقوى، ولم يكن هناك وقت لنقول : «يا صديقى العزيز !» . كان المرض قد اشتد على الكل . وكان نابليون وحده نديا كالوردة، ورآه كل الجيش وهو يتجرع الطاعون دون ان يؤثر ذلك عليه» .

«وبعد ! أتظنون يا أصدقائى ان ذلك كان طبيعياً؟ عندما عرف المماليك ان كلنا فى عربات الإسعاف، أرادوا ان يقطعوا علينا الطريق، ولكن هذه الحماقة لا تجدى مع نابليون» .

«حينئذ، طلب نابليون من شياطينه الذين كانوا يتمتعون بجلد أسمك من غيرهم : هيا نظفوا لى الطريق (...) حينئذ، تقرر ان نعود الى القاهرة مره أخرى حيث قيادتنا العليا» (...) .

«وعلم نابليون بمشكلة فرنسا بعد معركته الشهيرة فى أبوقير، التى انتصر فيها على جيش الأتراك الكبير القوى بجنوده البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفا . وقد أغرق فى البحر خلالها، وبفرقة واحده، أكثر من نصفهم، دون أن يفقد أكثر من ثلاثمائة من رجاله. وكانت هذه آخر صاعقة له فى مصر(...) » .

«بلزاك» : «طبيب الأرياف» ص ص ١٦٨ - ١٧٤

★★★

أول ما يلفت النظر، فى هذا النص، هو تأليه نابليون . إذ يشبهه الحاكى مراراً بالسيد المسيح، ومن المعروف أن السيد المسيح، فى فرنسا وباقى الدول المسيحية، إله وليس رسولاً ، كما هو فى الدين الإسلامى . فنابليون، الذى يربطه بالله «عهد سرى» يحميه من كل مكروه، هو نفسه إله يتعامل مع الجان، ويعد جنوده بالمستحيل ويحققه. ونلاحظ أيضا ما يقوله ذلك الجندى عن المصريين والشياطين، وما يفهمه ومالا يفهمه من حقيقة المعركة الدائرة بين الفرنسيين والأتراك والمماليك . ولا نرى فى كلامهماينم عن معرفته هو نفسه ، بمبادىء الثورة ، ناهيك عن التنوير الذى يفتقر اليه عقله بشدة ، فهو جاهل الى أقصى حدود الجهل ، ويؤمن بالشياطين ولايرى الا حقيقة واحدة ، هى أن نابليون وعدهم بالاستيلاء على كل شىء فى مصر ، وهذه هى فى الواقع،

الحقيقة الوحيدة وراء وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، مثله فى ذلك مثل أى جيش استعمارى فى أى عصر من العصور ، ولايسعنا بعد قراءة هذه الصفحات الا التساؤل عن كيفية خلق اسطورة الجيش الذى حرر أوربا ، وعلمها - كما سبق أن علم مصر - الحرية والأخوة والمساواة ، وهذا مثل من جنده ؟!

ملحق ٥ : كلوت بك

النص الكامل لسرد كلوت بك أحداث «الحملة الفرنساوية» خير مثال على تأثر الأجيال الجديدة بكتاب «الميموريال» حيث لا نجد فيما يقصه مؤلفنا إلا ما قاله نابليون نفسه فى أحاديثه المدونة بهذا الكتاب ولا يغيب عن ملاحظتنا أنه لا يتحدث مطلقا عن ثورة القاهرة الأولى، التى قامت أثناء وجود بونابرت، فتثبت ضيق المصريين بهذا الوجود، ورفضهم له.

يقول كلوت بك تحت عنوان «الحملة الفرنساوية» :

«الغرض من هذه الحملة - النزول فى ثغر الاسكندرية - واقعة الاهرام هزيمة - ابى قير - نتائجها - كليبر - الانتصار فى هليوبوليس (عين شمس) - منو - الجلاء - نتائج القمح (القمع) الفرنسي.

١٢- لما وصل بونابرتة إلى مصر ووطأت قدماه ثراها فى أول يوليو سنة ١٧٩٨ كان يتصرف فى شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها اثنان من البكوات المصرلية أى المماليك.

أما العلة التى لأجلها الفت حكومة الدركتوار الحملة التى عهدت رأستها الى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها الى ضفاف النيل لاحتلاله فهى ان المماليك كانوا يتصدون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتي علت اصواتهم بالشكوى والاستصراخ غير انه كان هناك سبب اشرف مغزى من قصد انزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش فى المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الافريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا فلم يسعهم الا أن يطاوعوا هذه

القوة القاهرة فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر ان ينفذ اقتراحا رفعه اليه الوزير «لبنتز» للاستيلاء على مصر وطرحت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة فى وزارة (الدوق دى شوازول) فلما عاد بونابرتة من ايطاليا حبذ فكرة «لبنتز» وصفق لها استحسانا معتقدا انها من الاغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها وبلغ من تحمسه لتلك الفكرة انه قال ذات يوم فى حديث له: «ان الشهرة لا تكتسب الا فى الشرق» ، ولقد ايقن بصواب هذا الرأى يوم قال له كليبر فى أبى قير: «أيها القائد: انك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطئ حينما أقبل على بلاد الاهرام يلتمس منها المجد والفخر أى الطلسم الذى يربط بالنوع البشرى كله حظوظ الفطاحل والعبقريين.

على أن نابوليون شرح فى جمل قصيرة الغرض السياسى الذى كان يرمى اليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«ان الغرض الاول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز فى الشرق اذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الاحوال فى الهند وكان لابد فى اصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و (الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر الى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية فى أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى مرافئ ايطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والاسكندرية صار

البحر الابيض المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق ويا للأسف قط !

واذا كنت لا أقصد فى هذا المقام الى ايراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإنى اقتصر على القول بأن الاسكندرية وقعت فى قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم الى البر ولم يقم بونابرتة فى هذا الثغر الا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش الفرنسى بصارمه البتار كما نشر البطيخة بالسكين فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل بفرسانه على المصريين فلم تلبث شدة حملاته ان تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعة فلما رأى المماليك ما حل بهم من الفشل والعجز اخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم الى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والاهرام يتربصون بنا السوء وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأفول نجمنا ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن واقعة الاهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بامبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل اشفى على الهلاك والتلف اذا انجلت عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا في ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت الينا بزمام مدينة القاهرة وبالتالى الخطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبي قير رسم الدونمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التي كان من المنتظر أن يفضي نجاحنا اليها قال نابوليون فى مذكراته (المجلد الثانى): «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها و لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار الى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا . أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحى رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخسر جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وانقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر الى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب.

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم وانصرف خاطرها الى ما وقع بها من النكبات والمحن فى ايطاليا والمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت اليه إلا ان يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وان يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابارته بالاتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحى به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته الى فرنسا فقد عقد كليبر مع الاتراك فى العريش اتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم

الى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وامتعته الى فرنسا ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الاميرال (كيث) الى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه ان انكلترا لا تقبل من الجيش الفرنسى التسليم الا أذا القى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والامتعة فكان جواب كليبر على هذا البلاغ ان نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب اليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها الا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية ان ينازل جيشا مؤلفا من سبعين الف عثماني وان يدحره ويشتت شمله وهو ما قام به التسعة الالاف من الفرنسيين فى واقعة عين شمس الخالدة الذكرى ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد فى الشام فلول الجيش العثمانى كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرون فى أحد القصور مائه وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة اليهم من جموع الأهلين الذين كان يؤيدهم نحو الالف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت فى أنسب الاوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم على شن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئوا

الى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم الا بعد أن احرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للاسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته الى توثيق أركان شوكته وإقامة معالم نفوذه وسلطته ومهد له السبيل الى هذه الغاية فوزه على الاتراك فى عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن ائتمانه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجو) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر الى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الإثر مع مراد بك فآلت اليه بمقتضى هذا التحالف السلطة فى اقاليم الوجه القبلى.. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الامر له ثانيا ان اعتدت عليه يد اثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لانه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة ولم يوجد بين من عهدت اليهم ازمة الامور فى مصر من هو اهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشىء من الاستحقاق والفضل كما لم يكن له من الوجهة الادارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه اغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية واجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه، دع انه من جهة اخرى لم يرض الاهالى

الوطنيين اذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغربية. وكانت اجراءاته العسكرية تستدعي لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى ان سواد الجيش كثيراً ما استهجنها واغفل القيام بها، فكان بديهيا ان تضيع مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقة هذه الحال وايقنوا منها فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبى قير فى قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السيباى) الى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الاتراك فألزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد، (منو) الغبى الغافل بتسليم الاسكندرية اليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة الى الديار الفرنسية.

وانه لمن الاعمال النافعة اللذيذة تقييد حوادث الفتح الفرنسى لمصر وتدوين النتائج التى افضى اليها ولكن أرانى فى هذا المقام مضطرا الى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول ان انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش المماليك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق افقهم فلاح لهم شبح أوروبا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسى قد خلب

بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات (١) فإن ما أبداه من الحكمة في تسامحه والمهارة في احترامه ديانة الامة المغلوبة وعاداتها بثا في نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد بينها وأوروبا والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس منها امدادها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان في الوسع اجراء هذا الاصلاح لو بقي احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها، فإن بونابرتة كان قد وضع بالفعل اساسه وانشأ يرفع اركانه بقصدة ايقال القومية العربية المصرية من

---

(١) سيشغل نابليون او السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزا ساميا فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيرا ما سمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والاعجاب وحدث انني سافرت سنة ١٨٢٤ الى السويس في مهمة فنزلت في بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه اقل تغيير حتى الفراش الذي قام فيه فلم أشأ ان يؤتى الى بربر غيره.. وكان صاحب البيت وقت نزولي به صاحبه علي عهد ذلك القائد العظيم وكان يخيل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل ان نضره الشباب تعاوده كلما اخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسي، ومن قوله: لم يكن ابو نبرت عدوا للمسلمين إذ كان في استطاعته لو اراد ان يقلب جميع المساجد بسن الابرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمه كبيرا بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: ولقد اكدوا لنا انه في ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التي تمكن اثنى عشر ملكا من ملوك النصارى من ارساله اليها وتكبله بالاغلال فيها بعد ان أسقوه شرابا منوما رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترخ في امان وسلام وسلام، وقد نقل ابراهيم باشا الى اللغة التركية تاريخا مختصرا لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة اسرار حكام اوروبا» أى كنز أسرار ملوك أوروبا.

سباتها وبذل في هذا السبيل ما تيسر له من الجهود التي كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين في المدائن الكبرى وامهات القرى وهي عبارة عن المجالس البلدية التي ألفت من كبار الشيوخ والاعيان لترجع الحكومة اليها في معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لايبرم امرا حقيرا او خطيرا الا بعد اطلاعها عليه وابدائها رأيها فيه.

وكان كل مجلس منها يبعث الى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطني الكبير منهم وهذا الديوان هو الذي كان يمثل القطر المصري تمثيلا عاما واظهر الفرنسيون نحو هذا الاصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية فطهروا ارجاءها من العربان الذين كانوا يعيثون فيها الفساد وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة واحاطوها من جهتي البحرين الابيض المتوسط والاحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون».

«كلوت بك»: لمحة عامة إلي مصر الجزء الأول ص. ص ٤٨ - ٥٥

ملحق ٦ : الطهطاوى

«ثم انه يوجد في مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس، وندر وجود احد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس، فإن منهم من مات، ومنهم من تنصر، والعياذ بالله، خصوصا المماليك، الجورجية والجركسية، والنساء اللواتي اخذهن الفرنسيس صغار السن، وقد وُجدت امرأة عجوز باقية على دينها.

وممن تنصر انسان يقال له عبدالعال، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) في ايامهم ، فلما سافروا تبعهم، وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة، ثم بعد ذلك تنصر، والعياذ بالله، بسبب الزواج بنصرانية، ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع عند موته يقول: اجرني يارسول الله! ولعله ختم له بخير، وعاد الى الاسلام، فقال بلسان الحال:

الحمد لله، الحنيفة ملتي والله ربي، وابن آمنة نبيي .

ولقد رأيت له ولدين وبنتا، اتوا في مصر وهم على دين النصرانية احدهما معلم الآن في مدرسة ابي زعبل.

ومثله ما حكاه لي بعضهم ان سر عسكر المسمى «منو» المتولى في مصر بعد قتل الجنرال «كليبر» (بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء)، كان اسلم في مصر نفاقا، كما هو الظاهر وتسمى عبدالله وتزوج ببنت شريف من اشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر، واراد الرجوع اخذها معه، فلما وصل رجع إلى النصرانية، وأبدل العمامة (بالبرنيطة) ومكث مع زوجته ، وهى على دينها مدة أيام بينما ولدت، وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت: لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل! فقال لها الزوج ان كل الأديان حق، وان مالها واحد وهو عمل الطيب. فلم ترض بذلك أبدا فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وانت مسلمة فعليك ان تصدقى بكتاب نبيك. ثم أرسل بإحضار أعلم الافرنج باللغة العربية والبارون دساسى، فإنه هو الذى يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك

فسألته، فأجابها بقوله: انه يوجد فى القرآن قوله تعالى «ان الذين آمنوا، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فحجها بذلك! فأذنت بمعمودية ولدها، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل إنها تنصرت، وماتت كافرة.

كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام.

ومما رأيته من جملة المصريين في مرسيليا : انسان لابس ايضا كالافرنج، واسمه محمد منطلق اللسان في غير اللغة العربية، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير، فسألته عن بلده ببر مصر، فأجاب بأنه من مدينة اسيوط من اشرافها، وأن اباه يسمى السيد عبدالرحيم، وهو من أكابر هذه البلدة، وأمه تسمى مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية في حال صغره، ويقول انه باق على اسلامه يعرف من الأمور الدينية الله واحد ومحمد رسوله والله كريم.

ومن العجائب انني بعد كلامه توسمت فيه الخير، وكان على وجهه سمة اشراف اسيوط (ص ٤٢ ، ٤٤) حقيقة ، فإن صح كلامه كان من اولاد سيدى حريز بن سيدى ابى القاسم الطهطاوى وأشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى ابى القاسم، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير، ذريته أهل جزيرة شندويل، وشهرة ابى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه، وان لم يذكره سيدى عبدالوهاب الشعرانى فى الطبقات وكثير من الاشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حريز المتقدم.

ومما رأيته في مرسيليا الملعبة المسماة «السبكتا كل» وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين، ونذكرها في الكلام على «باريس» ومكثنا في هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا إلى باريس.

«الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى»
«تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»
ص ص ١٢٠ ـ ١٢٢

المراجع العربية والمترجمة

- الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى :
تخليص الإبريز فى تلخيص باريز
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣

- الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى :
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين
القاهرة، دار الكتب

- الشيخ عبد الرحمن الجبرتى :
تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
بيروت - دار الجيل - ١٩٧٨

- عبد الرحمن الرافعى :
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر
جزءان - القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١

- عبد الرحمن الرافعى :
مصر المجاهدة فى العصر الحديث
الجزء الأول : كفاح الشعب من عهد الحملة الفرنسية إلى ولاية محمد على .
القاهرة - دار الهلال - ١٩٨٩

- ج . كريستوفر هيرولد :
بونابرت فى مصر
ترجمة فؤاد أندراوس
القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .
- أ. ب. كلوت بك :
لمحة إلى مصر
٣ أجزاء
القاهرة ، دار الموقف العربى، ١٩٨٢.
- د. ليلى عنان :
الحملة الفرنسية ، بين الأسطورة والحقيقة
القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٤.
- محمد عبد المعطى بن عبد الغني بن على الاسحاقى المنوفى:
لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول
القاهرة ، دار الكتب
- السيد موسى الحسينى المازندرانى
تاريخ النقود الإسلامية
الطبعة الثالثة
بيروت ، دار العلوم ، ١٩٨٨
- نقولا ترك :
مذكرات نقولا ترك
القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥٠ .

- هنرى لورانس :

الحملة الفرنسية فى مصر - بونابرت والإسلام

ترجمة بشير السباعى

القاهرة ، سينا للنشر .

الفهرس

رقم الايداع : ١٠٧٣٧ / ١٩٩٨

I. S. B . N

977 - 07 -0609- 4

روايات الهلال تقدم

البشمورى

بقلم

سلوى بكر

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

التغلغل اليهودى فى الادب الامريكى المعاصر

بقلم

د . رمسيس عوض

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

يصدر ٥ نوفمبر ١٩٩٨

بناءً على رغبة آلاف القراء

دار الهلال تقدم

الطبعة الثانية من

إعجاز القرآن

« الجزء الثاني »

تأليف : رءوف أبو سعدة

الثمن ١٠ جنيهات

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

قرأنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ، كيف كانت ثورة ١٧٨٩ «عصر الأساطير» . وكيف أصبح الجنرال بونابرت أسطورة بفضل عبقريته الإعلامية . وكيف أن حملته علي مصر ، «البلد الأسطوري البعيد» ، أصبحت أيضا أسطورة ، خاصة أن قائدها الشاب – الذي أصبح الإمبراطور نابليون – قد أذل أوربا كلها فيما بعد، وقرأنا كيف أن الأدباء والفنانين أخذوا يمجدون كل ما يخص نابليون ، الإمبراطور ، بإطلاق مسلمات لم يشكك فيها المؤرخون المبهورون بعبقرية أشهر عسكري في تاريخ فرنسا ، حتي يومنا هذا .

ونقرأ في الجزء الذي بين أيدينا الحقائق البشعة لجيش الاحتلال في مصر ، بقلم شهود الحملة العيان، تلك الحقائق التي طمسها كل من رأي في نابليون بونابرت عبقريا معصوماً من الخطأ ، كما سبق أن تجاهلها المؤرخون الاستعماريون بسبب عنصرية واضحة في كتاباتهم ، أدت إلي إطلاق اسم «الحملة الحضارية» علي حملة ، اعترفوا ـ في الوقت نفسه – أنها كانت استعمارية !

وأهم ما يقدمه هذا الجزء للقاريء ، خطابات كليبر ، حاكم مصر ، بعد رحيل بونابرت ، التي يقول فيها صراحة ما ينكره كل من مجد الجيش الفرنسي ، قبل أن ينتهي عصر الإمبراطوريات الاستعمارية . لذا فإن هذا الكتاب يناقش بعد ذلك ، مفهوم الموضوعية العلمية في الغرب ، وما يدعيه الغرب من صدق واحترام للحقيقة ، يفنده موقفهم من الحملة علي مصر ، إذ يصرون ، حتي الآن ، علي اعتبارها حملة تنويرية ، مع اعترافهم بهدفها الاستعماري ، وبالفظائع التي اقترفها جند الحملة في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر . فقد أثبت المؤرخون الفرنسيون الجدد زيف أهم أساطير تاريخهم ، وهي ثورة ١٧٨٩ ، وشخصية نابليون بونابرت . ومع ذلك ، فإن إصرارهم علي تمجيد الحملة ، إن دل علي شيء ، فإنما يدل علي تناقض صارخ في منطق ، كان المتوقع أن يكون سويا . كما يدل علي أن القاريء العربي يجب أن يتوخي الحذر بل الريبة أيضا ، إذا تناول قراءة تاريخنا بأقلام قوم ، لا يرون فينا إلا جنسا أدني ، لابد من استعماره بحجة تنويره وتحضيره . ولا تستند الدراسة في رأيها هذا إلا علي «أقوال شهود من أهلها» .